

١١

كتاب
الحرية

كنت نائبا لرئيس المخابرات



عبد الفتاح أبو الفضل

كتاب الحرية

يصدر أول كل شهر عن

دار الحرية

للصحافة والطباعة والنشر

١٤ شارع شريف - القاهرة

تليفون : ٧٤٧٠٠٠ - برقيًا : الحرية

المراسلات : ص.ب ١٣٧ محمد فريد - القاهرة

رئيس مجلس الإدارة

١. د. محمود محفوظ

نائب رئيس مجلس الإدارة

٢. د. يحيى الجمل

عضو مجلس الإدارة المنتدب

محمد جبر

مستشارو التحرير

د. إبراهيم البحراوى ١. د. سعد الدين إبراهيم

٢. د. على الدين هلال ١. د. محمود متولى

١. د. ملاك جرجس

العدد الحادى ع

شعبان - رمضان ١٦

أبريل - مايو ١٦

رئيس التحرير : محمد جبريل

كنت نائباً لرئيس المخابرات

، الآراء الواردة بهذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن اتجاه « دار الحرية » وإنما
تعبر عن وجهة نظر كاتبها ، ،

إلى رمز مصر
إلى أمي التي أوصلتني
.. وإلى زوجتي
التي شاركتني كفاح السنين

١٠٠ قد يعتبر البعض هذه المذكرات دفاعاً عن فترة
ما ، وقد يعتبرها البعض الآخر هجوماً على فترة
ما ، وقد يستخدمها البعض لأغراض أخرى في
أنفسهم ، إلا أن أحداث هذه المذكرات تؤكد
حقيقة سامية هي : إن العمل المنظم في ظل الحرية
والعدل هو طريق الجميع لحياة أفضل ، ،

هذه المذكرات .. لماذا ؟

عند ظهر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ ، ثالث أيام العدوان الاسرائيلى ، وصلت إلى بور سعيد لأتولى قيادة المقاومة الشعبية هناك بعد انسحاب عشوائى للجيش المصرى من سيناء ودون أى اشتباك جدى مع الجيش الاسرائيلى .

ومنذ بدء العدوان فى ٥ يونيو عاصرت حالة الفوضى التى أصابت الجيش المصرى سواء وأنا على الطريق من القاهرة أو فى مركز قيادة القوات المسلحة فى الاسماعيلية أو عندما شاهدت المعدات المحترقة والرجال القتلى ، والمصابين على الطريق بين القنطرة والاسماعيلية ، نتيجة تضارب أوامر قيادة الجيش بالانسحاب ثم بالعودة من وإلى سيناء .

وصلت إلى بور سعيد وأنا فى غاية الإحباط وتوجهت مباشرة إلى مقر قوات الحرس الوطنى التى كانت تحت قيادة الزميل العقيد جمال السيد ابراهيم وكانت تمثل قوات المقاومة الوحيدة هناك . كانت قواته خليطاً من الرجال من مختلف الاعمار والمهن ، فمنهم كبار الموظفين والعمال والطلبة والتجار وعمال البحر ، فضلاً عن عدد من شباب اليونانيين ، وكان القائد ورجاله فى حالة معنوية مرتفعة وكانت علامات التصميم على الصمود ، وعدم الاستكانة للهزيمة واضحة على وجوههم التى كانت تعبر عن الاستهانة بالحياة فى سبيل الدفاع عن بلدتهم بور سعيد .

أعادت هذه المعنويات المرتفعة الثقة إلى نفسى وأزالت عني تماماً حالة الاحباط التي انتابتني وأنا في الطريق إليهم .

توليت قيادة الحرس الوطنى ، وبعد مدة تمكنا من تكوين مقاومة شعبية بعد أن حصلنا على السلاح والذخائر .

وعندما وقفت وحاربت قوات المقاومة الشعبية والحرس الوطنى وخلفها فصيلة صغيرة من قوات الصاعقة في معركة رأس العش أثبتت هذه الفئات من الشعب المصرى قدرتها على الصمود وتحقيق النصر .

وفي صباح اليوم التالى لمعركة رأس العش الليلية خرج الشعب البور سعيدى بأكمله يحتفل بالنصر ملتفأ حول المقاتلين من رجال المقاومة وجنود وضباط الصاعقة المصرية وقامت السيدات بغسل المدرعات لإزالة غبار المعركة إمعاناً في تكريم أبنائهن المقاتلين .

في هذه اللحظة بالذات راودتنى فكرة تسجيل ذكرياتى ومشاهداتى كشخص عاصر منذ الطفولة كثيراً من الأحداث السياسية .

وبعد عودتى من بور سعيد بأيام ، بعد النصر في معركة رأس العش كنت أزور شقيقتى وكان أولادها الشبان من طلبة الجامعة مجتمعين في غرفة مجاورة مع زملاء لهم . طلب منى أولاد شقيقتى أن أجتمع بزملائهم بعد أن علموا بوجودى وأنتى كنت اقود المقاومة الشعبية في بور سعيد ، بالإضافة إلى عملى كواحد من قيادات العمل السياسى بالاتحاد الاشتراكى .

لاحظت منذ بداية الحوار مدى تحفزهم وسخطهم من النتائج التى وصلت إليها مصر بهذه الهزيمة . وبهذا الحجم . طلبت منهم أن يعبروا عن

أنفسهم سواء على شكل أسئلة أو استفسارات أو تعليق على أن يتركوا لى التعليق والاجابة فى النهاية . وكانت جميع أسئلتهم وتعليقاتهم مرآة عكست بصدق مدى شعورهم بالمرارة والسخط والإحباط والضيق ، وأنهم كانوا ضحية التفرير بهم من القيادات السياسية . وشعرت أن هذه الهزيمة كادت أن تصل بهم إلى حالة اليأس ، وهى أخطر الحالات التى تصاب بها الشعوب وبخاصة فئات الشباب .

وجاء دورى فى الحوار ، وحتى أعيد إليهم التوازن النفسى قمت بشرح معركة رأس العش والى قام بها شباب وشيوخ مصر من المتطوعين والجنود أمام قوات اسرائيل المزهوة بحلاوة النصر .

وضربت مثلاً آخر بعملية إغراق السفينه الاسرائيلية الحربية « إيلات » على أيدى عدد قليل من جنود البحرية أبناء مصر ، هم طاقم ذورق طوربيد صغير .

وأردت أن أختم حديثى بكلمة تشجيع فقلت لهم إن البركة فى شباب مصر لتحقيق ما يبدو لنا الآن أنه مستحيل .

رد أحدهم بتلقائية صادقة « إن من خرب مصر عليه أن يحقق النصر ثم على الشباب بعد ذلك وليس قبلها أن يتولى إستئناف المسيرة وإن جيلكم (يقصد جيل) هو الذى تسبب فى الهزيمة فعليكم إزالة هذا العار أولاً قبل أن تطلبوا منا أى عمل » .

وتبعه شاب آخر قائلاً « أرجو ألا يتولاك كمستول سياسى ومن النظام أى شك أو تفكير بأن مطالبة الشعب – بعد تنحى عبد الناصر بالتمسك به وبنظامه تأييد له ، ولكنها مطالبة بتصحيح الأخطاء وإزالة الهزيمة وعلينا

كشباب بعد ذلك أن نتولى المسؤولية . وإن ما عبر عنه زميلي بأن الذى خربها هو الذى يجب أن يصلحها هو تعبير صادق لموقف شعب مصر كله رغم ما شاب ذلك من مظاهر راقصة مخجلة من أعضاء مجلس الشعب » .

وكان ردى « كلامك مطابق للحقيقة ولذلك كان فى قبول عبد الناصر ونظامه المسؤولية والاستمرار فى العمل العام لإزالة آثار العدوان أبلغ دليل على أن جيلنا لازال فى الميدان ليصحح الأخطاء وسوف يتحقق النصر على الرغم من أننا خسرنا معركة ، وسواء أردتم أم لا فإن الشباب سيشارك فى إزالة هذا العار لأن المعركة القادمة كأتى معارك مضت ، عمادها هو الشباب شباب الجيش وشباب العاملين وأنا لم ننكسر بدليل هذا التعبير الصادق عن تصميم الشباب الذى جاء على الستكم حالاً » .

وبعد هذا اللقاء مباشرة صممت على ضرورة كتابة هذه المذكرات .

لقد عايش جيلى الاحتلال البريطانى وكفاح الشعب والفرقة الحزبية التى أجلت الجلاء والاستقلال لمدة سبعين عاماً ، وحرب فلسطين ، وما سببته نتائجها من مرارة للضباط الشبان الوطنيين ، والإعداد للثورة ثم الثورة فالجلاء ، وضغوط الدول العظمى فى ظل استقلالنا الوطنى ، ومحاولة إدخالنا فى دوائر التبعية ومناطق النفوذ ، التى انتهت بهذه الهزيمة . كل هذا أصبح من الواجب تسجيله للأجيال بعدنا حتى لاتتوه الدروس فى خضم مرارة الهزيمة أو ضمن افراح السلام .

وقد قمت بتسجيل ذلك كله بعد أن قام جيلى ونظام ثورة ٢٣ يوليو بالتحضير للعبور فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

هذا التسجيل اعتبرته وديعة يجب أن أردّها لأصحابها من شباب

لأجيال اللاحقة لجيلنا سواء الذين فرقهم هزيمة ٦٧ وطالبونا باستئناف الكفاح ليتسلموا منا البلاد كاملة السيادة ، أو من أجيال الشباب القادمة وبذلك يمكن أن يطلعوا على كفاح الفرد المصرى عندما يريد لأمتة الحياة .

وهذه المذكرات محاولة لتسليط الاضواء على جميع مراحل حياتى كمصرى فى مواجهة أحوال مصر ، منذ كنت صبياً بالمرحلة الابتدائية إلى أن جعلنى قدرى أقوم بدور وطنى متواضع فى التحضير للثورة ، وأشارك فى الكفاح مع جيلى من طلبة المرحلة الثانوية وما خالجنى وخالج جيلى من الشباب أثناء الدراسة بالكلية الحربية ، والأحداث السياسية فى هامش المرحلتين ، وخلال تفكيرنا فيها وحكمنا عليها . ثم أحداث الحرب العالمية الثانية وتأثيرها على مقدرات مصر وأنا ضابط فى الجيش المصرى ، ومدى انعكاس السيطرة البريطانية على الجيش المصرى . كذلك سجلت فيها معركة فلسطين وملابساتها من وجهة نظر المقاتل فى الجبهة ، والمعارك التى خضتها فى أراضى فلسطين ، ومدى تجاوب شباب المقاتلين مع نداء الوطن والعروبة ، وما صاحب ذلك من فساد القادة السياسيين وعجز القادة العسكريين ، مما عجل بالتحضير للثورة .

رويت أيضاً فى هذه المذكرات عن التنظيمات الوطنية بالجيش بعد حملة فلسطين وما كنا نداوله فى اجتماعاتها عن أحوال البلاد . وسجلت أيضاً أحداث ثورة ٢٣ يوليو ، وقيامى بالخدمة فى المخابرات ، والدور الذى قمت به مع الضباط الوطنيين فى هذا الجهاز من أعمال ، أدت إلى النهوض به ليصبح واحداً من أكفأ الأجهزة فى العصر الحديث رغم بعض المآخذ التى لا يخلو منها أى جهاز مخابرات فى العالم .

بعد ذلك سجلت تحليلاً لأحداث العدوان الثلاثى والكفاح الشعبى المسلح فى مواجهته حيث شاركت فى هذا الكفاح . وأخيراً سجلت معالم

السلبيات في داخل أجهزة الدولة والتي كانت السبب الرئيسى فى هزيمة معركة ٦٧ ودور المقاومة الشعبية فى بور سعيد وكنت بالإضافة إلى قيادتى لها عضوا بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى أمارس من خلالها الخدمة العامة . لذلك قمت بتسجيل الاتحاد الاشتراكى كجهاز سياسى فى فترة من أدق فترات التطور السياسى والاجتماعى فى مصر حيث كانت تجربته مجال جدل داخلى وخارجى انتهت بتحول البلاد إلى نظام تعدد الأحزاب السياسية لتمثيل اتجاهات عقائدية مختلفة فى ظل انفتاح اقتصادى سلبياته أكثر من إيجابياته .

وتلزمى كلمة حق إزاء ما قيل أو اتبع أو نشر عن بعض الفساد الذى تناول جهاز المخابرات المصرى فى فترة من الفترات حتى أصبحت كلمة « المخابرات » - إذا قيلت فى أى وسط كان سواء فى مصر أو فى أى قطر عربى - تثير الرعب والاشمئزاز والكراهية مع استمرار هذه النظرة السيئة عن هذا الجهاز إلى الآن . وبالتالى شعرت بضرورة توضيح دور المخابرات الحقيقى كجهاز وطنى قام بأعمال مشرفة وهى الأصل . أما أى مأخذ أو شوائب ، فما هى إلا مجرد عوارض شاذة بوسعنا الحد منها . ومن الظواهر الشاذة فى بلدنا أن عناصر من المثقفين ، علماء وأدباء وكتاب وصحفيين ، تزعمت حملة التشويه ضد هذا الجهاز لدرجة المناداة بإزالته من الوجود واستبعاده تماماً من أجهزة الدولة .

وكمبدأ عام يجب أن نعتز بأن فكرة إزالة أو إلغاء أو استبعاد جهاز المخابرات من أى دولة لمجرد انحراف بعض أفراد أو أقسام منه هى فكرة خاطئة ، لأن الأوضاع السلمية والمثلثى تقضى ببقاء الفساد أو الانحراف لا إزالة الجهاز نفسه نظراً لشدة الحاجة لجهاز المخابرات فى أى دولة صغيرة كانت أو كبيرة لتحقيق أمن الدولة الداخلى والخارجى .

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

.. وكانت البدايات

النشأة :

ولدت في ٢٨ أبريل سنة ١٩٢١ بـحلوان الجوامات من ضواحي القاهرة والوالد من مواليد سنة ١٨٨٢ ، ، وكان مهندساً معمارياً بدأ حياته بقرية صفط الملوك مركز ايتاى البارود مديرية البحيرة ، وبدأ تعليمه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم . ثم نزح إلى القاهرة بداية من التعليم الابتدائى ليقوم فى منزل فى السيدة زينب يضم جميع شباب وأطفال وشباب العائلة الذين يدرسون بالقاهرة وكان يشرف على هذا المنزل عم الوالد . وقد درس والدى الهندسة ثم التحق بالعمل مهندساً بالرى المصرى بالسودان وعندما عاد إلى القاهرة مارس العمل الحر كمهندس وخير لدى المحاكم الأهلية ، وبجانب عمله الهندسى كان يقوم بتدريس العلوم الرياضية لطلبة الأزهر الشريف .

أما والدتى فقد حصلت على التعليم اللازم للقراءة والكتابة والحساب فى إحدى مدارس الأقباط بحى الناصرية القريبة من منزل والدها بعابدين . هذا المنزل الذى كانت تقيم فيه أسرة الجد كلها بما فيها اسرتنا وكان المنزل بشارع البرمونى رقم ٦ بحى عابدين . ويقع فى أحد الطوابق الخال الكبير الدكتور على راشد الذى أتم تعليمه بقصر العينى ثم تخصص فى كلية طب فرنسا . والخال الأصغر أحمد يحيى راشد المحامى يقيم فى طابق آخر من المنزل مع الجد للوالدة يحيى راشد ، والجد كان يعمل موظفاً

بوزارة الأوقاف . ويملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية . وكان الخال الأصغر أحمد يحبى راشد أثناء دراسة الحقوق يجلس مع خاله الأصغر حسن محسن ، أمام منزل خاله ، خلف الحرم السلطاني ، عندما مر موكب السلطان حسين وتعهدا ألا يقفا احتراماً للسلطان أثناء مروره عليهما لأنهما في ذلك الوقت كانا يمثلان الطبقة المتنورة ، وكلها كانت تمتع السلطان حسين الذى جاء على أثر خلع الخديوى عباس ، والذي كان محبوباً من الشباب والشعب لمواقفه ومساندته للحركات والزعماء الوطنيين في كفاحهم ضد الاستعمار البريطانى . واعتبر السلطان في تصرفها هذا إهانة له . واستفسر عمن يكونان وأمر برفتهما من مدرسة الحقوق الحكومية ، فالتحقا بأول جامعة أهلية بكلية الحقوق جامعة فؤاد (الملك فؤاد . ثم جامعة القاهرة) أما الجدة من ناحية الوالدة . فقد كانت تقيم بشقة صغيرة أعلا المنزل مع حفيدتيها من بنتيها المتوفيتين . وأسرتى تقيم في الدور الأول .

كان للمنزل حوش كبير به فسقية ويطل عليه مندرتان إحداهما يقيم فيها سائق العربى الحنطور التى يمتلكها خالى الدكتور والأخرى يقيم فيها زميل جدى من الطفولة الحاج محمد جنيد الشهير بالحاج محمد زغرغ ، حيث كان وهو طفل بقرية الأسرة صفط الملوك عندما يأكل الذرة المشوية يفرك الكوز بيده بما يشبه (الزغرغة) ويضع ما يفركه في كف يده ، ثم يضعه في فمه ومن ثم أطلق عليه زغرغ وكان الحاج محمد جنيد في سن مقارب لسن الجد ، وإن لم يتعلم بالمدارس . وحضر إلى القاهرة ليزامل الجد في كل شيء وكان يقوم ببعض الخدمات الخاصة بالجد . ومقابلة ضيوفه ويحضر جلساته مع أصدقائه في الشتاء داخل المندرة مع المنقد (دفاية) أو على الرصيف أمام المنزل في الشارع بعد عصر أيام الصيف وبعد رش الشارع بالمياه للترطيب أمام الجلسة التقليدية وكان المنزل يواجه جامع الخلووى ، ويتولى

الحاج محمد جنيد (زغزغ) خدمة هذا الجامع تطوعاً ويواظب على صلاة الجماعة في مواقيتها ، وهو الذى يجهز الجامع للصلاة عند الفجر كما كان يقوم بتوصيل أطفال الأسرة كلها إلى المدارس ويعود بهم وكنا كأطفال ننجذب إليه حيث كان يضع لنا شراب القرفة في مندرته . وأثناء الشراب كان يحكى لنا ذكرياته عن ثورة عرابي . حيث كان أحد جنود جيش عرابي أثناء الثورة واشترك معه في معركة كفر الدوار وحجج إلى بيت الله الحرام عدة مرات .

وعيت على نفسى طفلاً صغيراً يرسلونه إلى كتاب الشيخ زكى بقطرة سنقر (ملحق بجامع الشيخ جنبلاط) بالقرب من المنزل يصحبنى صديق الطريق الحاج محمد زغزغ في الذهاب والأياب وكان هذا الكتاب داخل سبيل جامع جنبلاط وبه دكك خشبية لها أدراج في ثلاثة صفوف كل صف خاص بسنة من سنوات الدراسة الثلاث .

وفى سن الخامسة التحقت بمدرسة أولية يطلق عليها مدرسة بشير أغا دار السعادة . وقف المدعو بشير أغا بشارع درب الجماميز ، والذى كان يوازى شارع الخليج المصرى وكانت المدرسة أيضاً قريبة من المنزل . والتحقت بهذه المدرسة ستين واثقنت الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب مع حفظ بعض آيات القرآن الكريم .

وفى سن الثامنة التحقت بالمدرسة المحمدية الابتدائية بالحلمية الجديدة . واتذكر وأنا بالسنة الثانية بالمحمدية الابتدائية فى أحد أيام الخميس وكنا نسمع المحفوظات لمدرس اللغة العربية الشيخ عاشور ، وكان نشيداً وطنياً له وقع موسيقى جميل « اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى ان مدت الدنيا يداً » .

وإذا بنا نفاجأ بصوت موسيقى الجيش تصدح تحت نوافذ الفصل .
أطل الشيخ عاشور من الشباك وبصوت جهورى وبمعصية وجدناه يهتف
« يسقط الانجليز » تركنا مقاعدنا وتجمعنا بجواره ننظر من الشبايك . وإذا
بطابور من جنود الجيش البريطانى يمر فى الشارع ، تتقدمه فرقة موسيقى
ويسير الجنود على نغماتها والشعب مصطف — بالرغم منه — على جانبي
الشارع وبعد أن انتهى الموكب مختلطاً بهتاف وغضب شيخنا الجليل
عاشور عدنا إلى اماكننا والشيخ عاشور ينهج من الانفعال والغضب عدنا
ونحن ننظر بإعجاب وتقدير لأستاذنا دون أن نفهم مصدر هذا الإجلال .

هذه الواقعة استمرت فى مخيلتى طوال اليوم الدراسى وفى طريق العودة
إلى المنزل بمصاحبة الحاج محمد زغزغ وأجريت معه حواراً ممتعاً سعدت به
مع رفيق الطريق ، بعد أن رويت له ما حدث فى الصباح وكل ما كان يهمنى
هو سؤاله عن سبب هتاف الشيخ عاشور بسقوط الانجليز وخروجه على
وقاره المعهود أمانا فى الفصل ، واستفسرت منه عن يكون الانجليز
ولماذا يلعنهم الشيخ عاشور . أجابنى الحاج محمد زغزغ بأبسط الكلام
وهو « أن هؤلاء الانجليز هم جنود دولة معادية اعتدت على أرض مصر
واحتلتها بمعاونة حاكم البلاد الخائن الخديو توفيق » .

« أما سبب هتاف الشيخ عاشور فلأنه يستصرخ أهل بلده ليتنبهوا
للص الذى يسرق بلادهم ! » .

وصلت إلى المنزل على وعد من الحاج محمد أن يروى لى باقى قصة
عرايى كلها وحرويه ضد الاحتلال وكفاحه ضد الخائن الخديو توفيق .

عدت وأنا متشوق لإجراء حوار مع الوالد الذى كثيراً ما كان يروى لى

وللأشقاء والشقيقات قصصاً من القرآن الكريم بأسلوب في غاية التشويق وجلست إلى الوالد في حجرته بعد الغذاء ورويت له قصة الشيخ عاشور وهتافه ضد الإنجليز وتعليق الحاج محمد عليها وسألته « لماذا يأبى في الوقت الذي يكره فيه الشيخ عاشور والحاج محمد الإنجليز فإن بعضاً من الشعب المصرى على جانبي طريق موكب الإنجليز بالموسيقى يصفقون ؟ ولماذا أغلبهم لا يصفقون وينظرون إلى المشهد بغير اكتراث ولا مبالاة ؟ » وكان رده الذي لأنساه « يا ولدى إن العلم أساس الحياة في هذه الدنيا لذلك عندما أنزل الله سبحانه وتعالى رسالته على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بدأ هذه الرسالة الكريمة بالأمر بالعلم والتعليم والقراءة « اقرأ باسم ربك الذي خلق » فالواقعة التي حضرتها اليوم يا ولدى يتفاوت رد فعلها باختلاف المواقف في مواجهتها وكلها تقود إلى درجة العلم لكل فرد من المصريين الذين شاهدوا الموكب بموسيقاه المثيرة . »

درس لاينسى

أما عن الجد فكان رجلاً مهاباً مع خفة ظل ، وهو محور الأسرة كلها يكاد يكون محسكاً بعجلة قيادة المنزل . يومياً ومن بعد صلاة العصر يعقد جلساته مع جمع من أصدقائه وأهل الحى الذين يواظبون على الصلاة في جامع الخلوتى . وفي فصل الشتاء يجتمعون في مندرة الحاج محمد زغزغ الذى يقوم بتحضير المشروبات الساخنة كالقرفة أما صيفاً فيجتمعون على الرصيف أمام المنزل بعد رش الشارع بالمياه للتطيب وتقدم المشروبات الباردة كالسوييا والليموناده . وكثيراً ما كنا كأطفال نسلل لناخذ أماكننا وسط جلسة الجد ونحصل على نصيبنا من المشروبات اللذيذة ونستمع إلى أحاديثهم عن الدين وعن الحركات الوطنية وعن الوفد المصرى وسعد

زغلول وصحبه الذين قاموا وكافحوا ضد المحتل البريطانى ، علاوة على بعض القفشات المضحكة .

عشت طفولتى وشبابى وجزء من رجولتى فى منزل الأسرة بعابدين . ويعتبر حى عابدين حى الطبقة المتوسطة من أبناء الموظفين بإستثناء سراى عبد الرازق بشارع باب بارس (خلف قصر عابدين) وهى اسرة ثرية كان لها دور كبير فى العمل السياسى والحركة الوطنية فى مصر . كذلك كانت فى نفس شارعنا سراى ادريس باشا راغب وبالقرب من شارعنا كانت سراى اسرة أبو جبل ومقر ابراهيم باشا خليل . ومتاخم لحي عابدين حى الحلمية الجديدة وكان بها قصر تيمور وقصر توفيق نسيم . وكان بنفس حى الحلمية الجديدة مدرستى الابتدائية المدرسة المحمدية وملعب كرة قدم خلف المدرسة الخديوية الثانوية وكان أيضاً هناك حوش القرية يتدرب فيه كل يوم خميس فرسان وموسيقى الحرس الملكى ونراها صباح كل يوم خميس تمر بين مبانى الحرس الملكى بجوار قصر عابدين إلى حوش القرية . وبالقرب من المنزل أيضاً كان شارع درب الجمائز الموازى لشارع الخليج المصرى والموصلان إلى حى السيدة زينب وكانت مدرستى الأولية مدرسة بشير أغا دار السعادة بهذا الشارع وكذا مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية والمدرسة الخديوية الملاصقة لجامع فاضل باشا الذى كان يقرأ فيه المقرء الشهير الشيخ محمد رفعت سورة الكهف كل يوم جمعه . وكان يقطن شارع درب الجمائز أسر اشتهرت بمصارعة الديوك كانت تمتلك ديوكاً متخصصة فى المبارزة ، وكنا نشاهد جانباً منها حيث تنتهى كل مبارزة بقتل أحد الديوك المتبارزة فى وحشية .

ويتاخم حى عابدين خلف منزلنا حى سنقر ، حى الطبقة العاملة

ومعظم سكانه كانوا إما نازحين من ريف مصر أو من الواحات . أما النازحون من الريف فكانوا يعملون في افران الخبز ويصنعون الخبز الذي يحملونه للبيع في المنازل . أما أهل الواحات فكانوا يعملون في جمع القمامة من المنازل ليحملوها للحريق في المستودع التابع لحمام السوق ويطهون في افران هذا المستودع قدور الفول المدمس الذي تخصصوا في بيعه مع البلبلة على عربات يد خاصة صباح كل يوم . أما بقايا حريق القمامة فكان يستخرج منها « الاسرمل » الذي كان يستخدم في بناء المنازل وتغطية أرضية أسطح المنازل كمادة عازلة وواقية من الأمطار .

وهذا الخليط من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة كان على علاقات طيبة بتبادل الخدمات (الكنس - جمع القمامة - بيع الخبز والفول - خبز العيش .. إلخ) وكان كثير من أبناء الطبقة العاملة زملاء لى في الدراسة ، في الكتاب وفي المدرسة الأولية . وبعضهم وصل معى إلى مرحلة التعليم الابتدائى . كما اشترى عم مصيلحى وهو من بائعى العيش مربع المبانى الذى يضم المخبز والحمام وأصبح موسراً .

وكل عام ، كان يقام مولد سيدى الخلوتى المدفون بالمسجد أمام منزلنا وكان الجد والأسرة أثناء ليالى مولد سيدى الخلوتى يوزعون شراب القرفة للمتبردين على المولد كما يقدمون الفته واللحمة لخدم المسجد وللفقراء .

صداقة الطفولة

كان لى اصدقاء من ابناء الحى واستمرت صداقتى بهم طول حياتنا ، منهم المرحوم صلاح والى وكان لأسرته عربة حنطور يجرها زوج من الخيول وعربخانة للخيول وكثيراً ما كنا نذهب إليها لرؤية الخيول بحارة شتى الثعبان

أمام منزلنا مباشرة وتوفي هذا الصديق حين كان طالباً بكلية الحقوق بجامعة الاسكندرية ومنهم المرحوم المهندس الجيولوجى جلال على مصطفى والذي زاملنى فى المدرسة الخديوية الثانوية ثم درس فى كلية العلوم وآخر منصب له كان رئيس هيئة المساحة الجيولوجية ، وصديق آخر هو الأستاذ محمد على النقادى وزاملنى أيضاً فى التعليم الثانوى والتحق بكلية الحقوق وكان آخر مناصبه هو مستشار ورئيس محكمة الاستئناف العالى ثم مستشار بالنقض قبل أن يحال إلى المعاش ، والصديق المرحوم فؤاد رجائى مهندس زراعى ، عمل بالتدريس ، والمرحوم محمد غالب وقد وصل إلى الابتدائية وتوفى والده الموظف بالسكة الحديد ولم يكمل تعليمه واضطر للعمل فى دائرة أبو جبل الذين كانوا على معرفة بالمرحومة والدته ثم عملت على إلحاقه للعمل بالمخابرات العامة وعمل معى كثيراً ، وسافر معى إلى السودان فى أعمال المخابرات وتوفى اثناء الخدمة وكان من اصل سودانى .

وكانت سيدات الأسرة - جدتى للوالده وزوجات اخوالى - يحتفلن فى احد أيام الشهر بيوم يطلقون عليه (المقابلة) يتقابلن فى ذلك اليوم المحدد بقريباتهن وصديقاتهن وزميلات. دراستهن وكن فى ذلك الحفل يعزفن البيانو ويسمعن « الفونوغراف » وبعض ألوان الطرب ويقدمن أثناء هذا الحفل المشروبات الباردة أو الساخنة حسب الفصل شتاء أو صيفاً ويقدمن أيضاً الحلويات والمكسرات وكان هذا تقليداً لمعظم الأسر المتوسطة وكنا كأطفال نتسلل لسماع أحاديثهن التى كثيراً ما كانت تتناول نشاط أزواجهن فى الحركة الوطنية وكنا نغافلهن ونخطف جانباً من الحلوى والمكسرات .

القصص الشعبية

كان للجدة قريبة مسنة فى نفس سنها كثيراً ما كانت تحضر وتقيم مع الجدة لعدة أيام . وكان يصحبها خادم يحفظ سير الأبطال أبوزيد الهلالى

والزنتاني خليفة وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن . وكان هذا الخادم يتقن التلاوة ويغنى الشعر مصاحباً ذلك بريابة كان يحملها (أى كان يقوم بها يقوم به الشاعر في المولد بالريف) فكان يجمع اطفال العائلة حوله بمندرة الحاج محمد زغزغ ويأخذ في العزف على ربابته موسيقى شجية تتناسب مع ما يتلوه من قصص وشعر ، وبجانب ذلك كان يطوف بالحى من وقت لآخر ما يسمى بصندوق الدنيا وهو عبارة عن صندوق مرتفع يوضع على حامل وتوضع دكة امام الحامل كنا نجلس عليها ويغطي علينا بغطاء من القماش وننظر خلال عدسات مثبتة في الصندوق نرى خلالها صوراً ملونة جميلة ويبدأ حامل الصندوق في الغناء ويشغل صندوقه باليد فتظهر العدسات المكبرة صوراً ملونة جميلة لأبطال لها قصص يأخذ حامل الصندوق في سردها وكلها عن الشجاعة والاقدام والفروسية والحب الشريف العفيف .

مرحلة التعليم الثانوى

انتهت المرحلة الابتدائية وكنت في سن الثالثة عشرة ، في عام ١٩٣٤ ، وبدأت مرحلة التعليم الثانوى في أواخر عام ١٩٣٤ بالمدرسة الخديوية وفي تعليمى الثانوى عاصرت نخبة من المدرسين كانوا مربين ومعلمين في نفس الوقت ؛ فكانوا يلقوننا بجانب العلم تجاربهم في الحياة من واقع علمهم الغزير . ووطنيتهم وتجاربهم الشخصية .

كان الاستاذ مخلوف ، مدرس اللغة العربية والدين خلال حصة الدين يشرح الآيات البيئات ويربط شرحه بواقع الحياة مما حجب إلينا دروس الدين وكان الاستاذ الجندى مدرس العلوم ينتمى سياسياً إلى حزب الوفد . رغم حصوله على درجات علمية عالية من فرنسا تؤهله للعمل في مراكز عليا بديوان وزارة المعارف فقد كانت الاحزاب المعارضة للوفد عندما تصل إلى

بحم نصحده وبعده للتدريس بالمدارس . وكان هذا الاستاذ يشرف على مجلة المدرسة السنوية والتي كنت أنا عضوا في مجلسها . وكان أثناء اجتماعات هيئة تحرير المجلة يفتح حواراً في احد الموضوعات الوطنية وينقلب الاجتماع إلى مناظرة وأسئلة وأجوبة ساعدت على تفتحنا سياسياً واجتماعياً ووطنياً . وقد علمنا أنه كان من جماعة اليد السوداء القذائية ، والتي قامت بالأعمال الخارقة ضد المستعمرين وأعوانهم من الخونة .

ولجنة تحرير المجلة كانت تضم طلبة من مختلف النوعيات ومن مختلف الاحزاب ، وكان هناك الوفدى المتطرف مثل عبد الملك هاشم الكبير ومن الحزب الوطنى محمد فريد ابو العز (دكتور صيدلى صاحب اجزاخانات بقصر العينى والهرم والمعادى) وفؤاد اسماعيل (الشاعر) والذي كان بلا لون حزبي وعبد البودود رياض (القاضى الآن) وعبد الرحمن الشرقاوى (الشاعر والكاتب الصحفى الآن) .

أما الأستاذ محمد ابراهيم استاذ مادة التاريخ (وقد حصل بعد ذلك على الدكتوراه وعمل أستاذاً لمادة التاريخ بأداب القاهرة) فقد كان موسوعة تاريخية عناصرها الأساسية الأمانة والصدق والحق . وقد سعدت بالتلمذة على يديه في السنة الثالثة الثانوية وكان يدرس لنا مادة التاريخ المصرى الحديث وكان ينتهى بأسرع ما يمكن في حصصه من الدرس المقرر . ثم يغلق دفتره ويبدأ في شرح الحقيقة ويشجعنا على اقتناء واستعارة المراجع التاريخية التى منها يمكن أن نصل إلى الحقيقة وذلك من مكتبة المدرسة أو من دار الكتب .

الاشتراك في أول عمل وطنى

كان ذلك في عام ١٩٣٥ . وكنت في السنة الثانية الثانوية بالمدرسة

الخدويوة . كان ذلك أثناء وزارة توفيق نسيم باشا حيث كان قد وعد بإلغاء دستور ١٩٣٠ المكره من الشعب وكان هذا الدستور من بنات افكار اسماعيل صدقي-السياسى السذاهية ورجل الملك . وعد نسيم باشا الشعب بأنه سيسبدل دستور سنة ١٩٣٠ بعودة العمل بدستور ١٩٢٣ المؤيد من الشعب لأنه يجد من سلطات الملك . فى ذلك الوقت صدر مرسوم ملكى يقضى بإلغاء دستور ١٩٣٠ وأن يتولى الملك بواسطة وزرائه سائر سلطات البرلمان . فى نفس الوقت اشيع أن وزارة نسيم تنوى وضع دستور جديد وسط بين دستورى ١٩٢٣ ، ١٩٣٠ فى الوقت الذى أعلنت فيه بريطانيا أنها غيرراضية عن دستور ١٩٢٣ وكذلك دستور ١٩٣٠ نفسه وإزاء هذا التصريح والأعلان البريطانى تكهرب الجو الشعبى ، وخرجت الجماهير ومعها الطلبة من جميع انحاء مصر فى مظاهرات صاخبة . واشتركت مع طلبة المدرسة الخديوية فى تلك المظاهرات واتجهنا مع جموع غفيرة من الشعب وطلبة المدارس الأخرى والجامعات إلى منزل نسيم باشا بالحلمية الجديدة نهتف بسقوط نسيم باشا « يسقط نسيم أبو عقل تخين » . كان هذا بمثابة أول مشاركة لى فى عمل وطنى سياسى أمارسه فى حياتى بعد أن تفهمت أبعاده ، وكان باختصار شديد هو المطالبة بإعادة حكم البلاد دستورياً بدستور سنة ١٩٢٣ الذى يحقق شيئاً من الحرية للشعب ويحد بعض الشئ أيضاً من سلطات الملك .

وفى اليوم التالى للمظاهرات توجهت مع طلبة المدرسة الخديوية فى مظاهرة إلى الجامعة (جامعة فؤاد الأول) وتدخل البوليس فى فض هذه المظاهرة وحدثت مصادمات كان من أبرزها أن قتل البوليس أحد الطلبة على كوبرى عباس بعد أن حاصرت قوات الأمن ، كنت أثناء ذلك بجوار زميل الدراسة محمد على النقادى (مستشار بالقضاء حالياً بالمعاش) وكان

يرتدى نظارة لا يمكن السير بدونها وأثناء اشتباكات البوليس وقع على الأرض وأصيب في وجهه ، وكسرت نظارته وأصبح غير قادر على السير . سحبته أثناء تصاعد المصادمات جانباً إلى أن هدأت الحال وعدت به إلى منزله . كانت نتيجة هذه المظاهرات التي اشتركت فيها لأول مرة في حياتي . أن اضطرت حكومة بريطانيا إلى إيقاف اعتراضها على إعادة دستور ١٩٢٣ وذلك في عام ١٩٣٥ وصدر مرسوم ملكي ينص على إعادة العمل بالدستور .

الرجوع إلى التاريخ القريب

في اجازة صيف ١٩٣٦ ، وبعد وقوفي على العمل الوطني الذي نجح في إعادة دستور سنة ١٩٢٣ وكان نتيجة سقوط وزارة نسيم وتشكيل وزارة على ماهر الذي مهد لتكوين جبهة وطنية للمطالبة بالجلء ، وجدت نفسي متعطشاً لدراسة تاريخ هذا الاستعمار البريطاني في مصر والسودان بعد هزيمة عرابي وعودة الخديوى توفيق الخائن للسيطرة مع الانجليز على مقدرات هذا الشعب . وحيث ان جميع المراجع والكتب التاريخية المدرسية المتاحة لي ولجلي في ذاك الوقت لم أجد فيها المادة المتكاملة والكافية لهذه الدراسة ، فقد بدأت في الاستعانة بكثير من المراجع التاريخية ولجأت إلى خالي المحامي احمد يحيى راشد الذي سبق وشارك في ثورة ١٩١٩ وبعض الاقارب . هذه المعلومات التاريخية كنا نفتقر لها أنا وجلي كله . وبدأت في التقصى والاطلاع والمراجعة وأخذت أدون لنفسي مذكرات خاصة منذ تولي الخديوى عباس حلمي ولاية مصر حتى يمكنني فهم كل ما يجري من أحداث أثناء فترة المفاوضات وبالذات لأفهم على ماذا سيتفاوض المصريون مع الانجليز ولقد تعمدت أن تناول مذكراتي هذه الفترة لأن معظم جيلنا والأجيال الحاضرة تفتقر جميعاً لهذا الجانب من تاريخ بلادنا .

الأمل يتجدد

فى آخر عام ١٩٣٦ اعتلى ملك شاب العرش وكل الشعب أمل فيه ، وحصلت البلاد على دستور ١٩٢٣ الذى جاء ببرلمان منتخب افرز حكومة قومية متعاونة مع باقى الأحزاب ، وبتضامنهم أمكن إبرام معاهدة ٣٦ وألغيت الامتيازات الأجنبية البغيضة ، والنحاس على رأس حكومة متمسكة باحترام الدستور ، وانتهى تحكم المندوب السامى ، وتغير اللقب إلى سفير من المقروض أنه ليس له أى حقوق للتدخل فى شئون السياسة الداخلية فى البلاد . يتوج هذا الأمل النحاس باشا رئيس الوفد بموقفه المتشدد مع رجال القصر الملكى احتراماً للدستور عندما اصر بإيعاز من رجال القصر عند تنويع الملك بعد بلوغه سن الرشد سنة ١٩٣٧ أن يقسم اليمين دستورياً أمام البرلمان وليس فى احتفال دينى فى الأزهر كما كان يريد رجال القصر . لكل ذلك وفى سنة ١٩٣٧ كنا كشباب يملؤنا الفخر والأمل فى مصر ، ورجال مصر ولكن كثيراً ما « تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن » فقد بدأ رجال القصر يستعدون الملك الشاب قليل الخبرة على الأحزاب وعلى التدخل فى شئون الحكم متجاوزاً سلطاته الدستورية . كما بدأ السفير البريطانى يعاود تدخله فى الحكم خصوصاً عندما شعر بأن الحكومات لم تكن قد تخلت عن عقدة المندوب السامى وكذلك بدأت الجبهة الوطنية (التى كان لها الفضل فى الحصول على معاهدة ١٩٣٦) تتفكك وأصبح التناحر والصراع والخلاف هو الجو السائد بين الأحزاب .

وزاد الطين بلة أن حزب الوفد نفسه — حزب الأغلبية — أخذ يتحلل من الداخل بخروج أعضائه المؤسسين الواحد بعد الآخر .

الصدمة

بناء على ما غرسه في جيلنا الآباء والمدرسون الأفاضل ما كنا نتصور أن هناك مصرياً متمسكاً بدينه ووطنه يرضى بالخنوع والعبودية لا للأجنبي ولا لحاكم فما بالك بالحكام الذين كنا نتأمل صورهم المنشورة في الصحف والمجلات وعليهم سمات الرجولة والعزم ثم نصدم فيهم عندما نقرأ في الصحف مدى ما يرتكبون في حق بلادهم . وبعد زيادة وعينا واطلاعنا على مدى تمسح الوزراء ورؤساء الوزارات وبناء على ما كنا نطلع عليه في الصحف عن تدخل السفير البريطاني في شئون البلاد ضارباً عرض الحائط بسلطات الملك أو الحكومة أو حتى البرلمان ومدى استهتار رجال القصر بالدستور واستعداد الملك على الدستور كنا نصدم بهذه المواقف وهذه الصور المزيفة ، كل ذلك جعلنى أثور بينى وبين نفسى ومعى جيلى بأكمله على هذه الأوضاع المقلوبة وأخذت أدونها بمذكراتى أولاً بأول وهى تقريباً الأسباب الرئيسية ليس بالنسبة لى شخصياً ولكن بالنسبة للشعب المصرى الذى كان مثلى يثور فيما بينه وبين نفسه على هذه الأوضاع . وفى خضم هذه الأفكار المتناقضة وغير الودية الأبعاد كثيراً ما فكرت بعهد اشتراكى فى أول مظاهرة سياسية وأحجمت عن الانضمام إلى حزب الوفد وهو الحزب الذى كانت تستهوينى تصرفاته ومواقفه الشجاعة والوطنية . إلى أن جاء عام ١٩٣٧ وكان الوفد بالحكم والنحاس باشا رئيساً للوزراء . وتناولت الصحف بالتفصيل قضية نزاهة الحكم فى موضوع مشروع كهربية خزان اسوان . وحدث خلاف داخل حزب الوفد حول التصديق لشركة بريطانية بالاتفاق المباشر ، وليس بالمناقصة للقيام بتنفيذ المشروع ، وكانت نظير سبعة ملايين جنيه وكانت أغلب الشركات العالمية الأخرى تعرض تنفيذ لمشروع بخمسة ملايين جنيه فقط . وقام الوزير الوفدى محمود غالب بالنشر

فى الصحف عن هذه الملابس والخلافات وأيده النقراشى باشا فى ذلك وهو أيضاً كان أحد الوزراء الوفديين ومن التنظيم السرى الوطنى (اليد السوداء) ، وعند إعادة تشكيل وزارة النحاس باشا ، استبعدت النقراشى ومحمود غالب من التشكيل الوزارى الجديد . واستمر محمود غالب باشا فى النشر عن هذا المشروع متهماً الوزير الوفدى المختص بالمشروع عثمان محرم باشا بعدم النزاهة . وصدر قرار حزب الوفد بطرد النقراشى ومحمود غالب . كان أحمد ماهر زميل الكفاح مع النقراشى وصديقه رئيساً لمجلس النواب وجاء رأيه مطابقاً لرأى النقراشى ومحمود غالب . وطالب بضرورة عرض مشروع كهربية خزان اسوان فى مناقصة عالمية عامة ، ولم توافق وزارة النحاس باشا على ذلك وصدر قرار بطرده هو الآخر . وبخروج هؤلاء الثلاثة من حزب الوفد كونوا حزباً جديداً اسمه الحزب السعدى وكنت فى هذه السن متأثراً بدور كل من أحمد ماهر والنقراشى لاشتراكهما فى عصاة اليد السوداء ذات الأعمال الخارقة فى الكفاح الوطنى وبعد اطلاعى فى الجرائد اليومية على مدى الفساد الذى أخذ يتضح فى صفوف المستوزرين من حزب الوفد وكنت فى حيرة من رأى من ناحية الانضمام لأحد الأحزاب فقد ذهبت إلى دار الحزب السعدى ، وانضمت إلى لجنة طلبة المدارس الثانوية بالحزب وأخذت فى تكوين لجنة بالمدرسة ولكنها كانت عددياً وجسمانياً اضعف من لجنة طلبة الوفد . وكثيراً ما جر على هذا الانضمام التعرض للاعتداء على أثناء المظاهرات ، واثناء النقاش بحوش المدرسة .

تأملات فيما كان يجرى حولنا سنة ٣٧ - ١٩٣٨

فى ذلك العام كنت بالرابعة (شهادة الثقافة العامة) وكنت أقضى معظم وقت فراغى من المذاكرة إما فى لعبتى المفضلة (المباراة) أو فى النشاط

السياسى ، فأجتمع مع لجنة الطلبة السعديين بالمدرسة . أوفى دار الحزب وكنا نتناقش على ضوء ما نقرأه فى الصحف الحكومية والمعارضة الأوضاع السياسية فى هذه الفترة ، وبخروج أحمد ماهر والنقاشى من الوفد كانت صحيفة « البلاغ » قد انقلبت إلى جريدة معارضة للوفد ، وكان صاحبها عبد القادر حمزة وكان ابنه فؤاد حمزة زميل دراسة بالخدوية . وكثيراً ما كانت صحيفة « البلاغ » والوفد فى الحكم تهاجم حكومة الوفد وحزب الوفد وكثيراً ما كانت الحكومة تصدرها . وقانون الصحافة فى ذلك الوقت كان يقضى بمصادرة العدد المنشور به الموضوع الذى يزعم الحكومة ، وكذلك يتعرض المسئول عن التحرير للتحقيق فى النيابة فإذا وجدت النيابة فى العدد ما يستحق تقديمه للقضاء صودر العدد فقط ويسمح للجريدة باستئناف الصدور بحكم القانون . وقد قدم رئيس التحرير للمحاكمة ولكن غالباً ما كانت النيابة تفرج عن الأعداد المصادرة . وتفرج عن رئيس التحرير فى معظم الأحوال . وفى النادر كان يحول رئيس التحرير للقضاء . ولم أعاصر أى حكم ضد أى رئيس تحرير أبداً بل كان يحكم له بالبراءة لأن ما ينشر ليس فيه ما يخالف القانون ، ولكنه كان نقداً موجهاً إلى رجال سياسة يعملون فى الخدمة العامة ويجب مساءلة ونقد العمل العام بحكم الدستور الذى يؤكد على الحرية . وما كان يحدث للبلاغ كان يحدث لصحف الوفد عندما تكون خارج الحكم . كل هذه التصرفات البسيطة فى مظهرها والعظيمة فى معناها كانت الشغل الشاغل لعقولنا المتفتحة بالأمل . وكان شعورنا كله تقديراً لجمال وعظمة الحرية وكان ذلك مما يجدد فينا الأمل تحت ظل الحياة الدستورية والتى من أهم معالمها احترام القانون من الحاكم والحكومة . وكان يعكر صفو هذا الجو المملوء بالأمل أحزاب الأغلبية سواء الحقيقية أو المزيفة عندما تكون فى الحكم والتى كثيراً ما كانت تنتهز حصولها على

الأغلبية البرلمانية فتهارس الحكم الاستبدادى وتنفر بالسلطة دون مراعاة لقانون أول دستور البلاد مطمئنة للأغلبية البرلمانية . حتى إذا كانت هناك أصوات معارضة في البرلمان أو اقترعت ضد الحكومة فإن هذه المعارضة تخرسها الأغلبية خصوصاً بعد أخذ الأصوات وكان الشعب المصرى هو الضحية رغم أنه هو الذى كان يعطيهم اصواته . الشعب كان مقهوراً بحكوماته واحزابه بعد أن كان مقهوراً بالقصر والمعتمد البريطانى فقط وهذا كان من سخرية القدر بهذه الأمة .

ما بعد التوجيهية

بعد أن نجحت في امتحان اتمام الشهادة الثانوية وكان يطلق عليها « شهادة التوجيهية » قسم علمى سنة ١٩٣٩ وأثناء أجازة الصيف أعلنت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقدمت أوراقى للالتحاق بالكلية الحربية ، وفي نفس الوقت تقدمت أيضاً للالتحاق بكلية الحقوق جامعة فؤاد (القاهرة) حتى إذا لم أقبل بالكلية الحربية « التى يحتاج دخولها إلى واسطة في الغالب التى ابتليت بها بلادنا حتى ذلك الوقت » كنت سأستمر في الدراسة بكلية الحقوق لأننى دائماً كنت أتوق لدراسة القانون وما حوله من دراسات إنسانية ، كنت قد مهدت نفسى لها من واقع ممارساتى في العمل السياسى وأنا طالب بالثانوى . ولكنى اخترت الكلية الحربية على أساس أنه يمكننى بعد التخرج منها أن التحق بالانتساب إلى كلية الحقوق وهذا ما حدث فعلاً . واخترت الالتحاق بالكلية الحربية بعد مناقشة ومراجعة للنفس سواء عن اقتناع كامل بها . أو عن بعض الاقتناع ولكن كانت هناك عدة أسباب عن تفضيلى الكلية الحربية ، وهى :

(١) استهوائى لدور ضباط الجيش المصرى الأبطال في ثورة عرابى سياسياً وعسكرياً .

(٢) اقتناعى بأن أى تنظيم عسكرى سياسى عادة لا تنفجر بداخله بذور الخلاف والشقاق بعكس التنظيمات السياسية المدنية التى كانت الثورات تشتعل على أيديها ولكن سرعان ما تنطفئ شعلتها من كثرة الخلافات فيما بينها .

(٣) بعد دراساته عن الجندى المصرى والضباط المصريين الذين اعتمد عليهم محمد على فى خروجه وفتوحاته وحقق بهم المعجزات بمقاييس عصره .

(٤) اعتقاده الكامل بأن أشرف ما يصبو إليه الإنسان المصرى هو الدفاع عن وطنه وشعبه . ولا يمكن أن يتحقق هذا الكفاح ضد المحتل إلا عن طريق الانخراط فى الجيش .

(٥) اقتناعى بأن الضابط خريج الكلية الحربية بما يحصل عليه من ثقافة عامة مدنية وعسكرية تمكنه من مواصلة الطريق فى ميادين العلم والمعرفة والثقافة بمدومة الاطلاع . أو بالالتحاق فيما بعد بالكليات النظرية أو الدراسة من المنازل

(٦) بعد معاهدة ١٩٣٦ . أعيد تنظيم الجيش المصرى ، (الكلية الحربية) على أحدث تنظيم . ولكن الفضل الأكبر فى ذلك لعزير المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش . بالإضافة إلى تشجيع بريطانيا لذلك التطوير . أملاً فى استخدام الجيش لخدمة أغراضها ، خاصة بعد أن أطلت نذر الحرب العالمية الثانية .

فى كلية الحقوق

قبلت فى كلية الحقوق . وانتظاراً للكشف الطبى ، وكشف الهيئه (الواسطة) فى الكلية الحربية . لم أضيع الوقت ، وانتظمت فى دراس الحقوق بالجامعة . ومكثت بها ألقى العلم لمدة ثلاثة شهور ، كانت من

أمتع فترات حياتي ، حيث شعرت من المحاضرات التي كنا نحضرها أنها فعلاً مدرسة الحياة ، وكان أساتذتنا نخبة من العلماء الوطنيين المتخصصين في موادهم منهم الدكتور وايت ابراهيم والدكتور عبدالمنعم بدر والدكتور حشمت أبوسيتيت والشيخ محمد أبوزهرة أستاذ مادة الشريعة . استهوتني جداً مادة الدستور ، وكان أستاذاً يقف عند كل مادة بدستور سنة ١٩٢٣ ، ويتلو علينا من واقع محاضر جلسات اللجنة التي وضعت الدستور اراء أعضاء هذه اللجنة في كل مادة ، ثم يأخذ في التعليق والتقد المتعمق .

وخرجت بنتيجة أثناء هذه الدراسة الممتعة في المدة القصيرة التي أمضيتها في كلية الحقوق أنه لإيجاد حكم متوازن في بلد ما يجب أن يحقق دستوراً التوازن الكامل بين السلطات وأن تحترم كل سلطة اختصاصات السلطات الأخرى .

في الكلية الحربية

في نوفمبر سنة ١٩٣٩ قبلت في الكلية الحربية ، وتركت الدراسة في كلية الحقوق . درست مع دفعتي في الكلية الحربية لمدة ثلاث سنوات كاملة وتعتبر الدفعة الوحيدة التي استكملت برنامج الدراسة المدنية والعسكرية المقررة في هذه الكلية . وهذه الدراسة طبقاً للنظم الحديثة تعتبر كافية ، وعلى جانب من الأهمية للتخرج . وتخلل فترة الثلاث سنوات أحداث هامة منها : (١) استبعاد عزيز المصري من رئاسة أركان الجيش المصري كطلب السفير البريطاني بحجة أنه كان يزوج الدعاية للألمان . وما طل على ماهر رئيس الوزراء في طلب السفير البريطاني باستبعاده ، وأحاله إلى حسين سري باشا . وكان لعزيز المصري باشا سمعة طيبة سياسياً وعسكرياً ، ورغم عدم اطمئنان الانجليز له فقد كانوا يعتبرونه من

اكفأ العسكريين فى العالم .

(٢) حادثة محاولة هروب عزيز المصرى إلى المانيا فى مايو سنة ١٩٤١ ،

وكنى بالقسم المتوسط بالكلية الحربية وقد قام بها عزيز المصرى بالاتفاق مع الطيار حسين ذوالفقار صبرى والطيار عبد المنعم عبد الرؤوف (يمت لى بصلة القرابة) فى محاولة للإستيلاء على طائرة عسكرية والهروب بها إلى المانيا . ولخلل فى مفتاح بنزين الطائرة هبطوا بها اضطرارياً فى حقلى فى « قليبوب » . وتمكن الثلاثة من الوصول إلى مشارف القاهرة بعربة بوليس استعارها عزيز المصرى من احدى نقط الشرطة بالقليوبية بحجة أن سيارته تعطلت ، وكان ضابط البوليس ممن تخرجوا على يديه عندما كان مديراً لكلية البوليس . واختفوا فى منزل الفنان عبد القادر رزق (أصبح عميداً لكلية الفنون بعد ذلك) فى امبابة وكان من اعضاء حزب مصر الفتاه . ومن المعجبين بشخصية عزيز المصرى . وفى النهاية قبض عليهم رجل القلم السياسى المشهور إمام ابراهيم ، وقدموا إلى المحاكمة العسكرية . وجهزت قاعة الألعاب الرياضية بالكلية الحربية لهذه المحاكمة . وكنا ونحن طلبة بالكلية الحربية نشاهد الجموع العسكرية والمدنية التى تحضر هذه المحاكمة ، وكلنا إعجاب بهذه المغامرة الوطنية المثيرة . ولم تتم محاكمتهم للنهاية حيث دفع محاميهم المرحوم حماده الناحل المحامى الشهير بعدم دستورية قانون الأحكام العسكرية الذى يحاكمون بموجبه لأنه قانون كان قد وضعه الانجليز ولم يتم تصديق البرلمان المصرى عليه . وقمت فى أحد أيام أجازاتى الأسبوعية بزيارة قريى المعتقل الطيار عبد المنعم عبد الرؤوف فى مكان التحفظ بسكنات الجيش فى منشية البكرى ووقفت منه على ملابسات عملية الهروب .

وعلمت منه أن عزيز المصرى باشا بعد فشل حركة رشيد على الكيلانى فى العراق . وعدم مساعدة الالمان له فى الوقت المناسب اعتزم أن يذهب بنفسه إلى الألمان للاتفاق معهم على القيام بحركة مماثلة ضد الانجليز فى مصر لتحقيق الاستقلال على شرط أن تمدد ألمانيا بما يطلبه من أسلحة وألا يتخلوا عنه كما تخلوا عن رشيد على الكيلانى فى العراق . وأيامها ، ولأسباب غير معروفة لى تم فصل الطالب يوسف أدهم من دفعته من الكلية الحربية وقيل إنه كان على اتصال بعزيز المصرى أيضاً . وبعد توقف المحاكمة العسكرية وعدم ثبوت تهمة الخيانة من تحقيق النيابة العامة أفرج عنهم . ولم يسكت السفير البريطانى على ذلك ، بل طلب من الحكومة المصرية اعتقال عزيز المصرى واعتقل بالفعل فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ واستمر معتقلاً لمدة عامين وثلاثة أشهر وكان الاعتقال عقب قضية العوامة المشهورة بقضية الراقصة حكمت فهنى والجاسوس الألماني « أدلر » Adler أو حسين جعفر وهو اسمه المصرى والتى حوكم فيها أيضاً أنور السادات .

(٣) حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وقد تم وأنا طالب بالسنة النهائية بالكلية الحربية وكان له وقع أليم فى نفوسنا كطلبة عسكريين مصريين على وشك التخرج للعمل كضباط بالجيش لتوكل الينا مهمة الدفاع عن شرف بلادنا . وقد اعتبرنا هذا الحادث طعنه موجهة إلى شرف مصر من مستعمر غاصب لا يحمل أى شعور احترام أو تقدير لحليفته مصر المرتبط معها بمعاهدة مفروض منها الاحترام المتبادل بين الدولتين

الخدمة بالجيش والأحداث

ويقرب شهر مايو سنة ١٩٤٢ ويتم تخرجى من الكلية الحربية وأعين

ضابطاً صغيراً (ملازم ثان) بالكتيبة الرابعة مشاة بالقنال ورئاستها بالقنطرة غرب . وذلك بعد الاحداث المهينة والمؤلة في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وتتوالى الأحداث السياسية إذ يخضع النحاس باشا رئيس الوفد ورئيس الحكومة . وتحت ظل اعلان الاحكام العرفية ، لمشينة وتصرفات السفير البريطاني (لورد كيلرن) خضوعاً كاملاً ويستبد بالوطنيين المعارضين له ويجرى عملية اعتقالات بالجملة لجميع الشرفاء بحجة مقاومتهم مع الألمان أولمجرد الاشتباه في موقفهم المعادى للانجليز ، وأحياناً بلا أسباب سواء استجابة للسفير أو استجابة لأهوائه السياسية . وكان على رأس من اعتقلهم على ماهر باشا وعزيز المصري باشا . وبنفس القدر من التساهل يتراجع عن تشده مع القصر وتهاون في حقوقه الدستورية مع رجال القصر وأعطى الملك حقوقاً مخالفة للدستور . وفتح شهيته للتدخل . كل ذلك جرى ، وظن الساسة والزعماء أن كل هذه الأمور خافية على الشعب ولكنها على الأقل كانت تصلنا كضباط شبان يمثلون شريحة واعية من شرائح الشعب . مثل تلك الأحوال وتأملها كانت الدافع لجيلى والمعارضين لهذه الأحداث للتصرف الواجب وقت الضرورة وليس أدل على ذلك من أننا ونحن مجموعة كبيرة من الضباط الصغار بالكتيبة الرابعة مشاة جمعنا أركان حرب الكتيبة الشاب في أحد ليالى يوليو سنة ١٩٤٢ ، في وقت راحتنا جميعاً ، وفي غير أوقات العمل ، داخل ميس الضباط وأبلغنا بأن القوات الألمانية وصلت إلى منطقة العلمين على مقربة من الإسكندرية بقيادة « روميل » وأن موقف الجيش الانجليزى فى غاية السوء ، وأنه علم أن خطة البريطانيين أنه فى حالة تدهور الموقف العسكرى أكثر من ذلك سوف ينسحبون من مصر إلى فلسطين وإلى الهند ، ولتغطية الانسحاب كانت الخطة تقضى بإغراق مديرية البحيرة وتدمير معظم الكبارى والجسور — وكل آبار البترول فى مصر — وأن

هذه الخطة تسربت أخبارها حيث أنهم حاولوا الاتصال بقيادة الجيش المصري الكبار لمعاونة الجيش البريطاني في هذه العملية . ولكن كانت هناك مقاومة لهذه الخطة على مستوى الحكومة . وأن البريطانيين إذا تردت حالتهم العسكرية سوءاً في « العلمين » ، سوف لا يقيمون لرأى المصريين أى وزن وذلك في سبيل حماية خطوط انسحابهم بتنفيذ خطة التدمير التي شرحها لنا أركان حرب الكتبية الملازم أول يوسف حسن محمد - وفي الحال بعد أن سمعنا هذه الأنباء الخطيرة ودون أن نتنظر لأخذ الرأى ، أقسمنا جميعاً على أننا سنقف في وجه الجيش البريطاني في هذا الأمر وسوف لا نسمح أبداً بتخريب بلادنا .

وكانت خطة الضباط الوطنيين أنه في حالة هزيمة الجيش البريطاني في « العلمين » سوف نتحرك بكتائبنا وجنودنا وأسلحتنا ودون انتظار أوامر إلى الأهداف الحيوية في البلاد لنحميها من تخريب الجيش البريطاني .

أول تنظيم وطنى للضباط

تكون أول تنظيم وطنى للضباط ثم أصدر الملك في أكتوبر سنة ١٩٤٤ خطاب إقالة مهين للنحاس باشا . وتوالت الأحداث والتغييرات الوزارية والاعتقالات السياسة إلى سنة ١٩٤٦ وهو ميعاد تكوين أول تنظيم أو تجمع سرى وطنى للضباط الشبان الساخطين على الانجليز وعلى أحوال البلاد وعلى بعض الزعماء والقصر خصوصاً بعد أن تمادى الملك في فسادة وإحكام قبضته واعتدائه على الدستور .

وفي أكتوبر سنة ١٩٤٤ بعد إقالة النحاس باشا كلف الملك فاروق الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدى بتأليف الوزارة وأجريت الانتخابات وقاطعها حزب الوفد وجاءت الانتخابات بأغلبية من السعديين والاحرار الدستوريين والكتلة الوفدية (حزب مكرم عبيد) .

وفي آخر سنة ١٩٤٥ تم اغتيال أحمد ماهر عقب خروجه من قاعة البرلمان بعد إعلانه الحرب على المحور .

وفي أول عام ١٩٣٦ ألف محمود فهمي النقراشي الوزارة .

وفي نفس العام اغتيل وسيط النحاس باشا بالإنجليز والسفير البريطاني أمين عثمان باشا وأيضاً في نفس العام ، قامت المظاهرات الوفدية لمطالبة النقراشي بالاستقالة وبجلاء الانجليز نهائياً .

وفي فبراير سنة ١٩٤٦ طلب السفير البريطاني من الملك أن يقلل وزارة النقراشي ، واستجاب الملك لذلك .

وفي فبراير سنة ١٩٤٦ ألف اسماعيل صدقي الوزارة . بعد شهرين فقط من تولي وزارة النقراشي واشترك الأحرار الدستوريون في الوزارة الجديدة .

في نفس عام ١٩٤٦ حاول صدقي باشا التفاوض مع الانجليز وفشل ، ثم عاود المحاولة ، وتوصل مع بريطانيا إلى مشروع مفاوضة أطلق عليه « مشروع صدقي ييفن » ، وبموجب هذا المشروع وضعت مصر في دائرة الأحلاف العسكرية الغربية ، وعارضت جميع الأحزاب والشعب هذا المشروع ، وقامت المظاهرات الصاخبة لتفضيح هذا المشروع وزاد عنف الحكومة ، وزاد معها عنف المظاهرات .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٦ استقال اسماعيل صدقي من الوزارة .

وفي أول يناير سنة ١٩٤٦ ألف النقراشي باشا الوزارة للمرة الثانية من حزبي السعديين والاحرار الدستوريين، وبدأ فوراً في الاتصال بالانجليز

للتفاوض وفشلت المحاولة ، وبعد فشلها سنة ١٩٤٧ سافر النقراشى باشا إلى الأمم المتحدة لعرض قضية استقلال مصر وجلاء البريطانيين على مجلس الأمن وكان هذا متزامناً للوقت الذى كانت تعرض فيه قضية فلسطين في مجلس الأمن . ولم يتوصل النقراشى في مجلس الأمن إلى نتيجة نظراً لسيطرة الدول الكبرى على المنظمات الدولية .

وفي هذا الوقت بالذات بدأ التنظيم الوطنى للضباط ينمو ويتماسك بعض الشيء وبدأت ملامحه في اذهانتنا وجلساتنا ومناقشاتنا تتضح .

السخط والتبرم يولد التجمع

عادت الامبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق وزوجة شاه ايران إلى البلاد ، تصحبها شائعة الخلاف مع الشاه . كانت ستصل بالطائرة إلى مصيف الاسرة بالاسكندرية ، لتهبط بها في مطار التزهة في أحد أيام شهر يونيو شديدة الحرارة . وخرجت كتائب من حامية الاسكندرية ومن ضمنها كتيبتى الرابعة لتصطف على جانبي الطريق من مطار التزهة حتى القصر . وطال انتظارنا للموكب ، ثم أبلغنا أن الطائرة ستأخر عدة ساعات أخرى . وعلينا أن ننتظر وقوفاً . أثارنا انتظارنا الطويل المهين كضباط . حتى يحين موعد وصول الطائرة ، وتجمع لفيف من الضباط الشبان ، وكنت معهم وأخذ كل منا يعبر عن سخطه على هذه المهانة وكان تعليقنا أن الجيش لم يشكل لمثل هذه المهام المهيئة ، وإنما عليه أن يقوم بواجبه الأول من تدريب ومناورات واستعداد ليوم الذود عن الوطن وعندما طال الانتظار امتد الحديث وتناول ما نقاسيه ويقاسيه الشعب من المستعمر ومن الحكام وكان معي من الكتيبة زميلي ودفعنى سيد جاد عبد الله سالم ولفيف آخر من مختلف الوحدات .

لم ينته هذا الاجتماع الواقف إلا ونحن على ميعاد آخر للحديث في مثل هذه الأمور .

تم الاتفاق في الحال على بدء اجتماعاتنا وكان الاجتماع الأول في منزلى ٦ شارع البرمونى بعابدين ، في غرفة فسيحة أعلى المنزل ، وتوالت الاجتماعات وتنوعت الأحاديث الوطنية . واتسعت حلقة التنظيم حيث كنا نحضر في كل اجتماع وبرفقة كل واحد عدد قليل من الضباط الوطنيين الموثوق بهم . بعد جس نبضهم ، ثم وضعنا دستوراً لهذا التنظيم بعد فترة لاحقة بالآ ينضم أى ضابط له بعد أخذ الأراء عليه قبل حضوره . وكنا نتناول في هذه الاجتماعات شبه السرية مآخذ الشعب على الملك ورجال القصر ، وعلى الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة والبرلمان ومواقفهم وتجاوزاتهم وتوصيل هذه المعلومات التى لا تنشر في الصحف عن هذه المآخذ .

وتوالت الاجتماعات في منزلى وفي منزل ضابط الفرسان « مصطفى نصير » بالسيدة زينب وبعد أكثر من خمسة اجتماعات كانت صورة هذا التنظيم كالآتى :

عن الفرسان « دون ذكر الرتب » السادة :

- ١ - مصطفى عبد المجيد نصير . ٢ - عبد الحميد عبد السلام كفافى . ٣ - محمد حلمى إبراهيم . ٤ - جمال منصور . ٥ - محمد سعد الدين عبد الحفيظ . ٦ - عبد السلام فريد . ٧ - رضا صابر صبرى . ٨ - سعد حنفى حسن . ٩ - عبد الرحمن فهمى . ١٠ - مصطفى كمال صدقى .

عن المدفعية « دون ذكر الرتب » السادة :

- ١ - محسن عبد الخالق السيد . ٢ - فتح الله رفعت فتح الله .
- ٣ - رشاد مهنا . ٤ - محمد كمال عبد الحميد . ٥ - سعد زايد . ٦ - محمد أبو الفضل الجيزاوى . ٧ - مدحت فهمى . ٨ - على حسن مصطفى .
- ٩ - محمد أحمد حسن . ١٠ - أمين مظهر . ١١ - زكى منصور .
- ١٢ - محمد أبو اليسر الأنصارى . ١٣ - أنور الصبحى . ١٤ - فؤاد مجدى .

عن الإشارة « دون ذكر الرتب » السادة :

- ١ - محمد عبد العزيز الألفى . ٢ - عبد الله أباطة . ٣ - أحمد عبد الدايم . ٤ - شريف أباطة .

عن المشاة « دون ذكر الرتب » السادة :

- ١ - محمد محمد على بدران . ٢ - عبد الرحمن نحيون . ٣ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل . ٤ - عباس عبد الوهاب رضوان . ٥ - إبراهيم بغدادى . ٦ - محمد هاشم حسين . ٧ - رياض مصطفى سامى .
- ٨ - محمد محمد أبو شهبه . ٩ - السيد جاد عبد الله سالم . ١٠ - محمد نيازى . ١١ - حسين عبد القادر . ١٢ - فوزى عبد العظيم .
- ١٣ - حسن عبد السلام القويسنى . ١٤ - حسن التهامى . ١٥ - أحمد عبد الله طعيمة .

سلاح خدمة الجيش « دون ذكر الرتب » السيد :

- ١ - حسنين حسنى عبد المجيد .

المهمات « دون ذكر الرتبة » السيد :

١ - هاشم سعيد العربى .

البحرية « دون ذكر الرتبة » السيد :

١ - رجب فهمى .

الطيران « دون ذكر الرتب » السادة :

١ - عبد المحسن أحمد صالح الوسىمى . ٢ - محمد فكرى زاهر .

٣ - عز الدين العيادى . ٤ - مختار سعيد . ٥ - أحمد شكرى .

٦ - عهدى خيرت . ٧ - طلعت ناجى . ٨ - عبد الكريم محرم .

وكان التكليف الرئيسى فى بداية تكوين هذا التنظيم هو تجمع أكبر عدد ممكن من الضباط ، والتفكير فى عمل شعبى حتى لا تتسع الاجتماعات وينكشف أمرنا من البداية ، وكانت تجمع اشتراكات تستخدم فى مساعدة هذه الحركة عند اللزوم . وكان أول عمل استخدمنا فيه جزءاً من حصيلة الاشتراكات سنة ١٩٤٧ هو إرسال تلغراف باسم ضباط الجيش لتأييد رئيس الوزراء النقراشى باشا فى عرضه لقضية مصر فى مجلس الأمن قبل سفره .

وقد حدث نقاش حول تحديد هدف التنظيم ، وهو التخلص من الاستعمار - ثم اخذنا فى مناقشة وسائل تحقيق هذا الهدف - وطال النقاش فى تحديد الوسائل (وهى بوجه عام التخلص من معوقات تحقيق هذا الهدف) واختلفنا فى ذلك اختلافاً نظراً لتعدد ميولنا السياسية والعقائدية ، وأرجأنا البحث فيها إلى مرحلة أخرى (رغم أن كل منا كان يعرف هذه الوسائل ، فكان هناك ملك فاسد وحاشية انتهازية وأحزاب لا يهتمها إلا شهوة الحكم - وبرلمان بعيد عن واقع الشعب لا يمثل إلا طبقة الحكام) .

وهذا التنظيم السرى كان تنظيمياً موسعاً تنقصه شروط الأمن الكافية ، ومع ذلك لم ينكشف أمره أبداً إلا بعد حملة فلسطين ، وقبض على بعض أفراد منه للتحقيق ، ثم أفرج عنهم لعدم ثبوت الأدلة . ولا أدعى أن هذا التنظيم هو نفس تنظيم الضباط الاحرار . لكن بعد عودتنا من حملة فلسطين استمر التنظيم في عقد اجتماعاته في الوقت الذي كان فيه تنظيم الضباط الاحرار آخذاً في التكوين ، ودخله بعض أعضاء من تنظيمنا . كذلك انشق من هذا التنظيم في مرحلة لاحقة تنظيم الحرس الحديدى وكان اغلبنا معارضين لفكرة تكوين الحرس الحديدى لتعاونه مع الملك ، وهو أحد عناصر الفساد المحددة . ولذا استبعدنا جميع الذين انضموا إلى الحرس الحديدى ومنهم : سيد جاد عبد الله ، وحسن التهامى ومصطفى كمال صدقى وخاله فوزى وغيرهم .

تنظيمات أخرى من الضباط

لم تتوقف التكوينات الوطنية بالجيش المصرى عبر تاريخه فبينما كان هناك ظلم واقع على الشعب المصرى كانت هناك دائماً تكوينات من ضباط الجيش المصرى لمواجهة هذا الظلم والذي كان غالباً ما يعانى منه هو أيضاً مثل هذه الحركات التى برزت بشكل واضح في الثورة العربية . حتى في عصر القهر الكامل ، وبعد مقتل سردار الجيش المصرى بالسودان السيرلى ستاك في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ . كانت هناك تكوينات من الضباط الوطنيين المصريين والسودانيين وقفت في وجه الانجليز والملك ورئيس وزارته عندما طلب الانجليز من الجيش المصرى بالسودان تسليم سلاحه والانسحاب من السودان . كما حوكم وأعدم بعض الضباط المصريين والسودانيين . وقبل ذلك أيضاً تكونت تنظيمات من ضباط الجيش المصرى

في السودان لجمع توقعات الضباط المصريين وأفراد الجالية المصرية بالسودان لتأييد سعد باشا زغلول وتفويضه ووفده في تمثيل الأمة للمطالبة بالاستقلال عندما أعلن الانجليز أنهم لا يمثلون رأى الشعب . وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، وفي سنة ١٩٤٠ تحديداً ، وعندما رفضت السلطات المصرية دخول مصر الحرب مع بريطانيا ، واكتفت مصر بتنفيذ البند السابع من معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تلزم مصر في حالة اشتراك بريطانيا حليفها في الحرب أن تقدم فقط تسهيلات للمجهود الحربى البريطانى من طرق مواصلات ومطارات وأماكن إيواء . كان الجيش البريطانى - آنذاك - في أمس الحاجة إلى الاسلحة وبخاصة المدفعية بأنواعها ، والتى كان الجيش المصرى مزوداً بها بمستوى لا بأس به . طالبت قيادة الجيش البريطانى في مصر السلطات المصرية . بأن يقوم الجيش المصرى بتسليم أسلحة إلى الجيش البريطانى . وتكونت في الحال مجموعة وطنية صغيرة من ضباط المدفعية في حامية مرسى مطروح . قررت فيما بينها وجوب تحريض باقى ضباط وقوات الحامية في التصدى لهذا الأمر برفض تسليم الأسلحة لهم بأى حال .

كان هذا التجمع من الضباط المصريين بضم دون ذكر الرتب : عبد المنعم أمين ، وإبراهيم حافظ عاطف ، وأحمد فؤاد ، ومنصور المغربى ، وحافظ اسماعيل ، ومصطفى لطفى ، وحسين الهادى .

وانتهت الحرب العالمية الثانية ، ثم اشترك الجيش المصرى في حملة فلسطين ، وتفرق شمل هؤلاء الضباط . وكذا تنظيم الوطنيين السرى .

وفي أوائل عام ١٩٥١ ، وبعد حملة فلسطين تجمع شمل بعضهم وانضم إليهم الضابطان عبد الحميد الدغيدى وحسين محفوظ . وإزاء ما كان يعانيه الشعب المصرى - وقتها من تجاوزات السفارة البريطانية

وتسلطها على أمور البلاد ، وخضوع القصر والوزراء لها ، وبسبب
الفشل الذى عاد به الجيش المصرى من حملة فلسطين نتيجة جهل القيادة
وتصرفات السياسيين ، وفضائح صفقات الأسلحة التى كان للحاشية
الملكية ضلع فيها ، عاد هذا التجمع ، أو التنظيم ، إلى الاجتماع فى منزل
إبراهيم حافظ عاطف بشوارع جسر السويس وتشاوروا وقاموا بصياغة
انتقاداتهم فى أمور بلادهم فى شكل منشوات ، وقام إبراهيم حافظ عاطف
بمسئولية كتابة وطبع وتوزيع هذه المنشورات من داخل الوحدة التى كان
يقودها فى مدرسة المساعدة الجوية ، ومساعدته فى الكتابة على الآلة الكاتبة
الكاتب المدنى المرحوم صلاح عبد الحميد . وتطوع الضابط المرحوم على
لينب حسنى بالطباعة كما اشترك بعض المدنيين فى مرحلة لاحقة فى هذا
العمل ومنهم المرحوم الدكتور عبد الحميد حسين . وكان لمنشورات تلك
المجموعة صدق طيب الأثر فى أوساط الضباط الذين وزعت عليهم .
ويمجرد توزيع أول منشور ، اتصل بالمجموعة كمال الدين حسين وعلى
فوزى يونس واقتراحا البدء فى عمل تنظيم وخلايا حتى يتحقق العمل الجاد
المنظم بأقصى قدر من الأمان .

مجموعة أخرى من الضباط

كون الضابط مصطفى كمال صدقى مجموعة جديدة مع جزء من
المجموعة السابق تكوينها فى سنة ١٩٤٦ وضم إليها بعض صولات الجيش
وكان يجمع أفرادها مع بعض أعضاء تنظيم سنة ١٩٤٦ مما جعل أحد
الصولات يلم ببعض المعلومات عن التنظيم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٧ أبلغ هذا الصول واسمه جمال جلال من مجموعة
مصطفى كمال صدقى (وكان قد حضر بعض الاجتماعات) وتعرف على كثير

من أسماء الضباط) أبلغ الصول وزارة الداخلية أن لفيماً من ضباط الجيش يقوم بالتجهيز لاغتياال الملك أثناء موكبه إلى البرلمان ، وأبلغ عن أسماء ٢٩ ضابطاً متأمرأ وكان من الجماعة السرية التى كنت اجتمع فيها ولم يشملنى هذا الاعتقال . أمر رئيس الوزراء ، النقراشى باشا بمراقبة هؤلاء الضباط . ولما لم يثبت عليهم أى تأمر فقد صرف النظر عن اتخاذ أى إجراء .

ولما لم يستجب رئيس الوزراء لهذا البلاغ قام الصول جمال جلال بتبليغ ذلك إلى عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، الذى أبلغ بدوره الملك فاروق وأمر الملك عطا الله باشا باعتقالهم ، وجرى التحفظ عليهم فى ميس المشاة . وأجرت النيابة العامة معهم تحقيقات قام بها النائب العام حافظ سابق ، ولم يثبت عليهم أى شىء وأفرج عنهم وكان من الضباط المعتقلين كل من (دون ذكر الرتب) : رشاد مهنا ، عبد الرؤوف نور الدين ، عثمان فوزى ، عبد الحميد كفافي ، أحمد يوسف حبيب ، صول فنى محمد حسين ، أنور الصيحي ، عبد القادر طه ، أحمد فؤاد ، مصطفى كمال صدقى ، حسن فهمى عبد الحميد ، مصطفى نصير ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، ممدوح جبه .

وعقب ذلك أعفى عطا الله باشا من منصبه ، وعين بدلاً منه عثمان المهدي باشا رئيساً لهيئة أركان حرب .

١٩٤٨

في أوائل عام ١٩٤٨ أعلنت بريطانيا فجأة أنها ستنتهي انتدابها على فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ دون أن تنتظر حلاً من هيئة الأمم المتحدة ، تاركة عرب فلسطين العزل في قبضة العصابات الصهيونية المسلحة تسليحاً كاملاً حيث انضم إلى اسرائيل « الفيلق اليهودي » الذي كان يشكل إحدى وحدات الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية .

وعند صدور قرار الأمم المتحدة بإنشاء دولة اسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ كان الملك فاروق قد استأثر بالسلطة السياسية في مصر . وكان لتدخله السبب الرئيسي في دخول مصر بجيشها إلى فلسطين دون الاستعداد . وبنفس الأسلوب المريب زج زعماء الدول العربية الأخرى بجيوشهم في حرب لم يتخبروا توقيتها وهم على غير استعداد لها .

وحتى ١١ مايو سنة ١٩٤٨ كان رئيس الوزراء النقراشي باشا لا يزال يرفض اشتراك الجيش المصري في الحرب بدعوى أن وجود القوات البريطانية في قاعدة القنال سيكشف الجيش المصري وقد يهدد سلامة هذا الجيش ، وخطوط مواصلاته في الأوقات الحرجة بسبب تعاطف انجلترا مع اسرائيل .

وفجأة في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ طلب النقراشي اجتماع البرلمان ، وبصفة عاجلة . وفي جلسة سرية أقنع الأعضاء بالتصديق على دخول الجيش المصري إلى فلسطين . والحقيقة أن حيدر باشا وزير الدفاع المصري

كان قد تجاوز سلطاته . ودون أن يأخذ رأى مجلس الوزراء أصدر الأوامر إلى الجيش باجتياز الحدود إلى فلسطين دون أن ينتظر عرض الموضوع على البرلمان كما يقضى دستور البلاد . وكان تبريره لذلك أنه ينفذ أوامر الملك بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة . وكضباط وطنيين شبان خلال تنفيذنا للأوامر وأثناء التحركات والعمليات كان لا يغيب عن وعينا هذه المهزلة من التجاوزات .

على الطريق إلى فلسطين

وجاء يوم ١٣ مايو وكنت ضابطاً برتبة ملازم أول بالكتيبة التاسعة مشاة ، فصدرت الأوامر بالتحرك إلى حدود فلسطين وتوجهت الكتيبة بجميع وحداتها إلى رصيف محطة العباسية العسكرية بالقاهرة . وقبل أن نصعد إلى القطار الحربى الذى أقلنا إلى الميدان حضر إلينا قائد القوات المصرية المعين لقيادة هذه الحملة اللواء المواوى . وبعد فترة حضر أيضاً رئيس هيئة أركان حرب الجيش اللواء عثمان المهدي باشا . وقبل أن يتحرك القطار أطل علينا المواوى وإذا به يلقي علينا خطاباً استهان فيه بقوات العدو فأخذ يصفها بأنها كالعصابات الإجرامية التى يطاردها البوليس المصرى فى الصعيد .

واندهش الكثير منا لمدى استهتار القائد الموكل إليه أرواح شباب الأمة ، حيث أن جميعنا قد قرأ فى الصحف قبل قيام الحملة عن عنف الارهاب الصهيونى ، وما كان يعانى به الجيش البريطانى نفسه على يد تلك العصابات . بالاضافة إلى الفيلق اليهودى المدرب على أحدث فنون القتال التقليدى .

أخذ الشك يساورنا إن كان هذا القائد قد كلف نفسه مشقة البحث والتدقيق فيما هو مقدم عليه حتى يتسنى له القيام بالتخطيط العسكري السليم كما يقضى بذلك منصبه القيادي . وأثناء هذه الكلمة أخذت أبحث بعيني بين صفوف الرئاسات عن وجوه هيئة مكتب هذا القائد ، وميزت بينهم وجه أركان حربه الصاغ « فريد عبد الله » الذي كان يدرس لي مادة التكتيك بالكلية الحربية . حيث كان يتقن دروس مادته على الورق وعلى تحته الرمل فاطمأنت بعض الشيء . وحدثت نفسي أنه لا بأس أن يكون القائد بهذا المستوى المنخفض إذا ما كانت هيئة مكتبه للعمليات على كفاءة عالية ليعوضوا عجز القائد .

على الحدود المصرية الفلسطينية

عندما وصل القطار بنا إلى العريش ، تم احتلالنا لمواقع ميدانية في العراء دون أى تجهيز مسبق رغم أننا كنا لا نزال في أرض مصرية . وفي العريش وزعت علينا خرائط الميدان التى تغطى معظم أرض فلسطين وكان عددها ضخماً وجدت صعوبة كبيرة فى حفظها داخل ربطة القرش المخصصة لنومى . وكان الواجب أن نوزع على الضباط الضفار أمثالنا خريطة أو اثنتين حسب المعارك المنتظرة لنا ثم تسحب بعد كل معركة ونوزع للمعارك التى ستأتى بعدها خرائطها وهكذا .

بعد أن أمضينا فى العريش يومين فى العراء ، تقدمنا إلى الحدود الفلسطينية فى رفح وأمضينا الليل هناك . وفى الصباح اجتزنا الحدود المصرية الفلسطينية وعلى الفور اشتركت الكتيبة السادسة مشاة تحت قيادة القائد جاد سالم فى معركة الدنجور (مستعمرة اسرائيلية بالقرب من رفح) . وفى أثناء المعركة اتخذت جميع القوات المصرية شكل الطابور فى مكان ما على

الطريق إلى غزة بالقرب من رفح ، ومكثنا ننتظر نتيجة المعركة . وبعد مدة بسيطة من سماعنا لأصوات تبادل نيران المدافع والأسلحة الصغيرة بدأنا نشاهد العديد من عربات الاسعاف التي أخذت تحمل المصابين المصريين مارة من أمامنا في طريقها إلى مستشفيات الميدان المتحركة . وفي الظهيرة علمنا بكثرة الخسائر في الضباط والجنود المصريين ، إلا أن الكتيبة المصرية لم تتمكن من الاستيلاء على المستعمرة .

بعد سماعي لهذه الأخبار سحبت خريطة الميدان الخاصة بهذه المعركة والمنطقة المحيطة بمستعمرة الدنجور . كانت هذه المنطقة تغطي المسافة بين رفح وغزة وأخذت في حصر عدد المستعمرات الاسرائيلية المماثلة والتي تنتشر في نفس المنطقة وكانت واضحة على الخرائط بدوائر حمراء فوجدت عددها لا يقل عن ٤٥ مستعمرة صهيونية . وهذه المستعمرات كانت شكل جزر مقاومة دفاعية حصينة تحمى بعضها بعضاً بواسطة نيران المدفعية وكل منها بالقطع كان مثل مستعمرة الدنجور في مناعتها ومحاطة بأسلاك شائكة وألغام كموانع دفاعية منشأة على أحدث النظم الدفاعية العسكرية آنذاك . وفهمنا من معلومات العائدين من القتال أن داخل المستعمرة توجد دشم حصينة مغطاة الأسقف ومن حولها أكياس للرمل لتحميها من قصف المدفعية المصرية . ويقف في هذه الدشم الجنود الاسرائيليون المدافعون وتربط هذه الدشم شبكة من خنادق المواصلات محفورة بحيث تيسر وتسرع من حركة الجنود المدافعين بين الدشم وبعضها وبين الدشم ومواقع الذخيرة وأماكن إخلاء الجرحى حتى تمكنهم من تعويض الخسائر وسد الثغرات بسرعة أثناء الهجمات والقصف . كما لاحظت القوات المصرية التي اشتركت في معركة الدنجور أن لدى الصهانية مدافع هاون يحسنون استخدامها وتوجيهها ، فقد كان القصف متواصلاً من المستعمرات المحيطة

للدنجلور لمساعدتها في صد هجوم الجنود المصريين كما كانت توجه بعض نيرانها على طابور الجيش المصرى المنتشر على الطريق . إلا أن مدفعية الميدان المصرية كانت متفوقة جداً على المدفعية الاسرائيلية ، ولذلك عندما بدأت المدفعية المصرية بالرد وقامت بقصف المستعمرات الأخرى المحيطة بالدنجلور بالدنجلور توقف الضرب الاسرائيلى على طابور الجيش المصرى المنتظر على الطريق . بعد اطلاق على هذه المعلومات بالإضافة إلى ضخامة عدد المستعمرات الميائلة مع مقارنتها بكثرة الخسائر التى منيت بها قوات الهجوم المصرى دون أن تحقق هدفها تكشف لى أن معركتنا مع اسرائيل لا يصح أن تكون بهذه الصورة بأى حال من الأحوال وإلا فنى الجيش المصرى بأكمله قبل أن يشترك فى معركة فاصلة فإزاء كثرة الجزر الدفاعية الحصينة من المستعمرات ستهلك جميع قواتنا إذا استمرت محاولتنا فى الهجوم على مستعمرة تلو الأخرى . كما أن اسرائيل لا بد أنه لديها قوات هجوم أخرى لم نتعامل معها بعد ، ولا بد أنهم سيستخدمونها بعد أن تستنفد قواتنا . وعلى قدر تفكيرى العسكرى كضابط صغير توقفت عند هذا الحد فقد صدرت إلينا الأوامر عصر ذلك اليوم بأن نسرع بالتقدم صوب غزة قبل حلول الظلام حتى تتمكن القوات المصرية من السيطرة على المناطق الفلسطينية حسب مشروع التقسيم .

ونحن على الطريق إلى غزة أغارت علينا بعض الطائرات الاسرائيلية ، ولكن طابورنا المتحرك كانت تحمية قوة مصرية لا يستهان بها من المدفعية المضادة للطائرات من مختلف الأنواع (الثقيلة ، المتوسطة والخفيفة) فتصدت مدفعيتنا للطائرات المغيرة فأصاب إحداهما ولاذت الطائرات الأخرى بالفرار دون أن تتمكن من تصويب نيرانها أو اسقاط قنابلها علينا . وقد كان لتلك المناوشة الصغيرة أثر طيب فى رفع معنوياتنا التى كانت قد

اهتزت بسبب مشاهدتنا لخسائر الدنجور .

الوصول إلى غزة

قبل أن نصل إلى غزة كان علينا أن نمر خلال طريق مزروع بجزر المقاومة الدفاعية من مستعمرات العدو . ولكن الطابور المصرى المتقدم الذى كان يضم جميع القوات المصرية المحاربة بمختلف أسلحتها وتشكيلاتها كان هذا الطابور وللحق تشكيلاً منظماً تتوافر لأجنحته ومقدمته ومؤخرته الحماية الجيدة .

ولم يكن فى مدينة غزة أية قوات اسرائيلية عندما وصلنا إليها وكان ذلك طبقاً لمشروع التقسيم الدولى ، واصلت كتيبتى السير متخذة مواقع دفاعية للمدينة التى اتخذتها القوات المصرية مركزاً للرئاسة القوات وتجمع الحشود .

وضمن خطة الدفاع الشاملة مع باقى الكتائب اتخذت كتيبتنا مواقع دفاعية على « تلال على المنطار » بينما اتخذت باقى الكتائب مواقع دفاعية أخرى لتجعل من غزة منطقة دفاعية منيعة . و« تلال على المنطار » كانت تمثل موقعاً دفاعياً حصيناً إذا أحسن احتلاله حيث أنه يحيط بغزة من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية . بعد إتمام عملية احتلال المواقع الدفاعية وفى ظلمة الليل وبعد أن ساد قوتنا شعور الاطمئنان الدفاعى أخذت أطل من موقعى المرتفع الحصين على وادى غزة وشعرت بالراحة والاطمئنان وفى سكون الوحدة التى يشعر بها المقاتل فى المواقع الدفاعية عاودت التفكير فى أحوالنا العسكرية .

وتذكرت خطاب القائد على رصيف محطة العباسية وتأكيده لنا أننا سنواجه شرذمة من العصابات الاسرائيلية لا تحتاج لأكثر من جهد رجال البوليس فى مطاردة عصابات الصعيد ، ثم تذكرت حجم الخسائر التى أصابتنا بسبب ستعمرة واحدة على يد « عصابات الصعيد » على حد تعبير القائد ولم يكن

أمامى سوى أحد استراتيجين إما أن هذا القائد وهيئة عمليات مكتبه ، وأركان حربه لم يقوموا بواجبهم البديهي من استطلاع واستكشاف وجمع المعلومات لدى قوة العدو ، وبذلك يكون تفكيرهم قد توقف عندما وجدوا أنفسهم في وسط المعركة أو أن هيئة عمليات ذلك القائد أثرت الطاعة العمياء له فسمحت له أن يبدأ الحرب بأسلوب البوليس في مطاردة المجرمين .

وحتى تهدأ نفسى بعض الشئ أخذت أقارن بين قوتنا العسكرية وقوة العدو . كان التسليح الإسرائيلي حسب المعلومات المتاحة بعد تجربة الدنجور يتكون من قوات مشاة مسلحة تسليحاً جيداً تساعد في الدفاع مدافع الهاون وفي حالة ممتازة وتستخدم استخداماً في غاية الكفاءة ، إلا أنه كان من الواضح أن إسرائيل لا تزال تفتقر إلى مدفعية الميدان الثقيلة التي لم يظهر لها دور على الإطلاق في هذه المراحل الأولى . أما الطيران الاسرائيلي فكان ضعيفاً للغاية كما كان لدى الإسرائيليين مصفحات مصنوعة في فلسطين من مخلفات العربات العسكرية البريطانية ومن عربات نصف اللورى حيث قاموا بصنع ألواح من الدروع حول هذه العربات فكانوا يستخدمونها بكثرة في مهاجمة القرى العربية معزولة السلاح أضعيفة التسليح ، فلم تواجه هذه الدروع في تلك الهجمات أية أسلحة مضادة . وكان الجيش المصرى يتفوق عليها لأن لدينا مدفعية على أعلى مستوى وأسلحة مضادة للدروع والدبابات .

أما الجيش المصرى فكان يتكون من تسع كتائب فقط من المشاة وثلاث كتائب مشاة أخرى ضمن لواء جديد تحت التكوين ، بالإضافة إلى كتيبتين كاملتين من مدافع الماكينة الفيكروز جيدة التسليح وهى موزعة على كتائب المشاة التسع كسلاح مساعد بالإضافة إلى ذلك كانت كتائب المشاة

مسلحة بمدافع مضادة للدبابات من عيار ٦ رطل وهو سلاح كانت تفتقده إسرائيل في ذلك الوقت . وبذلك كان سلاح المدفعية المصرية سواء مدافع الميدان أو المدافع المضادة للدبابات أو المضادة للطائرات متفوقاً تفوقاً ساحقاً من حيث التسليح والكفاءة والتدريب على سلاح المدفعية الاسرائيل . أما الطيران المصرى فقد كان أكثر كثافة وأكفاً بمراحل من الطيران الاسرائيل .

كان النقراشى باشا قبل أن يورطه الملك بدخول الجيش المصرى الحرب من أنصار تكوين تشكيلات وتنظيمات من المتطوعين والفدائيين العرب فسمح لكثير من الضباط المصريين أن يتركوا وحداتهم وينضموا لهذه التشكيلات الفدائية بحيث يتم تسهيل وضمان تسليح وتدريب هذه القوات من المتطوعين ثم يندفعوا هم في حرب عصابات منظمة من داخل القرى والمدن العربية في فلسطين فيتم في النهاية تسليح معظم هذه القرى وتقويتها وتحصينها وبالتالي تضعف تدريجياً قدرة العصابات الصهيونية ، وتصبح هي ذاتها تحت رحمة مقاومة الأهالى والمتطوعين العرب . وفعلاً قبل إعلان مصر دخول الحرب بجيشها النظامى بادر أعداد من شباب الضباط المصريين بالتطوع ومعهم أعداد هائلة من شباب مصر خاصة شباب الإخوان المسلمين وتكون منهم تشكيل توجّه بالفعل داخل الحدود الفلسطينية قبل دخول الجيش المصرى . وكان هذا التشكيل بقيادة الضابط أحمد عبد العزيز الذى استشهد في هذه الحملة وهو من أكفأ وأشجع ضباط الجيش المصرى كما كان يدرس لنا مادة التاريخ العسكرى ونحن طلبة في الكلية الحربية ، كما انضم إليه نخبة من ضباط الجيش منهم كمال الدين حسين عبد المنعم عبد الرؤوف وغيرهم . وعندما تذكرت ذلك شعرت ببعض الندم عدم انضمامى لصفوف المتطوعين وكان عذرى هو صغر رتبتي وعدم علمى -

حسب ما أتذكر بطريقة التطوع حينئذ .

عند ذلك أيقنت أنه كان من الأجدى أن تجمع التبرعات على مستوى الأمة العربية قبل ذلك بمدة ليتم شراء أسلحة ومعدات وذخائر ولينم تسليح شعب فلسطين العربى فى المدن والقرى وتقوم هيئة عربية بالتخطيط لتسليح ووضع خطط الدفاع لهذه القرى والمدن العربية لتكون قادرة على صد أى هجمات من العصابات الصهيونية المسلحة التى أرعبت الشعب الفلسطينى بالمذابح والغارات وبذلك يصمد الشعب فى مكانه . كما كان من الأصوب أو هكذا تراءى لى أن يتم تسريح الجيوش العربية النظامية أو جزء منها وإرسالها إلى فلسطين العربية كما فعل بعض المتطوعين العرب فتقوم بشن حرب العصابات على المستعمرات الإسرائيلية بحيث تصبح ضاربة احتياطية يتم استخدامها فى المعركة الفاصلة عندما يحين الوقت المناسب لدخول القوات العربية النظامية للأجهزة على الجيش الاسرائيلى بعد انهائه .

وبقيت فى خندقى أنتقل بين أحلام اليقظة وفجأة تنبهت إلى أن الفجر بدأ ينتشر نوره فعادوتبنى الثقة والاطمئنان بقوة جيشنا على الرغم من ضعف القيادة . وأطل على ضوء الصباح ووقع بصرى على أجمل ما رأيته عيناى من مناظر فرأيت الخضرة وأشجار البرتقال والسرو الجميلة وهى تنبسط على امتداد البصر امام الموقع وامتلات بالثقة والأمل فى جنود مصر وشبابها .

الاجسام والاقبال

بعد أن أمضت القوات يوماً للراحة في غزة ، كلفت قيادة القوات الكتيبة الأولى مشاة بالهجوم على مستعمرة دير سنيد وهي مستعمرة حصينة تقع بالقرب من غزة ويبدو أن الاستعداد لهذا الهجوم كان أدق وأشمل من الإعداد لمعركة الدنجلور حيث تم الاستكشاف المسبق لها . ولذلك وعلى الرغم من قوة هذه المستعمرة إلا أن الكتيبة الأولى أمكنها الاستيلاء عليها بخسائر قليلة في الجنود ومرتفعة بعض الشيء في الضباط (حيث استشهد في هذه المعركة حوالي ٧ ضباط و ٣٠ جندياً) ، وسقط الشهيد الأول من دفعتنا في هذه المعركة وهو الملازم مصطفى كمال عثمان . وبعد تلك المعركة بعدة أيام كلفت كتيبتى التاسعة مشاة بمهاجمة مستعمرة « نيتسليم »

معركة نيتسليم

عندما صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد لمهاجمة « نيتسليم » قائد الكتيبة القائم مقام محمد كامل الرحمانى ومعه قادة السرايا (٤ سرايا في الكتيبة) وقادة الفصائل المعاونة (قادة فصائل الهاون - والمدفعية المضادة للدبابات الملحقة على المشاة والحمالات المدرعة ومدافع الماكينة وبسالاح الاشارة) بالاستكشاف الدقيق قبل المعركة (كما تقتضى أصول الحرب) وعندما تم وضع الخطة شرحت لنا بالتفصيل وصدرت إلينا الأوامر المباشرة بالاستعداد فانتشرت السرايا الأربعة بالكتيبة ومن ضمنها الفصيلة التى

كنت قائدها . وتم انتشار الجنود على خط يبعد مسافة كافية عن مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة . وكلفت كل سرية بالهجوم على أحد الأضلاع الأربعة للمستعمرة .

وفي اللحظة الحاسمة بدأنا المعركة فقامت مدفعيتنا الميدانية من عيار ٢٥ رطل بالقصف المركز لمدة نصف ساعة ومعها في نفس الوقت المدفعية المضادة للدبابات الموزعة على السرايا بضرب محكم مستخدمة القذائف الحارقة وقنابل شديدة الانفجار ، موجهة نيرانها على الدشم الحصينة المواجهة لكل سرية مصرية .

وخلال القصف وقبل أن تتوقف المدفعية بخمس دقائق صدرت لنا الإشارة بالتقدم إلى الإمام . وعندما توقف القصف انبطح الجميع متخذين سواتر طبيعية من الأرض التي أمامنا ، ثم أخذ كل من الجنود والضباط في الضرب على المستعمرة حيثما تراءى لكل منهم . ثم استأنفت المدفعية الضرب بعد خمس دقائق . وخلال الضرب قمنا بقفزة جديدة إلى الأمام وفي القفزة الرابعة وقبل أن تتوقف المدفعية للمرة الأخيرة قامت بضرب قذائف من الدخان ، وفي حماية هذا الساتر من الدخان تقدمنا بأسرع ما يمكن حتى اقتربنا من الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمستعمرة .

وقام رجال سلاح المهندسين بتفجير الأسلاك الشائكة والألغام المدفونة تحتها بواسطة ألغام خاصة أسماها « طوربيد بنجالور » ، وهي مواسير طويلة بها شحنة من المتفجرات » ، وبذلك أحدثت ثغرة مكنت رجال المشاة من الاقتحام .

وخلال عملية الاقتحام وبعد دخولنا سور الأسلاك الشائكة تأخرت سريتي بعض الشيء على الضلع الشرقي للمستعمرة لوجود مقاومة شديدة

من احدى الدشم المواجهة لنا ، والتي لم يكن قد نال منها ضرب المدفعية المصرية بعد .

وفجأة رأيت إشارة النجاح من طبنجة إشارة إحدى الفصائل الأخرى التى تمكنت من اقتحام الموقع قبلنا (كانت طلقة خضراء ثم تبعتها طلقة أخرى بيضاء بلون العلم المصرى فى ذلك الوقت) . وكان رد فعل قائد سريتنا سريعاً ، فقد وجه من موقفه قذائف المدفعية المضادة للدبابات على الدشمة المستعصية ، وفى لحظات شاهدنا انفجار الدشمة فنهضنا من مواقعنا واقتحمنا الدشمة المهدامة ، وانضمت بذلك سريتى لباقي سرايا الكتيبة التى تمكنت من احتلال جميع دشم الدفاع لمستعمرة نيتسليم ، فانتهت المعركة بنجاح والفضل لدقة الاستكشاف ودقة الخطة والتوقيت الجيد وقبل كل ذلك ثبات الرجال . وبعد نهاية المعركة تمكنا من أسر ثمانية جنود وخمس مجندات بينما خسرت قواتنا من الضباط البوزباشى خليف ، ومحسن حمد ، ومصطفى حامد ، وأركان حرب الكتيبة الصاغ سليمان عفيفى .

وبعد حصر الأسلحة التى جمعناها من العدو وجدنا فى الدشم بأركان المستعمرة بنادق قناصة يبدو أنها كانت تستخدم فى اصطیاد الضباط بعد تمييزهم من الزى والتسليح المختلف فقمنا بتبليغ هذه الملاحظة وبناء على ذلك استبدل الضباط ملابسهم بنفس زى الجنود حتى نتفادى بقدر الإمكان خسائرنا العالية فى الضباط .

وبعد هذه المعركة انسحبت كتيبتى إلى موقع دفاعى فى غزة . وأمضينا أياماً بين المعارك فى إعادة تدريب الجنود خلال فترات الصباح وفى صيانة وتنظيف الأسلحة وتعويض الخسائر والذخائر . وفى تلك الفترة كانت تصلنا الصحف والمجلات المصرية التى كنا نقف منها على روح الشعب المصرى

في القاهرة . وبقدر سعادتنا بأفراح الشعب المصري عند سماعه أخبار انتصاراتنا بقدر أسفنا لما كان ينشر في روز اليوسف من أخبار مجتمع طبقة الحكام .

الهدنة الأولى (١١ يونيو إلى ٧ يوليو سنة ١٩٤٨)

وبعد معركة نيتسالييم ثانی معركة ينتصر فيها الجيش المصري وبشائر النصر تظهر للعرب عامة ومصر خاصة ، أعلنت الهدنة فجأة . وقبلت مصر الهدنة ، والتزمت بها وانتشر التساؤل بين الضباط عن حكمة وسر قبولنا الهدنة ونحن في أحسن أحوالنا العسكرية . وخلال الهدنة أعاد العدو تنظيم نفسه ، وتدفقت عليه المعونات العسكرية والمهاجرون والمتطوعون من اليهود . وانهالت عليه الأسلحة من الشرق والغرب وقبل نهاية الهدنة ، يطلب العدو مدها ثلاثة أيام أخرى لتكون لديه فرصة أكبر للاستعداد فرفضت مصر الهدنة . واستؤنف القتال ولكننا بدأنا نشعر بزيادة مفاجئة ، في أسلحة العدو . ازدادت مقاومته وظهرت لأول مرة الطائرات الحديثة في تشكيلات الإسرائيليين التي لم يكن لها أثر قبل الهدنة . وكذلك تم استكمال نقص المدفعية التي عانوا منها قبل الهدنة .

وفي نفس الوقت تقدم الكونت برنادوت المبعوث الدولي للأمم المتحدة بمشروع التقسيم المشهور ، فرفضت اسرائيل ، وامتنع العرب عن إبداء الرأي فيه . ثم قامت اسرائيل باغتيال الكونت برنادوت الوسيط الدولي . كما اغتيل أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين وهو مسافر ليلاً على الطريق بين الخطوط المصرية الأردنية .

معركة أسدود

وأثناء الهدنة الأولى تحركت كتيبتی لاحتلال موقع دفاعی متقدم على مشارف بلدة أسدود (بالقرب جداً من العدو) . فكان الموقع بالنسبة لنا

مثالياً حيث كان يقع على حافة خور شديد العمق ، ويبعد أمام مدينة أسدود بحوالى كيلومترين ، وتبعد مدينة أسدود بحوالى ٣٥ كم فقط عن يافا . فكان هذا الخط الدفاعى اخر مواقعنا وفى ليلة حالكة الظلام وبعد انتهاء الهدنة الأولى فتحت المدفعية الاسرائيلية نيرانها المتوالية على مواقعنا الدفاعية فى أسدود ، فردت عليها المدفعية المصرية بنيران كثيفة . وبعد فترة طويلة توقف ضرب المدفعية الاسرائيلية ، ولكن المدفعية المصرية استمرت فى الضرب والتوقف على فترات متتابعة خشية أن يكون ضرب المدفعية الاسرائيلية تمهيداً لعملية أكبر أثناء الليل . وتوقف الضرب من الطرفين فجلسنا داخل خندقى فى رئاسة الفصيلة أوسامر مع زميلى عبد النعم خليل قائد الفصيلة المجاورة لى فى المواقع وهو من نفس سرىتى . وفجأة تسلسل إلى خندقنا شاويش الفصيلة « الشاويش وهبه » وكان رجلاً رياضياً يقوم بتدريب السباحة لرجال الجيش قبل الحملة . فطلب منى تزويده بأكبر كمية من القنابل اليدوية ثم قام بتجهيزها أمامنا بحيث تكون معدة للاستخدام ، ووضعها جميعاً داخل حقيبة « الجراية » الخاصة به (وهى حقيبة من قماش للبدل يزود بها كل جندى فى الميدان تثبت على جانبه ليحتفظ فيها بتعيين الميدان) . وأخبرنا أنه كان فى أحد خنادق المواقع الأمامية المشرقة مباشرة على الخور فسمع أصواتاً تأكد أنها أصوات تسلق أفراد من العدو للخور وأنه يجب التعجيل باكتشاف الأمر ، وإلا فاجأنا العدو بعملية اقتحام لخطوطنا الدفاعية . فتركنا الشاويش وهبه وذهب حاملاً حقيبة الجراية المملوءة بالقنابل اليدوية وتوجه نحو الموقع الذى اكتشف الأصوات منه وقبل أن يذهب اتفق معى على إشارة خاصة بحيث يقوم بالصغير عندما يتأكد تماماً من التسلسل فإذا سمعت الصغير أقوم على الفور بضرب طلقات إشارة لتتبر الموقع وما حوله خاصة فى الخور .

وذهب الزميل عبد المنعم خليل إلى موقعه وبعد عدة دقائق سمعت صفير الشاويش وهبه ، ثم تلا ذلك مباشرة صوت انفجار قبلية يدوية أو اثنتين ، فقامت على الفور بضرب طلقة مضیئة . أضاءت الخور . وبعدها مباشرة سمعت انفجارات متتالية لقنابل الشاويش وهبه ثم تابعت أصوات قنابل أخرى من خطوطنا ويبدو أن الإسرائيليين تمكنوا حتى الصباح من إخلاء جرحاهم ، واستولينا منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات . وكان من ضمن الغنائم جهاز لاسلكى مصنوع فى تشيكوسلوفاكيا وكان يعتبر فى ذلك الوقت من أحدث الأجهزة التى يمكن حملها على الظهر . وأثناء وقوف بعض الضباط من الوحدات المصرية المجاورة على حافة الخور وهم يشاهدون آثار المعركة معتقدين أن المعركة قد انتهت إذا بطلق نارى يصيب الزميل عز الدين مختار (وكان من كتيبة أخرى) فى كتفه . وشعرت أن العدو لا يزال يحتل موقعاً قريباً فأخذت أتفحص المنطقة الفضاء أمامى بمنظارى المكبر وفجأة لاحظت حركة فى سطح أحد المباني البعيدة ، وكان المبنى شبه مهجور ويبعد بحوالى كيلو مترين عن مواقعنا . ذهبت فى الحال إلى موقع المدفعية المضادة للدبابات الموجود تحت قيادتى فى الفصيلة وسألت حكمدار الموقع عما إذا كان لديه دانات شديدة الانفجار . وطلبت من الموقع توجيه مدفعيته على ذلك المبنى بعد تحديده لهم وأن يجعل الهدف هو سقف الدور العلوى . وانتظرت قليلاً وأخذت أراقب المبنى بالمنظار المكبر حتى تم الضرب ورأيت جثثاً تطير إلى أعلى . ولم تنتظر المدفعية أية أوامر أخرى ، ففتحت جميع نيرانها على الموقع بشدة وإتقان حتى تهدم المبنى تماماً .

وبعد أن توقفنا عن الضرب جاء قائد الحملات المدرعة بالكتيبة الملازم أول سيد رفعت اسماعيل وركبت معه حمالته ، وفى حراسة باقى الحملات

خرجنا نجوب ونظهر أرض المعركة ولم نجد أى مقاومة حتى وصلنا المبنى الذى دمرته مدفعيتنا ولم نجد سوى جثث قتلى فقط بأسلحتهم ومعداتهم وأجهزة اتصالاتهم ووجدنا فى إحدى الغرف المهتمة خريطة ميدان أخذناها على عجل مع بعض الغنائم الأخرى وعدنا سريعاً إلى مواقعنا لتفحص هذه الخريطة بتأنى وعلمنا من فحص الخريطة أن هذا المبنى كان العدو قد اتخذ مركزاً للقيادة وعلى الخريطة علامات تدل على تفصيلات دفاعاتنا بما يدل على قيامهم بالاستطلاع الجيد قبل هذه المعركة الليلية ، كما يدل أيضاً على احتمال وجود جواسيس لهم داخل خطوطنا .

الخريطة التى وقعت فى أيدينا كانت تحتوى على رسومات وعلامات لمواقعنا الدفاعية فى العمق . فعلاً تذكرت عند ذلك أنه أثناء القتال الليلي كنت أشعر ببعض الطلقات الطائشة وهى تمر من فوق رؤوسنا ومن خلف موقعنا وبالقطع كان هناك بعض القناصة الاسرائيليين خلف مواقعنا . وبعد المعركة بعدة أيام انسحبت الكتيبة من الموقع الأمامى فى أسدود للراحة فى مواقع خلفية عند مدينة غزة .

معركة تبة الفناطيس

وفى مواقع الراحة فى مدينة غزة وبعد منتصف الليل سمعنا تبادلاً للنيران صادراً من موقع قريب من غزة . وبعد هدوء المعركة مرت نصف ساعة أو أكثر ثم وصلتنا رسالة تليفونية لقائد سريتنا وسرية أخرى تأمرنا بالتأهب للتحرك والاشتراك فى معركة قادمة . وتحركنا أثناء الليل . فعلمنا عندما وصلنا إلى موقع قريب من ميدان المعركة أن مستعمرة نيتسالييم التى سبق استيلائنا عليها قد أغار عليها الاسرائيليون بعد منتصف الليل فى معركة هجوم ليلية أيضاً فتمكنوا من الاستيلاء على إحدى الدشم التى يحتلها

المصريون ، إلا أن بقية القوات المصرية الموجودة بالمستعمرة أمكنها استرداد هذه الدثمة ، ولكن الاسرائيلين المنسحين قاموا باحتلال موقع يشرف على المستعمرة وهو عبارة عن تبة عالية بها فناطيس مهدمة محل معسكر قديم للجيش الانجليزى . وقد مكن هذا الموقع الجديد الاسرائيليين من اطلاق قنابل الهاون على مستعمرة نيتسالييم مما أعطاهم القدرة على قطع خط الامداد عن المستعمرة التى يحتلها الجنود المصريون ولذلك كانت مهمتنا الاستيلاء على تبة الفناطيس « لتأمين وجودنا داخل المستعمرة . وصدرت الأوامر لقائد سريتنا (السرية ٣ فصائل) بالهجوم ، وتقدمنا تحت ستار ضرب المدفعية متبعين نفس تكتيك الهجوم السابق على مستعمرة نيتسالييم فكنا نقوم بقفزات يتخللها ضرب متقطع للمدفعية .

ولكن كلما تقدمنا مسافة بسيطة كنا نضطر للانبطاح أرضاً فيتوقف تقدمنا بسبب كثرة الخسائر حيث تمكنت نيران العدو من اصابتنا حتى ونحن منبسطون أرضاً فقد مكثهم موقعهم المرتفع من كشف جميع تحركاتنا فأصبحنا أهدافاً سهلة .

وعندما اقتربنا تماماً من موقع الاسلاك الشائكة للاسرائيليين لم يعد من الممكن التقدم شبراً آخر ، فكل من حاول الوقوف كان يصاب فى الحال . ونحن على حالتنا هذا قمنا باختبار مدى إحكام تصويبهم لعل الفرصة تسنح بالهجوم فكننا نأخذ الخوذة الخاصة بى ، فأضعها على طرف السونكى وأرفعها إلى أعلى كأن أحد الجنود المصريين يحاول الوقوف والتحرك وبالفعل كانت الطلقات تتساقط بإحكام على الخوذة فأعيدها ثانية على رأسى ، وبالتالي قبعنا بالسكون فى مواقعنا . وحضر إلينا أركان حرب الكتيبة الجديد عبد الحكيم عامر الذى تولى هذا المنصب بعد استشهاد

عبد السلام عفيفى وقد كان حديث التخرج من كلية أركان حرب وكان هذا هو أول لقاء لى به .

كانت مواقع العدو فى (تبة) الفناطيس على دشـم وخنادق مواصلات لم يعمل لها أسقف للحماية (مكشوفة) ولذلك قام عبد الحكيم عامر بمراجعة مواقع ومسافات الدشم المكشوفة بدقة بحيث يتم احكام الضرب فوقها مباشرة بدانات « الشراينيل Shrapnel » التى تتصف بخاصية الانفجار قبل الارتطام بالأجسام الصلبة فى الهواء وأعلا الهدف مباشرة وبذلك يمكن للمدفعية المصرية إصابة القوات الاسرائيلية المدافعة داخل خطوطها المكشوفة ، وهو ما لم يكن متاحاً خلال خطة الضرب السابقة .

ومن مواقعنا كنا نشعر بآثار انفجار دانات الشراينيل فوق رؤوس جنود العدو وأثناء الضرب بالاسلوب الجديد أردت أن أختبر مدى إحكام ضرب العدو علينا فرفعت الخوذة على طرف السونكى مرة أخرى فلم تنطلق أية رصاصة نحوها دليلاً على أن العدو حدثت به خسائر جسيمة وكرد فعل تلقائى نهضت دون تفكير وندفت بأعلى صوتى « الله أكبر » فهب الجنود خلفى وهم يرددون نفس الهتاف العظيم الذى صار تياراً يدفعنا فى حماس ودون خوف لتتقدم ونقتحم كأن صدمة كهربائية قد أصابتنا فتسرى من شعر الرأس إلى أصبع القدم .

ولاحظ أمباشى كان يقف بجانبى أحد الإسرائيليين يقف على مقربة من زملائى وقد أمسك فى يده المرفوعة فوق رأسه قنبلة يدوية ورفع الأومباشى صوته ليحذرني فوجهه بندقيته نحو الجندى الإسرائيلى وفى تلك اللحظة لمحت يده وهى تكاد تقذف بالقنبلة أمامى فقفزت جانباً فى الوقت المناسب . وعندما أفقت ، رأيت الجندى الإسرائيلى وقد مزقته القنبلة بعد أن أصابه الأومباشى فسقط على الفور إلا أن القنبلة انفجرت فيه قبل أن يتمكن من إلقائها على .

وتنبهت على صوت بقية الجنود وهم يقتحمون بقية المواقع في نجاح بعد أن أطلق أومباشى آخر من جنودى طلقة الإشارة الخاصة بنجاحنا في اقتحام الموقع .

وأثناء تلك الفترة الرهيبة من الشلل التام ونحن أسرى أماكننا وأنا فاقد القدرة على التقدم أو حتى التقهقر قبل الاقتحام مرت على فترة تولتى فيها رعشة الخوف الشديد إلا أن الله أراد أن يلقننى درساً خاصاً عملياً . وأنا على حالتي هذه حاولت إحدى الحملات المدرعة أن تعاون في الاقتحام فتقدمت في سرعة فائقة صوب مواقع العدو وكان خلف الحمالة بعض الجنود وبرفتهم ضابط يحتمون خلفها ، ولكن العدو تمكن من إصابة الحمالة فتوقفت عن الحركة واضطر طاقمها إلى اخلائها والانبطاح أرضاً وتملك الذعر الشديد الضابط الذى كان يحتمى خلف الحمالة فاستدار للخلف ، وأخذ يجرى وهو في شدة الفزع ولكنه قبل أن يقطع مسافة كبيرة أصيب في ظهره وسقط مضرجاً في دمايه فكانت صورة الضابط وهو يولى ظهره للقتال خوفاً وفزعاً صورة ألهمت الحماس في قلبى وتغلبت على مشاعر الخوف في داخلى .

وتمت ترقيتى ترقية استثنائية من رتبة الملازم أول إلى رتبة اليوزباشى لاشتراكى في هذه المعركة بفضل الله وإلهامه . ورحم الله زملائى من الفصائل الأخرى الذين استشهدوا في هذه المعركة .

مرة أخرى وافقت مضر على الهدنة الثانية وبألت مصر لم توافق على أى من الهدنتين . فحتى معركة قبة الفساطيس كانت قواتنا متفوقة في كل شىء إلا القيادة العليا . فقد أعطت فترة الهدنة الثانية فرصة للدول الكبرى لتدعيم وتقوية إسرائيل ، فوصل تسليحها إلى درجة عالية من القوة فلم يمكننا تحقيق أى نصر بعد ذلك حتى قيامنا بأخر معركة اشتركت فيها وهي معركة نجبا Nagba .

وعندما انتهت الهدنة الثانية واستأنفنا القتال صدرت الأوامر لقائد كتيبتنا التاسعة محمد كامل الرحمانى بالإعداد والاستعداد للهجوم على مستعمرة نجبا .

معركة نجبا

قبل المعركة بيومين قمنا مع قائد الكتيبة باستكشاف تفصيل لأرض المعركة وبعد انتهائنا من الاستكشاف الأرضى ركبنا طائرة فاستكملنا بها عملية الاستكشاف من الجو .

وفى صباح يوم المعركة أخذ كل منا موضعه حسب الخطة التى أخذت تتكرر قبل كل معركة منذ معركة « ديرسنيد » و « نيتسليم » . فبدأت المدفعية فى الضرب التمهيدى ونحن خارج مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة . وتلا ذلك عملية التقدم على مراحل تخللها ضرب متقطع للمدفعية وفى المرحلة الأخيرة عندما اقتربنا من الأسلاك الشائكة فوجئنا بنيران هائلة تشتعل من داخل خندق عميق يحيط بالمستعمرة من جميع الجهات ، فتوقفنا عن التقدم ، والنيران تزداد اشتعالاً وكلما قاربت على الخمود تعاود الاشتعال مرة ثانية فيصعب على جندى المشاة اجتياز الخندق لعمقه واتساعه . فتعطلت عملية الهجوم وبذلك تأخرت عملية الاقتحام النهائى .

وتولانى الملل والإجهاد من طول الانتظار وحرارة الشمس الحارقة ورأيت خلفى إحدى المدرعات المشتركة فى المعركة فزحفت أنا والشاويش وهبه لنحتفى تحت هذه الدبابة من حرارة الشمس الشديدة وانتظاراً للفرج . وأخذت أفكر فى إمكانية تكرار عملية الاقتحام كما قمت بها فى تبة الفناطيس . بدأت فى عمل الاختبار التقليدى برفع الخوذة على طرف السنكى بعد الزحف قليلاً من تحت الدبابة إلا أن نيران العدو كانت تنهال

على الخوذة كدليل على تمام استعداد العدو وتيقظه وسلامة خطوطه الدفاعية في حاية مانع النيران الرهيب الذى منحهم الوقاية الكافية لكى يعيدوا تنظيم خطوطهم الدفاعية التى أصابتها المدفعية المصرية خلال عملية الضرب التمهيدى .

وبعد أن قمت باختبار مدى يقظة العدو عدت مرة أخرى تحت الدبابة صارفاً النظر في هذه اللحظة عن المجازفة بعملية اقتحام بمفردى . وبدون الشاويش وهبه في هذه اللحظة كان قد أصابه التعب من الوضع الذى استقر عليه تحت الدبابة ومن ضيق المساحة ، فحاول أن يستلقى على جنبه فرفع جنبه الآخر فأصيب فى الحال وتأوه بشدة ولكنه دون أن يشعر رفع جنبه الآخر فأصيب فيه وبعد فترة ترك لى الشاويش وهبه سلاحه واستأذن فى الانسحاب زاحفاً إلى الخلف . وعندما لاحظ العدو حركة الشاويش تحت الدبابة توالى النيران المركزة على موقعى ، فقررت التحرك من تحت الدبابة إلى مكان آخر . وقبل أن أهم بالزحف ناديت على جندى كان يرقد بجانبى فلم يجبنى ، فأخذت أدفعه بيدي كى أنبهه ليشترك معى فى عملية الزحف ولكنه كان جثة خاملة ، أصبح فى عداد الشهداء .

وانسحبت إلى العراء والشمس المحرقة ثانية ، وبعد طول انتظار عاودت تجربتى برفع الخوذة فلم تصدر أى طلقات فاعتقدت أن اللحظة الحاسمة قد جاءت معتقداً أن المدفعية المصرية قد نالت من خطوطهم الدفاعية ، فنهضت للاقتحام فلم أشعر إلا ودانة هاون من العدو تنفجر بالقرب منى فانبطحت أرضاً على الفور وتوالى دانات الهاون حولى فلم أشعر إلا والدماء تسيل من ساعدى وأحمد الله أن الدانات لم تصبنى إصابة مباشرة ، فقط أصابتنى شظايا متناثرة من دانات العدو . تم إخلائى للخلف فأجريت لى عملية

لتنظيف الجرح في مستشفى النيران في خندق
 استمرت مشغولة حتى مغرب ذلك اليوم وأن الهجوم المصري توقف
 مع انسحاب القوات المصرية فلم تستكمل هجومها بأى هجوم ليلي .
 وصل قطار الجرحى الذى أقلنا من الجبهة حتى محطة إمبابة خلف كازينو
 الكيت كات استعداداً لإخلائنا ونقلنا إلى مستشفى العجوزة ، ولشدة
 دهشتي سمعت أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة وهى تنبعث من
 ملهى الكيت كات وكأن البلاد لم تكن تخوض حرباً يسقط فيها العبيد من
 الجرحى والقتل كل يوم ، وأخذت أناجى نفسى « فرح وفساد هنا وتكشف
 وموت هناك » . وفجأة تعالت صفارات الإنذار لتصم آذان القاهرة منذرة
 بقيام إسرائيل بغارة جوية . لقد أصبح لدى إسرائيل طائرات قادرة على
 التجزو بضرب القاهرة والفضل للهدنة وتعزيزات الدول الكبرى .
 عند وصولي إلى المستشفى سمعت أخباراً زادت من جزعى ، ونهضت
 محاولاً ارتداء ملابسى . كانت الغارة الجوية الإسرائيلية على القاهرة قد
 أسفرت عن تدمير أحد المنازل بحى عابدين وبالذات فى شارع البرامونى وهو
 نفس الشارع الذى يقع فيه منزل الأسرة وتقطع فيه والدتى وشقيقتى
 الأربعة .

وحاولت الخروج للاطمئنان عليهم ولكن أحد الأطباء الشبان منعني
 وأصر أن يذهب هو ، وبالفعل عاد وبصحبه شقيقتى الكبرى التى فوجئت
 بى وطمأنتنى على سلامتهم وإن كان أحد المنازل المجاورة لنا قد تدمر ،
 فحمدت الله وشكرته على سلامة الأسرة .

ومرت علينا الأيام بالمستشفى وأخبار الجبهة تصلنا عن طريق إخوتنا من
 الضباط والجنود الجرحى الذين توافدوا على المستشفى فى أعداد كبيرة ، كان

الموقف يزداد سوءاً مع مرور الوقت ، وعلمنا بحصار كتيبة كاملة بأسلحتها
المعاونة في « الفالوجا » إلا أن الكتيبة صمدت صموداً رائعاً والعدو يحيط بها
من كل مكان ولكنها تمكنت من صد جميع الهجمات بإصرار وأن قوافل
التموين المسلحة تمكنت كذلك من اختراق هذا الحصار والوصول بالمؤن
والذخائر للرجال المحاصرين . كما بلغني أن كتيبتى التاسعة حوصرت هى
الأخرى ولكنها تمكنت من الانسحاب إلا أن الانسحاب كان غير منظم
فأصابتها خسائر كثيرة . وتوالى ضربات العدو حتى أمكنه مطاردة القوات
المصرية داخل حدود مصر بالقرب من العريش .

ومع نهاية حملة فلسطين فشلت مصر في تحقيق النصر المرجو فكان سوء
الإعداد ، وتردى مستوى القيادة العسكرية العليا بالإضافة إلى ضعف
وتبعية القيادة السياسية العربية عامة والمصرية خاصة . كانت جميع هذه
الأسباب وراء ضياع حياة وتضحيات شباب المقاتلين المخلص . وزادت
في نفس الوقت من سخط وتبرم الضباط وأكدت لهم سلامة مشاعرهم تجاه
مستعمري وحكام البلاد . وبدأ الموقف السياسى يتدهور .

الأسلحة الفاسدة

لقد قيل الكثير عن أسباب هزيمتنا في حملة فلسطين ، وعن الأسلحة
الفاسدة ولكنى كضابط مشاة اشتركت في بعض معارك فلسطين وتعاملت
مع أسلحة المشاة ومع الأسلحة المساعدة حتى تمت إصابتي في معركة
« نجبا » لم أتعامل مع أية أسلحة أو ذخائر فاسدة أثناء العمليات .

ولكن بعد إيقاف القتال وإبرام اتفاقية الهدنة أثير هذا الموضوع في
الصحافة وأجرى تحقيق فيه تحت إشراف النائب العام وثبت أن عمولات

كبيرة استولت عليها شخصيات لها صلات وثيقة بالقصر ، وبالحكومة وذلك عن طريق التوسط لشراء السلاح للجيش المصرى أثناء الحملة . وثبت أيضاً أن هذه الشخصيات تمكنت من شراء كثير من الأسلحة والمعدات والعربات وبعض الطائرات من طراز فيات ، فاستولوا على عمولات كبيرة بالقرب من نهاية الحملة . كما ظهرت الأسلحة والذخائر الفاسدة خصوصاً فى سلاح المدفعية وذلك خلال المراحل الأخيرة من الاشتباكات فى الفترة ما بين الهدنة الثانية وهدنة إيقاف القتال النهائية . وضبط الكثير من هذه الأسلحة والذخائر الفاسدة موضوع هذه الصفقات المشبوهة بمعرفة لجنة عسكرية مدنية مشكلة بأمر النائب العام .

ومن لطف الله أنه لم يتم توزيع أغلب هذه المعدات الفاسدة على القوات المحاربة حيث أن اتفاقية الهدنة كانت قد أبرمت ، وانتهى القتال .

ضباط في السجن الحربي

بعد ترقيتي استثنائياً إلى رتبة اليوزباشى ، وبعد شفائى ، انتدبت للعمل بالسجن الحربي ، وكانت ميزة هذا المكان أنه في القاهرة التي يمكنني منها الاتصال بالحركات الوطنية .

توليت وظيفة أركان حرب السجن الحربي طوال فترة خدمتي فيه . كان قائد السجن الحربي أمين مصطفى الخشاب والذي كانت له مواقف وطنية رائدة سأعرض لها في فقرات تالية . فضلاً عن أنه قام بعمل لقاء بيني وبين جمال عبد الناصر على أساس أنه يرأس تنظيمًا آخر من الضباط الوطنيين . وكان الخشاب عضواً في هذا التنظيم وسأعرض لذلك أيضاً في الجزء الخاص بلقاء عبد الناصر .

ونقل الخشاب وحل محله القائد حافظ صدقي . وكانت فترة العمل بالسجن الحربي ميزة كبيرة لي ، ولنشاطي السياسي ، حيث كان لدى وقت الفراغ الكافي لأبذل جهداً مضاعفاً داخل تنظيم الضباط الوطنيين أوفي العمل السياسي نفسه وتدوين مذكراتي السياسية .

عودة إلى النشاط السياسي

بعد انتدابي للعمل بالسجن الحربي ، كان لدى وقت فراغ كبير أمكنني فيه أن أعاود النشاط السياسي ، والاتصال بمختلف التنظيمات الوطنية في

القاهرة . كما خصصت وقتاً كافياً أيضاً لمعاودة التدريب على لعبتي
الرياضية المفضلة : السيف والشيش وتم اختياري في فريق مصر في البطولة
الدولية التي أقيمت باستوكهلم في السويد عام ١٩٥١ .

أعود للناحية السياسية ، فأذكر أنني عاودت الاتصال بمجموعة
الضباط الوطنيين السابق ذكرها . استأنفتنا الاجتماعات ولكن بعد خروج عدد
منا للانضمام إلى تنظيم الحرس الحديدي الذي يعمل مع الملك فاروق وكان
حلقة الاتصال الطيب يوسف رشاد . والبعض الآخر تخلف عن حضور
الاجتماعات وكنا نعلم أنهم انضموا إلى تنظيم آخر مع جمال عبد الناصر
وزكريا محيى الدين وكمال حسين ويوسف منصور صديق وغيرهم . وعلمت
أيضاً أن القائد محمد نجيب انضم لهم . ولكنني إلى هذا الوقت اكتفيت
بالنشاط داخل التنظيم القديم . وكنت أعتبر أن أى مجموعة وطنية من
الضباط يمكنها أن تكون تنظيماً ، ومهما تعددت التنظيمات فإن أهدافها
ستكون واحدة وسوف تصل في النهاية إلى تحقيق هدف واحد في حدود
خدمة بلادنا ما دامت كل تلك التنظيمات بعيدة عن القصر والأحزاب
المحترفة ، وغير مرتبطة بأى تنظيمات مدنية سرية أخرى ونشط تنظيمنا نشاطاً
كبيراً خصوصاً من ناحية تجميع معلومات عن مساوئ الملك ورجال
القصر والحاشية والأحزاب وتجاوزات السفير البريطاني ، وبهلوانية أعضاء
برلمانات الأغلبية الحزبية وكما زاد نشاطنا في تثقيف أنفسنا سياسياً . كنا
نتدارس التجاوزات والمآخذ على ضوء الأحداث السياسية اليومية . وكنا
نسجل تلك التجاوزات وبمجموعة منا كانت تحرر المنشورات ، وتشرح وتفنن
مساوئ تلك التجاوزات وتعلقنا الوطنى عليها . كنت مكلفاً بالطبع
والتوزيع في حلقة ضيقة جداً يشاركني فيها أحد الشبان الأقارب لى فقط
(زيادة في الحرص) وكان التنظيم يزودنى بعنوانين منازل المرسل لهم المنشور

سواء من الضباط أو المدنيين أو الهيئات . وشيئاً فشيئاً ازدادت دائرة توزيع هذه المنشورات كلما زاد كشف التوزيع اتساعاً لمعرفة المزيد من العناوين الخاصة . وكانت المنشورات توزع بالبريد على بعض الهيئات الشعبية والضباط والسياسيين والصحفيين . وكانت أمامى مشكلة الحصول على آلة كاتبة أنسخ عليها المنشورات وكذا ماكينة الطباعة الرونيو . أما عن الآلة الكاتبة فقد تمكنت من حلها ، فقد كان لى ابن عم محامى كبير له مكتب بالعتبة الخضراء فوق محلات توت عنخ أمون الحلوانى بأول شارع محمد على وهو الأستاذ عباس فضلى المحامى وكان رغم فارق السن بينى وبينه صديقاً عزيزاً وكان يعمل لديه ابن عمتى أحمد عفيفى الموظف فى مصلحة التنظيم (مسئولة عن نظافة العاصمة) وذلك فى وقت فراغه وكان يتولى الكتابة على الآلة الكاتبة الموجودة بالمكتب . وكنت أزور المكتب كثيراً . فلم يستجد شئ عند وجودى كثيراً بالمكتب . وكنت أنتظر عودة ابن عمى المحامى للمنزل وتوصيله إلى الترام الذى يركبه متجهاً إلى مسكنه بالعباسية ونعود أنا وابن عمتى أحمد عفيفى أبو الفضل ونفتح المكتب بالمفتاح الذى لديه بصفته موظفاً بالمكتب وأتولى أنا إملاء المنشور عليه وهو يكتبه وكانت ماكينة الآلة الكاتبة من صنف قديم جداً ماركة Underwood أتذكر ذلك جيداً لأنى كنت أعلم أن آلات الكتابة الحديثة توجد لدى القلم السياسى ، أو القسم المحصوص صورة من كتابتها وحروفها جميعاً ، ولكن هذه الآلة الكاتبة بالقطع لم يكن لديهم علم بها لأنه بعد أن جازفت بعمل منشور عليها لأول مرة لم يحدث أى رد فعل فواصلت استعمالها دون علم ابن عمى ، صباحها .

أما عن آلة الطباعة . فقد وفقت إلى صديق وزميل من أيام الدراسة الثانوية كان والده يملك مكتبة كبيرة بها آلات طباعة رونيو للبيع . وأمكنتى عن طريق صديقى أن نستعير من والده إحدى آلات الطباعة القديمة بحجة

أنه سيطبع عليها في منزله مذكرات للطلبة في الجامعة ، ونجحت في أن أستعيرها منه من وقت إلى آخر كلما شرعت في طبع أحد المنشورات . وكان الطبع يتم أيضاً في شقة ابن عمتي أحمد عفيفي بشقته أعلى المنزل ، بحى السيدة زينب .

وكان يساعدننى هو في عملية الطبع . ثم يقوم بيده اليسرى بكتابة العناوين على مظارييف التوزيع العادية .

أما عملية التوزيع فإنه أمكنتنى بعد حملة فلسطين ، أن أشتري من مدخراتى عربية صغيرة فيات موديل بليلة فقد كنت أقوم وحدى وبعربتى البليلة بالتوزيع بإسقاط كمية من المنشورات في كل صندوق يريد أجدّه في طريقى وكنت أبدأ من مصر الجديدة إلى باقى أحياء القاهرة ولأجل اختبار مدى تأثيرها على الضباط كنا ندعو في بعض هذه المنشورات إلى اجتماع بنادى الضباط بالزمالك في يوم وساعة محددتين . أما لجنة تحرير المنشور فكانت مكونة من الزملاء : مصطفى نصير وعبد الحميد كفاقي وأبو الفضل الجيزاوى . وكانت تلك المنشورات ترسل وتوزع أيضاً على جميع دور الصحف ورؤساء التحرير بل والذين نكتب ضدهم المنشور من السياسيين والمفسدين .

وكانت الاجتماعات التى ندعوها بالمنشور يحضرها أعداد كبيرة من كبار وصغار الضباط . وكان يواظب على حضورها جميعاً اللواء محمد نجيب بشقيقه اللواء على نجيب . لم يكن يتم في تلك الاجتماعات أى نشاط أو كلام الطبع ، وكنا فقط في شبه مظاهرة لا يُعرف منظّمها والكل يسلم على الآخر وتتناول المشروبات الخفيفة ثم الأحاديث العادية وكل منا ينظر للآخر في رية وتحمين لاستكشاف من هو مصدر هذه المنشورات والدعوة إلى هذه الاجتماعات .

الحصول على السلاح

تعرفت في نادى السلاح إلى الزميلين صلاح دسوقى وحسن التهامى وكانا في تنظيم وطنى على صلة بعزيز المصرى باشا ، وذهبت عدة مرات مع صلاح دسوقى لمقابلة عزيز المصرى . وكان فعلاً هو الأب الروحى لمعظم المكافحين الوطنيين ولكن لم يفتحنى أى منهم فى دخول أى تنظيم ولم أعرف أكثر من أنهم كانوا يجتمعون لديه للحديث فى الأوضاع المقلوبة بالإضافة إلى الأحاديث الثقافية . ولكن صلاح دسوقى فاتحنى فى أحد الأيام عما إذا كان يمكننى أن أحصل لهم على أسلحة وخصوصاً المدافع الرشاشة (البرن) وكان لى أحد المعارف ممن يعملون فى سلاح الصيانة بالجيش ، فقد فاتحته فى ذلك وذهبت لزيارته بمنزله فى مكان بالقرب من القلعة . وكان منزله عبارة عن حوش كبير به حجرات فى منطقة المقابر . وعرض على للفحص كثيراً من هذه الأسلحة يحتفظ بها فى خندق تحت أرضية الغرفة . اتفقت معه على الأثمان ثم اتصلت بصلاح دسوقى وحسن التهامى وذهبنا سوياً بعد عصر أحد الأيام وأخذنا ترام رقم ١٣ من العتبة حملنا إلى القلعة واستلمنا مدفعين رشاشين مفكوكين بعد أن دفع صلاح الثمن . وأحضر لنا هذا التاجر صحفاً كثيرة لفننا قطع المدفعين فى ثلاث لفات كل منا حمل جزءاً منها وركبنا الترام وعدنا إلى نادى السلاح بحديقة الأزبكية وحفظناها بدواليب ملابسنا الخاصة بنا كل لفة فى دولاب إلى أن أحصر حسن التهامى عربية فى اليوم التالى وأخذها فيها وتكررت عملية شراء السلاح عدة مرات . وعلمت فيما بعد عند إلغاء معاهدة ١٩٣٦ أن هذه الأسلحة كان يستعملها أعضاء تنظيم عزيز المصرى فى مقاومة الإنجليز بالقتال .

موقف وطنى لا ينسى

فى أواخر عام ١٩٥١ كنت لا أزال أعمل بالسجن الحربى . وفى أحد الأيام ، عقب عودتى من التفتيش على السجن الحربى بالإسكندرية ، حيث قضيت يومين هناك وبمجرد دخولى من باب السجن بالعباسية ، لكى ألتقط سيارتى (الفيات) البليلة الخضراء التى كنت قد تركتها بفناء السجن ، تم إبلاغى أن قائد السجن أمين مصطفى الخشاب يتظرنى عند العودة وعلى أن أتوجه إلى مكتبه فوراً .

دخلت على قائدى فبادر بإخبارى أن قائد البوليس الحربى عصام المصرى حضر إليه بالأمس خلال وجودى بالإسكندرية ومعه كشف بأرقام سبع أو ثمانى سيارات مدنية . . وأن إحدى هذه السيارات خضراء اللون وقد شوهدت فى إحدى الليالى خلف قسم عابدين ، ترجل منها شخص أسقط رزمة من المظاريق فى صندوق البريد المثبت خلف جدار قسم عابدين . وسأل الخشاب قائد البوليس الحربى لماذا يتم البحث عن سبع أو ثمانى سيارات مادامت السيارة المشتبه فيها واحدة ؟ فأجابه بأن عسكرى البوليس لم يتمكن من قراءة جميع أرقام السيارة ربما لعدم إجادته القراءة أو لأن الإضاءة ليلاً لم تكن كافية أو لكلا السببين معاً . ولذلك تمكن من التقاط رقمين فقط من أرقام السيارة الستة . وأن البوليس اتصل بقلم المرور الذى أحضر كشفاً بعدد السيارات التى يشترك فيها هذان الرقمان ، ومن المتوقع

... ..

212

عند ديك احمد توف الخشاب عن سر:

100

[illegible]

مضى . وابتسم قائداً الخشوف وهو يمشي .
 اندفع بسرعة إلى التزلج ، فاجلح ميخائيل في
 الغمام فوراً .

وبالفعل تركته ودخلت في منزلي فوجدت	وبالفعل تركته ودخلت في منزلي فوجدت
أنا وحلي مشاء	أنا وحلي مشاء
في سيارتي	في سيارتي
تبدل	تبدل
القائد	القائد
المسجد	المسجد
الأخضر	الأخضر

بالدهان والله

لم ولن أمدسى قائله الذي

أصدق تعبير عن علاقات المحبة والرحمة والهدامة والوطنية في تلك الأيام .

في اليوم الثامن - قبل قيام مهمة المنسحين على سجن الإسكندرية بصعوبة أيام كان على ، أقدم بوزيع أحمد المنشورات التي كان يقوم بتحضيرها تنظيم الضباط الوطنيين . وهذا حدث بتوزيع آخر دفعة من هذا المنشور كان لا يزال في حوزتي ، فمنها ، وأنا عند سينما رويال (مسرح الجمهورية حالياً) بشارع إبراهيم باشا ، في منزل في طريق عودتي من المحطة وجدت صندوق بريد خلف قسم عابدين ، فتركت السيارة أمام سينما رويال وأسقطت المظاريف في الصندوق وعدت مسرعاً مستكماً طريقي إلى المنزل . ويبدو أنه لكثرة تعدد توزيع المنشورات بواسطة البريد ، بقلم السياسي (القسم المخصوص) بمراقبة بعض صناديق البريد ، وكان هذا الصندوق ضمن الصناديق المراقبة .

لقاء مع عبد الناصر

بعد مرور عدة أيام على هذه الأحداث كانت مشاعر عدة لاتزال تسيطر على . كنت لا أزال متأثراً من الموقف الوطني لقائدي الخشاب وزاد من تأثري عدم قدرتي على إبداء امتناني وشكري حتى لا أنكسف أكثر من ذلك ، كذلك استوعبني مشاعر الضيق لعدم توافر الحرص الكامل أثناء العمل في المنشورات .

وقبل أن أفيق من هذه الحالة فاجأني الخشاب بالزيارة في مكتبي ، وعلى انفراد أبلغني أن جمال عبد الناصر يريد مقابلي وعلى أن أنتظره بعد موعد العمل ظهراً حتى نتصرف سوياً في مسيرة الخشاب لمقابلة جمال .

وكانت معلوماتي عن عبد الناصر في ذلك الوقت أنه أحد الضباط الذين تم حصارهم في الفالوجا خلال مدة فلسطين حيث كان ركان حرب القوة

المحاصرة . وخلال الحصار عرف عنه هدوء الأعصاب كما تميز بالتصرفات القتالية الدقيقة الفعالة فأظهر شجاعة لم ينكرها زملاؤه وجنوده . ورغم توالى الهجوم الإسرائيلي على القوة المحاصرة تمكن مع زملائه من رفع الروح المعنوية للمقاتلين المصريين .

وعلمت أيضاً أنه أثناء الحصار تعرف على نخبة من الضباط الشبان كان من أبرزهم زكريا محيى الدين ولطفى واكد وسعد الجمال والضابط كشك . وبعد عودتهم من فلسطين كون عبد الناصر مع لفيق من الضباط تنظيمًا سرّيًا انتشر على شكل خلايا .

وخلال عملي في السجن الحربى كان عبد الناصر وصلاح وجمال سالم يكثر من التردد على الخشاب ولذلك عندما أخبرنى بأن عبد الناصر يريد مقابلتى استنتجت أن يكون الخشاب قد أخبر عبد الناصر بواقعة الاشتباه وأن الخشاب قد يكون من ضمن التنظيمات الثورية للضباط التى لها علاقة بتنظيم عبد الناصر .

وصلنا إلى منزل عبد الناصر وكان فى منشية البكرى فى الحى المقابل للمدرسة الثانوية العسكرية ، وجلسنا فى حجرة بالدور الأرضى تطل على الشارع . وأثناء الحديث أبلغنى أنه يعلم أننى أساهم مع جماعة أخرى فى طبع وتوزيع المنشورات وأن هذه الجماعة التى أنتمى إليها سبق واعتقل عدد كبير منها (٢٩ ضابطاً) فى أكتوبر ١٩٤٧ وأن نشاطنا مكشوف بعض الشيء حيث أصبح لبعض أعضاء هذا التنظيم سجلات فى ملفات القلم السياسى بالداخلية ولوأننى شخصياً لم يتم اعتقالى .

وتوقف قليلاً ثم أخبرنى أن لديه منشوراً يريدنى أن أتولى نسخه وطبعه وتوزيعه . واتفقنا على موعد ومكان اللقاء لأستلم منه مادة المنشور وذلك أمام محلات حلاوة بميدان العتبة الخضراء .

وفى الموعد والمكان المحددين (أمام محلات حلالة بالعبية) وصل جمال عبد الناصر مستقلاً سيارته الصغيرة السوداء . وسلمنى مطروفاً به المنشور محرراً بخط اليد وكمية من أوراق الطبع الاستنسل . وطلب منى استلام ماكينة الطباعة من صلاح نصر الذى ينتظرنى فى مدرسة الشئون الإدارية بالجيش على أن أعيدها له بعد إتمام الطبع .

كالمعتاد ذهبت بالمظروف إلى مكتب ابن عمى وانتظرت حتى قمنا باصطحابه - كالعادة أيضاً - إلى محطة الترام ، ليعود إلى منزله ثم عدنا مرة أخرى إلى المكتب . كان منشور عبد الناصر مطولاً ، يحتاج إلى عدة صفحات مما يصعب من عملية توزيعه داخل المظاريف الصغيرة . وبالفعل أعدت كتابة المنشور بعد اختصاره بحيث احتفظت بجميع عناصره وبحيث لا يتعدى صفحتى فولسكاب . وفى اليوم التالى ذهبت حسب الاتفاق لصلاح نصر واستلمت منه ماكينة الرونيو (الطباعة) التى حملتها فى عربتى ليتم الطبع بمنزل ابن عمى بالسيدة .

وبعد أن تم طبع وتوزيع المنشور التقيت مرة أخرى بجمال عبد الناصر ، فحذرنى ثانية بأن تنظيمنا مكشوف وعلينا أن نكون أكثر حرصاً وحذراً . ومن الطريف أنه خلال كتابة منشور عبد الناصر فى مكتب ابن عمى سمعت أزيز آلات التنبيه التابعة للشرطة ، فخرجت من باب المكتب ووقفت على بئر السلم التابع للمبنى لأرى بنفسى ماذا يحدث ففوجئت بجنود ومخبرى الشرطة ، يصعدون مسرعين فأناطقنى الله بذكره طالباً حمايته . وأصابنى وجوم الخوف فإذا بقوة الشرطة تتركنى متجمداً فى مكانى على السلم وتنتقل إلى الأدوار العليا لتدهم شقة كانت تدار لأعمال مخلة بالآداب . .

٣٣ يوليو - مصطفى الأسيوطي

بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، كانت حكومة الوفد شبه جادة في مساعدة أعمال المقاومة ، واتخذت إجراءات مدنية وعسكرية لاحتمال عودة الجيش الإنجليزي من القنال لاحتلال القاهرة . لذلك صدرت أوامر رئاسة الجيش باتخاذ مواقع دفاعية عن القاهرة ، ووضعت خطة عسكرية لذلك كان من نصيب أن أكون بالكتيبة التاسعة مشاة ، والوحدة التي أقودها مكلفة بالدفاع عن منطقة مطار إنشاص ضد نزول القوات البريطانية .
رأيت وصولي لوضع المطار إنشاء مع ضباطي وجنودي ، تمهيداً لمهم في بادئ الأمر بأن هذا واجب وطني يجب علينا أن نكون عند حسن ظن شعبنا . ولذلك يجب أن نبذل مجهوداً لساقاً في التدريب .

وبدأت بتجهيز مواقع الدفاع بوضع مواقع من البراميل المملوءة زلطاً وحجارة ورمالاً على ممرات الطائرات وبشكل مكثف ليعوق تماماً نزول الطائرات المعادية بالطيار ، وقمت باختيار أماكن دشيم متبادلة (مواقع ضرب نار دفاعية) تحقق تكاملاً دفاعياً تاماً ، بحيث تغطي الدشم بعضها بالبيران فإذا أسهل الدشم دشمة تستطيع الدشم الأخرى الضرب عليها .
وأحضرت المواد المثالية لتكسية وتقوية هذه الدشم على نمط دشيم المواقع الإسرائيلية في مستعمراتهم والتي نالت أثناء حملة فلسطين - تقاوم هجومنا مقاومة شديدة وكانت هذه الدشم أيضاً تغطي بترابها مواقع هبوط

الطائرات (البراميو المملوءة رملاً وحجارة) كذلك كانت الدشم تضرب في جميع الاتجاهات حتى إذا كان المهجوم من الأجانب والخلف أمكن التعامل معه . وبذل الجنود والضباط مجهوداً شاقاً في إعداد الدشم وخنادق المواصلات بينها لإخفاء تحركات الإمداد وتعويض الخسائر والإحلال وذلك في حماية من نيران العدو ووضعت خطة للراحة بحيث يكون الجندي والضابط في منتهى النشاط عندما يجد الجدد . وأنشأت لهم مكاناً للراحة وكذلك أماكن مخفورة بعمق كبير لإخفاء العربات ووقايتها من الضرب ليسهل خروجها ودخولها إلى هذه الخنادق الكبيرة .

وبعد إتمام هذه التجهيزات التي أخذت وقتاً طويلاً بدأت في تدريبهم على الاحتلال السريع للمواقع بمجرد أن يطلق الإنذار بالخطر ، وأجرينا عدة تجارب حتى وصلنا إلى رقم قياسي في ذلك . وحضر ذات يوم للمرور أمين هويدى أركان حرب اللواء ، وكان حضوره صدفة ، وكنا وقتها نقوم بإجراء تجربة على احتلال المواقع ، وظل - قبل أن يقابلنى - يراقب في إعجاب وتقدير هذا المستوى المرتفع من كفاءة الجندي المصري إذا أحسنت قيادته .

لقاء في القطار العائد إلى العريش

أثناء حريق القاهرة كنت في أجازة ميدانية لزيارة أسرتى بالقاهرة ، وبعد الحريق بيوم واحد - وكانت نهاية الاجازة - عدت إلى العريش بالقطار (٢٨ / ١ / ١٩٥٢) وكنت قد حضرت حريق القاهرة وسرت مع المتظاهرين أشاهد ما يعملون إلى أن بدأ الشغب في ميدان الأوبرا فعدت إلى منزلى في عابدين فوراً .

وبمرورى على ميدان عابدين كان الميدان محتشداً بعربات ضباط الجيش

وهم يغادرون وليمة القصر في عجلة من أمرهم . وبين وقت المغرب والعشاء كنت أسمع أصوات الانفجارات من منزلنا يتخللها أصوات إطلاق نيران . وصعدت إلى السطح بعد المغرب . وكان منظر القاهرة في منتهى البشاعة ، دخان كثيب وكثيف ولهيب مرتفع وسواد الدخان يُكون سحابة قاتمة والإذاعة سككت عن إذاعة الأنباء . وفي ساعة متأخرة علمنا من الإذاعة أن الجيش نزل إلى الشوارع ، وأنه سيطر على الموقف .

وأثناء وجودي بالقطار المتجه إلى العريش لأعود لوحدي بعد الإجازة كان لقاء بالصدفة في أحد صالونات القطار بصلاح سالم وعبد الحكيم عامر - وكانا يعملان برئاسة القوات المصرية برفح - وتحدثنا مع لقيف آخر من الضباط عن أحداث حريق القاهرة ، وكان حديثاً عاصفاً انعكست فيه مشاعرنا المكبوتة .

وفجأة دخل علينا ضابط مخبرات اللواء وكنا نعرفه ونعرف ولائه الكامل للسلطات الحاكمة مهما كان لونها أخذ يبحث - وهو واقف بالباب - عن مكان يجلس فيه معنا . وفجأة أيضاً صممتنا جميعاً في وقت واحد وأخذنا ننظر له في عدم ترحيب بوجوده معنا ، ولحسن الحظ لم يكن هناك مكان له ولم يرد أحد الجالسين أن يفسح له مكاناً بجانبه ، وعاد وأعطانا ظهره بعد أن أغلق الباب علينا وأخذنا - بعد أن غادرنا - نضحك في نفس واحد .

وللأسف ، فإن هذا الضابط استطاع أن يحصل - فيما بعد - على ثقة مجلس قيادة الثورة ، وتبوأ مراكز حساسة جداً .

انتخابات نادي الضباط

كانت لائحة نادي ضباط الجيش حتى آخر عام ١٩٥١ تقضى بأن يعين رئيس مجلس الإدارة والأعضاء بحكم مراكزهم في الجيش ، وكانت تسخر إمكانيات نادي الضباط في غير صالح القاعدة الكبيرة من الضباط علاوة

على إقامة الحملات الساهرة في المناسبات الملكية من ميزانية النادي
(صحيفة اشتراكات الضباط) .

ومنذ منتصف عام ١٩٥١ كان الجو العام في البلاد مشحوناً بالسخط
على الملك وحاشيته وعلى سياسة البلاد المستسلمين لإرادة الملك وكان الجو
السياسي مشحوناً بالتحفز الشعبي خصوصاً أثناء المقاومة بالقتال . وكان
الملك يستعين لفرض إرادته وتهديد خصومه و اغتيالهم بزمرة من ضباط
الجيش المغامرین ، أطلق عليهم اسم الحرس الحديدي وهم : الدكتور
يوسف رشاد ، و ، يوسف حبيب وخالد فوزي ،
وعبد السلام ، ومصطفى كمال صدقي ، وحسن فهمي
عبد المجيد . سيد جاد عبد الله سالم .

ويلعب دور في هذه المنظمة الإرهابي أنه عندما اختلف الملك مع
أحد أفراد الحرس الحديدي ، الضابط عبد القادر طه قام الحرس
الحديدي باغتيال هذا الضابط بأوامر الملك . تلاقي السخط العام مع
نفوس الضباط الثائرة ، فتمت القائمة مقام أركان حرب رشاد مهنا مناسبة
موعد تجديد مجلس إدارة الجيش ، والتي جرت العادة على
تجديدها بالتعيين ، وفيها معنى التحدي لتصرفات
الملك ، تعبيراً عن حاشية بصفة عامة ، وفي الجيش بصفة
خاصة . وتصدى رشاد مهنا بعد ذلك التعيين في مناصب مجلس الإدارة ،
منذ منتصف عام ١٩٥١ في الدعوة وسط زملائه من الضباط للمطالبة
بإجراء تعديل لللائحة بحيث تصبح جميع مراكز مجلس إدارة النادي بها فيها
مركز الرئيس بالانتخاب من جمعية عمومية أعضاؤها جميع ضباط الجيش
أعضاء النادي كالمعتاد في كل نوادي الهيئات . واستطاع رشاد مهنا بعلاقاته

الواسعة ، واتصالاته بضباط مختلف الأسلحة والوحدات من عقد اجتماع
بنادى الضباط بعد منتصف عام ١٩٥١ .

اجتماع بنادى الضباط

قبل هذا الاجتماع بعدة أيام وصلتني تعليمات شفوية من مجموعة
الضباط الوطنيين السرية التى أنتمى إليها بضرورة حضور اجتماع فى نادى
الضباط فى ميعاد محدد للبحث فى موضوع تغيير لائحة النادى والدعوة إلى
اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط .

وحضر عدد كبير جداً من الضباط الشبان وكانت النفوس جاهزة
للتفاعل مع أى دعوة لإظهار التحدى المعبر عن السخط العام وسيطر
رشاد مهنا على الاجتماع وكان ملخص كلامه أن نادى الضباط يجب أن يكون
لخدمة الضباط وليس لغيرهم ، ويجب أن يديره ضباط يمثلون مختلف
الأسلحة وبرايراتهم . لذا يجب تغيير اللائحة ليمكن انتخاب مجلس إدارة
يمثل ضباط الجيش تمثيلاً حقيقياً . وأن تكون هذه الانتخابات بإرادة
الضباط وليس بإرادة آخرين أو بالتعيين .

التهديد

بعد أيام من الاجتماع السابق اتصل ضابط
إسماعيل فريد (وكان له علاقة بالقصر الملكى
الملك غير راض عن الاجتماع الذى
موضوع الاجتماع والدعوة لل
الجيش ورئيس إدارة الجيش
الاجتماع قبل انعقاده .

وتأكد إسماعيل فريد والذي يمت للعائلة المالكة بصلة من علم رئيس هيئة أركان حرب ورئيس إدارة الجيش وسأل رشاد مهنا عن الحل لهذا الموقف فأجاب رشاد مهنا ان الحل يتلخص ببساطة في التصديق على اجتماع الجمعية العمومية وإجراء الانتخابات .

إجتماع الجمعية العمومية

أصدرت إدارة الجيش كتاباً دورياً بدعوة الجمعية العمومية لنادى ضباط الجيش فى الساعة الخامسة من مساء يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ بقاعة السينما الصيفى بقتلاق العباسية . حضر حوالى ٤٥٥ ضابطاً ، وهو أكثر من العدد القانونى الذى يقتضيه اجتماع الجمعية العمومية (أكثر من ١٠ ٪ من مجموع أعضاء النادى من الضباط) . كان رئيس إدارة الجيش ورئيس هيئة أركان حرب عثمان المهدي باشا خارج قاعة الاجتماع ، وبها على رشاد مهنا بعدم اعتلاء المنصة لأمر ما . وكان يدير الجلسة رئيس وأعضاء مجلس الإدارة السابق والمعنيين . وكثر الجدل حول اقتراح تعديل اللائحة وكاد الاجتماع يفشل لولا أن طالب رئيس هيئة أركان حرب من رشاد مهنا باعتلاء المنصة وانقاذ الموقف ، وسيطر رشاد مهنا على الموقف حيث اقترح فى الحال ومباشرة ، عرض مشروع اللائحة الداخلية المقترحة ، وقرأها ، وكانت تتضمن صراحة على ضرورة إجراء الانتخابات ، وعرضها للتصويت وحازت على الموافقة بأغلبية الأصوات وبالتصفيق المتواصل من أغلبية الضباط الحاضرين . وقام أحد ضباط سلاح الحدود والذي كان يقوده حسين سرى عامر عميل القصر الملكى وطالب بضرورة تمثيل الحدود بعضو فى مجلس الإدارة الجديد وعارض رشاد مهنا بحجة أن سلاح الحدود يجمع ضباطاً متدينين من مختلف الأسلحة التى لها أماكن فى مجلس الإدارة .

وعرض رشاد مهنا هذا الاقتراح للتصويت ورفض الاقتراح بالأغلبية أيضاً .
ثم انتقل رشاد مهنا مباشرة إلى عملية الانتخابات وتمت .
وكان أول اجتماع لمجلس إدارة النادي الجديد في أوائل يناير ١٩٥٢ وفي
هذا الاجتماع تم اختيار وانتخاب رئيس وأعضاء المكتب التنفيذي لمجلس
الإدارة وكان كالاتى :

أميرالاي أركانحرب حسن حشمت نائباً للرئيس ، بكباشى عبد الرحمن
أمين سكرتيراً عاماً ، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد سكرتيراً
مساعداً ، يوزباشى بحرى أحمد عبد الغنى مرسى سكرتيراً مساعداً ،
يوزباشى أمين شاکر سكرتيراً مساعداً ، بكباشى أركانحرب مهندس
إبراهيم فهمى دعبس أميناً للصندوق .

وفي نفس الجلسة اتفق مجلس الإدارة على البدء في اتخاذ إجراءات من
شأنها أن تشعر القاعدة العريضة من الضباط الذين يرتادون النادي بأن
هناك تغييراً شاملاً حدث في خدمات النادي حتى تكون معبرة عن مطالب
الضباط وليس للقلة حتى تستعاد الثقة من الضباط في قادتهم وحتى يقبلوا
على ارتياده ، لتتسع دائرة التقارب والتعارف بين مختلف ضباط الأسلحة .

ثم قام أعضاء مجلس الإدارة بالذهاب إلى قصر عابدين وقيدوا أسماءهم
في سجل التشریفات بمناسبة انتخابهم وكان الهدف هو تأجيل الصدام مع
الملك .

رشاد مهنا وتنظيم جمال عبد الناصر

اجتمع رشاد مهنا مع تنظيم جمال عبد الناصر في منزل مجدى حسين
بعبايدین ، قبل انتخابات نادى الضباط وحضر الاجتماع كل من زكريا

عفى الدين وجمال سالم وحسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى . وكان رشاد مهنا مستمعاً فقط ، واقترح عليهم - لاختبار مدى سخط الضباط على الملك وحاشيته - أن يتصافر جميع الضباط للتركيز على عملية انتخابات نادى الضباط وبذلك يمكن إثبات قوة تنظيم الضباط في مواجهة الفساد الملكى ، واقترح أن يتفق الجميع على إنجاح محمد نجيب ليكون رئيساً لمجلس إدارة النادى وهو المنافس لحسين سرى عامر قائد الحدود ومرشح الملك ، وبذلك يظهر الضباط تحديهم لإرادة السراى . وفى أحد الاجتماعات بعد نجاح عملية الانتخابات أبلغهم أنه طلب نقل نفسه للعمل بمحطة العريش لأنه هناك سيتمكن من الاتصال بأكبر تجمع لضباط الجيش فى العريش ، والذي يمثل القوة الأساسية للجيش المصرى بهذه المحطة ، كما أنه بوجوده فى العريش سيجنب المتصلين به من الضباط أخطار الاشتباه فيهم لأنه سبق اعتقاله ، وليروز نشاطه المتزايد فى عملية انتخابات نادى الضباط وفعلاً أجيب رشاد مهنا إلى طلبه ونقل للعمل بالعريش ولكنه دام على حضور جميع اجتماعات مجلس الإدارة .

فرض عضو عن سلاح الحدود

فى يناير سنة ١٩٥٢ اجتمع مجلس إدارة النادى اجتماعاً طارئاً ، دعا إليه رئيس المجلس محمد نجيب لعرض خطاب صادر إليه فجأة من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش فيه تحد صارخ لما أجمع عليه ضباط الجيش ومخالفات لقانون النادى . ينص الخطاب على ضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو فى مجلس إدارة النادى بحجة أن سلاح الحدود أصبح سلاحاً قائماً بذاته ، وأن ضباطه أصبحوا من قوة فعلاً ورغم أن الجمعية العمومية فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ كانت قد قررت خلاف ذلك . وبالمناقشة قرر مجلس الإدارة أن

خطاب رئاسة هيئة أركان حرب يعتبر مخالفاً لنص المادة ٨ باللائحة المصدق عليها من الجمعية العمومية ، ولذلك اقترح مجلس الإدارة الموافقة على تعيين عضو من سلاح الحدود كمستمع فقط ، وليس له صلاحيات العضوية في مجلس الإدارة ، على أن يعرض الأمر برمته على جمعية عمومية غير عادية يدعو لها مجلس الإدارة . وفعلاً تم تحديد موعد في فبراير سنة ١٩٥٢ ولكن نظراً لأحداث حريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وما تبعه من طوارئ فقد تأجل ميعاد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية إلى وقت لاحق .

استقالة سكرتير عام النادي

في أوائل فبراير سنة ١٩٥٢ انعقد مجلس إدارة النادي وقدم عبد الرحمن أمين في هذا الاجتماع استقالة من مركز سكرتير عام مجلس الإدارة ، وقبلت استقالته في نفس الجلسة وتم ترشيح البكباشي ابراهيم حافظ عاطف قائد مدرسة المساعدة الجوية حيثذاك لمركز سكرتير مجلس إدارة النادي . ووافق المجلس عليه وأصبح سكرتيراً عاماً واستمر عبد الرحمن أمين عضواً عادياً بالمجلس .

ومساء يوم ١٦ يونيو سنة ١٩٥٢ (في شهر رمضان) بنادى الضباط بالزمالك تم اجتماع الجمعية غير العادية والتي دعاها مجلس الإدارة ، وافتتح الجلسة البكباشي ابراهيم حافظ عاطف ، ثم ترك المنصة إلى القائم مقام أركان حرب رشاد مهنا ليقوم بأعمال مقرر الجلسة .

وأعلن رشاد مهنا عن الغرض من هذا الاجتماع غير العادي ، وهو طرح موضوع تمثيل سلاح الحدود بمصر في مجلس الإدارة ، طبقاً لخطاب رئاسة هيئة أركان حرب وأشار في نفس الوقت إلى أنه كان قد سبق واتخذت الجمعية العمومية قراراً في ٣١ / ١٢ / ١٩٥١ بعدم جواز تمثيل سلاح الحدود في

مجلس الإدارة لأن ضباط الحدود متدربون من الأسلحة المختلفة في مجلس الإدارة ، ومازالوا على هذا الوضع حتى صدور خطاب رئيس هيئة أركان حرب ، ثم فتح باب المناقشة ، وكان أول المتحدثين المهندس جمال علام حيث استهل كلامه بالمطالبة بالوقوف حداداً على روح الشهيد عبد القادر طه (رغم أن عبد القادر طه كان من ضباط الحرس الحديدي الذي شكله الملك فإنه عندما اختلف مع الملك أمر باغتياله على أيدي الحرس الحديدي نفسه . وكانت هذه المعلومات معروفة في وسط الضباط) ووقف جميع أعضاء مجلس إدارة النادي وجميع الضباط المجتمعين حداداً . تعبيراً عن تحدى المجتمعين - الممثلين لجميع ضباط الجيش - للملك وأعوان الملك بالجيش خاصة وبالبلاذ بصفة عامة . ثم تلاه من المتكلمين عبد المنعم أمين ثم مجدى حسنين وآخرون والكل كان يؤيد رفض خطاب رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، ويعارضون تمثيل سلاح الحدود في مجلس الإدارة بأحد الأعضاء . حاول ضباط من السلاح البحري (أنور عبد اللطيف ومعه مجموعة أخرى من السلاح البحري) وإيعاز ملكي الانسحاب ، وأفهمهم رشاد مهنا بأن خروجهم أو استمرار وجودهم سياتى ولا يغير فى الأمر شيئاً حيث أنهم مقيدون فى دفتر الحضور وفى محضر الجلسة قبل بدء الاجتماع . وحتى إذا لم يصوتوا فإن هذا لا يؤثر على رأى الأغلبية .

ثم عرض مقرر الجلسة - رشاد مهنا - قرار رئيس هيئة أركان حرب للتصويت ، ورفض المجتمعون القرار بأغلبية الأصوات ، وانتصر الحق على الباطل ، وسقطت محاولة القصر لتمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس الإدارة .

وفى مواجهة قرار الجمعية العمومية غير العادية برفض قرار رئيس هيئة أركان حرب ، والذي كانت تصاحبه الرغبة الملكية لتحدى ضباط الجيش ،

وانتقاماً من مجلس إدارة النادى ، أخذ قادة الجيش الموالين للقصر فى ممارسة ضغوط على أعضاء مجلس الإدارة كل على حدة ، لإرغام أكبر عدد ممكن منهم على تقديم استقالة من مجلس الإدارة حتى تصل الحال إلى أن يفقد مجلس الإدارة صلاحيته القانونية ، ويضطر لأن يحل نفسه بنفسه .

وبالفعل ، بعد مرور عدة أيام تقدم كل من المذكورين بعد ، من أعضاء مجلس إدارة النادى باستقالاتهم من عضوية مجلس الإدارة كل على حدة وبالتالى :

(١) أميرالاي حسن حشمت نائب رئيس مجلس إدارة النادى ورئيس المكتب التنفيذى (كان من أعوان الملك) (٢) يوزباشى بحرى أحمد عبد الغنى مرسى عن البحرية (٣) أميرالاي صيدلى عياد صليب الخدمات الطبية (٤) قائم مقام بحرى أنور عبد اللطيف عضو البحرية ومدير مكتب القائد العام حيدر باشا (٥) يوزباشى يحيى الحرية إمام العضو المعين عن الحاشية العسكرية بالإضافة إلى بكباشى أركان حرب مهندس ابراهيم فهمى دعيس عن المهندسين (وكان قد استقال من قبل ذلك من عضوية المجلس وقبلت استقالته فى أحد الاجتماعات)

وخوفاً من وصول مثل هذه المعلومات المضللة إلى عضوى المجلس الموجودين بالعريش ، وهما القائم مقام أركان حرب رشاد مهنا . وقائد الجناح بهجت مصطفى فقد تطوع قائد الأسراب حسن ابراهيم بالسفر إلى العريش على أول طائرة حرية واتصل بهما ، وأعلمهما أن مجلس الإدارة ، سوف يصمد لكل الضغوط رغم استقالات بعضهم . ولما لم تنجح ضغوط قادة الجيش فى التأثير على أغلبية أعضاء مجلس الإدارة لتقديم استقالاتهم ، فقد قام الأميرالاي حسن حشمت عضو الفرسان المستقيل

بالإتصال بباقي الأعضاء غير المستقلين وجاوب اقناعهم بأسلوب يحمل معنى التهديد بضرورة تقديم استقالاتهم ، ورفض الباقون وبذلك بقي مجلس الإدارة رغماً عن إرادة القصر ، وقادة الجيش وكان الباقون هم :

اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش ، قائم مقام أركان حرب رشاد مهنا ، بكباشى ابراهيم حافظ عاطف ، بكباشى ابراهيم محى الدين ، بكباشى حمدى عبيد ، صاغ جمال حماد ، قائد جناح بهجت مصطفى ، قائد أسراب حسن ابراهيم السيد ، قائم مقام عبد الرحمن فوزى ، بكباشى عبد الرحمن أمين ، يوزباشى أمين شاکر ، بكباشى عبد العزيز الجمل ، بكباشى متقاعد جلال ندا .

حل مجلس إدارة نادى الضباط

في حوالى منتصف يوليو سنة ١٩٥٢ وفي الساعة الواحدة ظهراً ، اتصل بالقائم مقام محمد توفيق عابد أركان حرب قسم القاهرة بالبكباشى ابراهيم حافظ عاطف سكرتير مجلس إدارة النادى وكان قائداً للمدرسة المدفعية المضادة للطائرات . وطلب منه أن يقابل اللواء أركان حرب على نجيب (شقيق اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش المنتخب) وكان يشغل قيادة قسم القاهرة ، وذلك في مبنى نادى ضباط الجيش بالزمالك في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . ولم يذكر السبب . شك البكباشى ابراهيم عاطف في الأمر ، وتقصى عن السبب من عدة جهات ، وعلم أنه قد صدر قرار من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش بحل مجلس إدارة نادى الضباط المنتخب في أول يناير سنة ١٩٥٢ فاتصل بالطيار حسن ابراهيم مساعد سكرتير النادى وأبلغه الخبر ، واتفقا على المقابلة بالنادى بالزمالك في الثالثة بعد الظهر ، قبل موعد مقابلة اللواء على نجيب . وعلم من حسن

ابراهيم أن هناك إشارة تليفونية لجميع الوحدات تقضى بعدم مغادرة الضباط معسكراتهم ظهر هذا اليوم إلى حين صدور أوامر حيث أن رئاسات الجيش العليا ستمر على الوحدات والمعسكرات . قام ابراهيم حافظ عاطف بتبليغ اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة النادى المنتخب بالخبر والاستدعاء والسبب هو قرار الحل وطلب نجيب من ابراهيم عاطف أن ينتظر إلى جانب التليفون حتى يستفسر عن حقيقة الخبر . ثم عاود الاتصال به وأكد صحة قرار حل مجلس إدارة النادى وأشار على سكرتير النادى ابراهيم حافظ عاطف بالتصرف كما يترأى له .

وصل ابراهيم حافظ إلى النادى هو وحسن ابراهيم فى الثالثة ظهراً . وحضر بعد ذلك اللواء على نجيب ومعه مجموعة من كبار الضباط هم الأميرالاي محمد حسنى والأميرالاي جلال صبرى ، والقائمقام مصطفى كمال عبد الرازق والبكباشى يوسف العجرودى والصاغ حافظ صدقى وقائد الأسراب على صبرى وضابط من البحرية وغيرهم وقام على نجيب باستدعاء ابراهيم حافظ وقال له انهم حضروا لاستلام النادى بأوامر من جهة عليا . دارت مناقشة بين ابراهيم حافظ عاطف وبين على نجيب انتهت بأن قال ابراهيم حافظ عاطف بأنه لا توجد أى جهة عليا تمتلك حق حل مجلس الإدارة المنتخب إلا عن طريق اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط أعضاء النادى لأن هذه الجمعية هى التى انتخبت المجلس الذى يريدون استلام أعماله . كان هناك فى هذه المقابلة بعض التهديدات من بعض أعضاء اللجنة المرافقة لعلى نجيب ، ولكن الأغلبية كانت محرجة ، وعلى وجوههم علامات الأسى . استمرت المناقشة إلى قرب ميعاد الغروب وبدأ الضباط يفدون على النادى ، فأجل على نجيب الحديث إلى موعد آخر ولم يجر أى تسليم أو تسلم وانتهت المقابلة .

في الصباح الباكر من اليوم التالي اتصل اللواء محمد نجيب بإبراهيم حافظ عاطف في المنزل تليفونياً ، وأبلغه أن جميع المعلومات عن حل مجلس إدارة النادى وصلته ، وأخطره بأن ينفذ التعليمات بالتسليم وأوصاه بمقابلة شقيقه على نجيب بقسم القاهرة ، واتصل إبراهيم حافظ عاطف بالطيار حسن إبراهيم وأبلغه بيا دار بينه وبين محمد نجيب .

قابل إبراهيم عاطف على نجيب بمكتبه على انفراد ، وقال له على نجيب ان جميع اعتراضاته في اليوم السابق قد بلغت إلى الجهات العليا وأبلغه أن رئيس هيئة أركان حرب ، اللواء حسين فريد كان موقفه مشرف جداً بالنسبة لإبراهيم حافظ عاطف ، وكان يدافع عنه كأحد أبنائه .

قال على نجيب لإبراهيم عاطف « ان الموقف بأكمله ما هو إلا عاصفة يجب أن نميل معها حتى لا ننكسر وبعد أن تمر العاصفة يمكن استعادة الموقف » ، واتفق معه على لقاء في النادى يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ (قبل الثورة بعدة أيام) ليتسلم أعمال مجلس الإدارة . وفي اليوم المتفق عليه (١٨ / ٧ / ١٩٥٢) حضرت اللجنة السابق ذكرها عدا قائد الأسراب على صبرى ، وتم تسليم أعمال مجلس الإدارة لهذه اللجنة .

لقاء مع أنور السادات

كانت وحدتى الكتبية التاسعة مشاة في العريش وفي أول شهر يوليو سنة ١٩٥٢ - وكنت في مأمورية بالقاهرة - حضر أنور السادات إلى كتيبتى بالعريش وكان يعمل بسلاح الإشارة في رئاسة القوات في رفح . وسأل عنى أركان حرب الكتبية . وحيث أنى لم أكن أعرفه قبل ذلك ، فقد خمنت بواعث سؤاله عنى وهو بالقطع سبب سياسى وتظاهرت لأركان حرب الكتبية أنى أعرفه .

ذهبت إلى رفح لمقابلته وتعارفنا في سرعة ، وخرجنا في العراء . وأثناء السير أفهمنى أن لديه أوامر باليقظة في هذه الأيام ، لأن أحداثاً كبيرة سوف تحدث في الجيش والبلد . وطلب منى بناء على أوامر صدرت له (لم يفصح عنها) أن أعاد الاتصال بمن أثق فيهم من الضباط في وحدتى أو غيرها بالعريش وأن أعطى معظمهم هذا التحذير . فعلاً قمت بهذا الاتصال ، واتصلت بهم كل على انفراد .

لقاء مع جمال سالم

في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ صباحاً أبلغت وأنا بالعريش عن طريق ضابط وسيط من تنظيم القاهرة (الضباط الأحرار) بضرورة الذهاب مساء نفس اليوم إلى محطة العريش ، في موعد وصول القطار القادم من القاهرة لنقابل هناك جمال سالم القادم بالقطار من القاهرة بتعليمات . وفى المحطة وجدت عدداً غير قليل من الضباط وكان من ضمنهم عدد من أعرفهم جيداً ، وكلهم فى الانتظار ولما وصل جمال سالم خرج معنا خارج المحطة وانتحى جانباً بعلى شفيق صفوت ، وذهب هو إلى حال سبيله ، وعاد لنا على شفيق صفوت ويعد أن تأمل وجوهنا جيداً قال إن الميعاد المنتظر سيكون قبل مرور يومين على الأكثر .

وعلاً ، قامت حركة الجيش وفى صباح ٢٤ يوليو استلم قيادة كتيبتى التاسعة البكباشى سعد متولى وتم ترحيل القائد السابق القائم مقام سليم عبد الرؤوف بكل تقدير واحترام إلى القاهرة . وأرسل سعد متولى يطلب الضباط الوطنيين بالوحدة وكانوا ثلاثة هم حسن خليل وفتحي أحمد سليمان ومراد خليل ، ولكن الواقع أن جميع باقى زملائى من ضباط بالكتيبة كانوا على نفس مستوانا وأكثر من الوعى الوطنى .

ثم قامت الثورة

في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ميعاد الثورة بيوم تم الاتفاق بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع المهندس (الصيانة) جمال علام على أن يتقابل جمال علام . . مع أحدهما في تمام الساعة ١١ مساء يوم ٢٢ يوليو على الكوبرى المقابل لبوابة الفرسان ليضجبه إلى سلاح الفرسان ؛ ليتسلم جمال علام من هناك قوة يتوجه بها إلى مبنى السنترال الرئيسى للتليفونات بشارع الملكة نازلى للسيطرة عليه وقطع جميع الاتصالات التليفونية قبل أن تحتل قوات زميلهم يوسف منصور صديق مبنى القيادة العامة المحدد لها منتصف الليل .

وذهب المهندس جمال علام في الموعد والمكان المحددين . . وانتظروا أن يحضر أحد منهما حتى الحادية عشرة والنصف فتوجه إلى بوابة الفرسان بملابسه العسكرية ، ولما اعترضه جنود الحراسة تشاجر كلامياً معهم ويصوت عال ليسمحوا له كضابط بالمرور وسمع صوته زميل الكفاح الضابط آمال المرصفى وكان موجوداً بغرفة حراسة البوابة فسهل له عملية الدخول . وعلم من زميله آمال المرصفى أن يوسف منصور صديق اختلط عليه ميعاد التوقيت وبادر بالتحرك قبل الموعد بساعة وأمكنه لحسن الحظ السيطرة على مبنى القيادة العامة في تمام الساعة الحادية عشرة مساء وليس الثانية عشرة

وقد لعبت الصدفة دورها ، لأن قادة الجيش كانوا قد تلقوا تعليمات من حيدر باشا وزير الحربية من الإسكندرية بالتوجه إلى مركز قيادة الجيش للسيطرة على الموقف . وكانوا قد وصلوا لتوهم قبل وصول يوسف منصور صديق وقواته بدقائق ، ويادر يوسف منصور صديق بالسيطرة على القيادة واعتقل جميع قادة الجيش قبل الميعاد بساعة وفي مكان واحد مما سهل من مشقة مأمورية القبض عليهم متفرقين في منازلهم . . . وعلم المهندس جمال علام السبب في عدم حضور عبد الناصر وعبد الحكيم عامر له حسب الاتفاق لأن الثورة كانت قد سيطرت تماماً على القيادة ، وأصبح مطلوباً لها بشكل حيوى ضمان استمرار الاتصالات التليفونية لا قطعها وذلك لإتمام السيطرة على كل شيء ، وانتظر جمال علام بميس الفرسان . . . وحضر عبد الحكيم عامر وانضم إلى حسين الشافعى وثروت عكاشة ، وعلم من اتصالاتهم بأن قوة المدرعات التى اتجهت إلى الإذاعة بشارع الشريفين قد تمكنت من السيطرة على الاستديوهات فى تمام الثالثة والنصف صباحاً . . . لضمان إذاعة بيان الثورة الأول بعد قراءة القرآن فى الصباح .

وسأل المهندس علام عن مدى سيطرة الثورة على محطة الإرسال الرئيسية فى أبى زعبل لأنها أهم من السيطرة على الاستديوهات . وعلم أن خطة الثورة أغفلت أمرها . . . ولشدة حيويتها بالنسبة لضمان الإرسال حيث أن احتلال الاستديوهات فقط بشارع الشريفين لا يحقق أى شيء دون السيطرة الكاملة على محطة الإرسال فى أبوزعبل ودون إهمال .

توجه المهندس جمال علام مع مجدى حسنين واثنان من تروپ مدرعات إلى أبوزعبل . وهناك علموا أن أوامر وزير الداخلية مرتضى المراغى قد صدرت للمسئول عن المحطة بانتزاع أجزاء منها لتعطيل الإرسال ، وأمكن

بالتفاهم مع المهندسين المقيمين الجارحي القشلاق وعلى اسماعيل إعادة الأجزاء المتزوعة واستعادة الإرسال وبعد عشر دقائق أخرى انقطع التيار الكهربائي كله عن المنطقة وبالتالي توقف الإرسال ، وتوجه جمال علام مع مجدى حسنين مع قوة المدرعات إلى محطة توليد القوى . . وكانت على بعد خمسة كيلومترات فقط ، وتحت تهديد المسؤول بها أعيدت للعمل ، وكانت قد صدرت له الأوامر أيضاً من وزير الداخلية بتعطيل المحطة « ورب صدفة خير من ميعاد » .

ولذلك صدر بيان الثورة الأول ثم توالى البيانات بعد نجاح السيطرة الكاملة وبعد أن لعبت الصدف دوراً كبيراً .

قرار الثورة التاريخي

كان هناك وضوح رؤيا لضباط الثورة . بعد حل مجلس إدارة نادى الضباط ، خاصة بعد استقالة حسين سرى ووقوفهم على أسبابها وشعروا أن الدائرة تضيق حولهم ، وأنهم أصبحوا فى موقف يملئ عليهم الاستسلام لتصرفات الملك الرعناء التى قد تودى برقابهم إلى المشنقة ، أو التحرك السريع ، وبالأذات ، بعد أن علم الضباط الأحرار من أحد ضباط جهاز المخابرات العسكرية أن هناك كشفاً مدوناً به معظم أسماء التنظيم السرى للضباط الثوريين ، وأحيط به الملك علماً . فكان القرار الحاسم بالاستيلاء على رئاسة الجيش ، واعتقال قيادات الجيش بالقاهرة ، واحتلال الإذاعة ، وإذاعة البيان الأول للثورة .

وبعد السيطرة الكاملة على الجيش ، واستقالة وزارة نجيب الهلالي من تلقاء نفسها . . تابعت الأحداث فى سرعة مذهلة . وفرض رجال الثورة على الملك مطالب أدت إلى تشكيل أول وزارة بعد الثورة برئاسة على ماهر

باشا ، وعزل جميع رجال الحاشية . وفي ٢٦ يوليو وجهت الثورة إنذاراً إلى الملك بوثيقة من الفريق أركان حرب محمد نجيب ، تطالبه بالتنازل عن العرش ، وقد استمعت إليه في مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وأنا لا أزال بالعرش مع الزملاء بميس الضباط بما يحويه من تفاصيل الأحداث ، فطلب التنازل عن العرش ، ثم أعقب ذلك موافقة الملك على التنازل عن العرش

.. ومملت في المخابرات

في مساء ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ صدرت النشرة العسكرية للتنقلات ووصلت وحدتي إشارة تفيد نقل إلى المخابرات العسكرية . هنأني القائد الجديد سعد متولى ، وسافرت إلى القاهرة بعد يومين أمضيت منها ليلة برفح ، وأخرى بغزة . قضيتها مع الصديق وزميل الكفاح محمد هاشم حسين قائد مخابرات غزة .

وفي صباح ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٢ توجهت إلى مقبر عملى الجديد في المخابرات الحربية بكوبرى القبة وكان زكريا محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة هو أول مدير لها بعد الثورة .

أحطت علماً بملخص الموقف السياسى . وواجب المخابرات الحيوى فى الأيام الأولى للثورة من السيد زكريا محيى الدين وكان ملخصه « أنه مع مقتضيات الثورة أصبح جهاز المخابرات الحربية مسئولاً عن تأمين العمل السياسى للثورة داخلياً وخارجياً . وكان أهم هذه الواجبات هو اتخاذ الخطوات الإيجابية للعمل على التخلص من الاستعمار البريطانى وأعدائه والقيام فى نفس الوقت بالعمل التكتيكى البحت والرئيسى فى مواجهة النشاط العسكرى الإسرائيلى .

عملت عند بدء تعيينى فى المخابرات فى قسم الأمن فرع مكافحة الشيوعية ، وفوجئت فى بداية عملى ببقايا أشكال التبعية للبريطانيين داخل جهاز المخابرات نفسه .

إيقاف التبعية

ففى أحد الأيام الأولى من عملى بالمخابرات كنت موجوداً بمكتبى عندما حضر أحد كبار ضباط المخابرات وكان يعمل بها من قبل الثورة (والسبب فى الإبقاء عليه بعد الثورة أنه كان يتصل بالضباط الأحرار ويحذرهم أول بأول عما يصل الجهاز من معلومات عنهم) . فأعطاني كمية من التقارير باللغة الإنجليزية مكتوبة على ورق خفيف ، ملون وبالألة الكاتبة . . . كلفنى بدراستها ووضع الرأى عن كل تقرير على حدة . . . عكفت على هذه التقارير ووجدت بكل ورقة منها معلومات عن شخصية مصرية ، وعن علاقاتها . وكانت جميع التقارير عن شخصيات لها صلة بالشيوعية الدولية . استوقفتنى اسم أحد الصحفيين المصريين المشهورين وكان يقيم بألمانيا هرباً من اضطهاد الملك السابق وهرباً من السلطات المصرية . كانت معلوماتى عن هذا الشخص قد تكونت من خلال المشاركة فى العمل الوطنى داخل تنظيمات الضباط ، وكانت معلوماتى أنه من الوطنيين المخلصين ، كثيراً ما تصدى فى كتاباته للظلم والفساد الملكى وتجاوزات السفارة البريطانية (هو الدكتور كمال الدين جلال) أثارنى الموضوع وأخذت أعيد قراءة جميع التقارير وأدقق فيها وفى معلوماتها التى أجمعت على اتهام الأشخاص موضوع التقارير بالنشاط الشيوعى الخطير ، وناقشت الزميل كمال رفعت ، وتم اختيارنا لعدة تقارير يسهل التحقق من المعلومات المدونة بها عن طريق ضباط المباحث العامة الجدد ، وعن طريق رجال وزارة الخارجية الذين عملوا فى البلاد التى يقيم بها بعض هؤلاء المتهمين بالشيوعية وجاءتنا المعلومات التى تؤكد أن جميع هؤلاء المتهمين بالشيوعية لهم نشاط ضد الاستعمار البريطانى ، ويعكس ما ورد بالتقارير فإن نشاطهم كان لصالح الوطن .

وقبل أن أعيد هذه التقارير للضابط الكبير بالمخابرات علمت بالصدفة ، في أحد الأيام ، أن الملحق العسكرى البريطانى يقوم بزيارة فى مكتبه فانتظرت حتى انتهاء الزيارة ، ثم دخلت عليه فى مكتبه وقبل أن أسلمه ما معى من التقارير .. أعطانى كمية جديدة من التقارير .. لها نفس مواصفات التقارير السابقة ، وكلفنى أيضاً بدراستها .. وأعطيته التقارير السابقة وقد دوت عليها ملحوظاتى التى تفيد بأن المعلومات التى وردت بها كلها مزيفة ومسدوسة ، وسألته إن كانت هذه التقارير والتى تسلمتها منه لتوى .. قد تسلمها من الملحق العسكرى البريطانى ... الذى كان يزوره قبل دخولى عليه .. فضحك وعند ذلك واجهته بشكوكى ، ورجوته بضرورة معالجة مثل هذه التقارير بمتهى الحذر .

وبعد عدة أيام من التحرى والاستقصاء ، علمنا أن هذا الضابط الكبير بالمخابرات .. كان مكلفاً بالاتصال بالملحقين العسكرين الأجانب ، ومن ضمنهم الملحق البريطانى .. وكان منذ ما قبل إلغاء معاهدة ٣٦ ، ومنذ سيطرة البعثة البريطانية على المخابرات المصرية والجيش المصرى ، يداوم شهرياً على إرسال يومية الحرب الخاصة بالجيش المصرى والتى تحتوى على أخطر المعلومات العسكرية السرية عن قوة الجيش العديدة ومعداته الصالحة للعمل ، والتى تحت الإصلاح ، والتالفة ، وما إلى ذلك من أسرار .. المفروض أنه محظور اطلاع أى أجنبى عليها . وكان يرسلها بطريقة رسمية ومستترة ودورية . وبطبيعة الحال فقد اتخذت الإجراءات اللازمة لوقف مثل هذه المهازل .

القطعة التى تأكل بنيتها

حادث عرضى حدث لى بعد اسبوعين على الأكثر من يوم ٢٣ يوليو وبعد أن استلمت عملى بالمخابرات . فقد اتصل بى يوماً بعد الظهر بالمنزل وأثناء

راحتى من العمل زميل الدراسة الثانوية والصدىء الدكتور أبو الفتوح البدوى . . وكان يعد نفسه وقتها لرسالة الدكتوراة من فرنسا ، وحضر لمصر عندما علم أن الثورة قامت . . حيث كان من الشباب الذين يساهمون فى العمل الوطنى أيام الدراسة الثانوية ، وكان من ضمن لجنة الطلبة بالمدرسة عن حزب الأحرار الدستوريين . استأذنت يومها من العمل بعد الظهر فى المخابرات ، وخرجت مع الصديق أبو الفتوح البدوى للتتزه والحديث كما كنا نعمل أيام الدراسة ، وجلسنا على شاطىء النيل خلف كازينو بديعة ، وطال بنا الحديث إلى ما بعد العاشرة مساء . وعند عودتى إلى المنزل وجدت على الباب عربة عسكرية وبها سائق من المخابرات . . بادرنى السائق بأن مدير المخابرات أرسله فى طلبى وإحضارى فى أى وقت . استبدلت ملابسى ، وارتديت البزى العسكرية ، وركبت معه إلى أن وصلنا لمبنى المخابرات ، ولكنه لم يدخل المبنى بل دخل مبنى مجلس قيادة الثورة وكان مجاوراً لمبنى المخابرات . تعجبت لمدة قصيرة واستتجبت بسرعة سبب هذا الاستدعاء بهذا الأسلوب ودخلت غرفة كبيرة بها طاولة مستطيلة ، وأثناء انتظارى — لدقائق — على انفراد استرجعت واقعة اجتماع فى منزلى تم بينى وبين جميع الزملاء السابقين من تنظيم الضباط الوطنيين ، حدث بناء على طلبهم فى منزلى قبل يومين ، وتناولوا فيه مأخذ على بعض أعضاء مجلس الثورة وبالذات ضد أنور السادات الذى كان يلتقى فى مكتبه بدار الإذاعة بعدد من ملوك الأحزاب القديمة . وبدأ يتوسط لهم كما كان يجرى فى دهاليز وكواليس الحكم قبل الثورة . . كما سجلوا مأخذ على تصرفات الثورة فى أنها تشغل نفسها بالكثير من توافه الأمور . . كانتداب أحد كبار ضباط الطيران (عبد الرحمن عيد العال) لمطاردة تجار الطماطم الذين يرفعون الأسعار وكان مندوب الثورة يجلدهم فى الشوارع والميادين مما يسىء إلى الثورة وكنت —

لخطورة الموقف - قد اقترحت على المجتمعين أن نسجل هذه المآخذ على شكل تقرير أوصله إلى مجلس الثورة حتى لا يؤول الاجتماع تأويلات أخرى . وفعلاً دوننا هذه المآخذ في ورقة وأخذتها معي في اليوم التالي ، وذهبت بها إلى مجلس الثورة وكان المجلس في اجتماع وأبلغت شمس بدران سكرتير المجلس بها حدث باختصار ، وبمتهى الصديق والضراحة ، وأعطيته التقرير المكتوب ليوصله للمجلس وانصرفت وصدق ظني فبعد فترة قصيرة حضر السيد زكريا محيي الدين وجلس على رأس مائدة الاجتماعات وأخذ يسألني عن هذا الاجتماع بطريقة جعلتني أشك في وصول تقريرى الأصلي لهم . وجاءت أسئلته بأسلوب فهمت منه أن شمس بدران قد أخفى التقرير وادعى أنه اكتشف بنفسه شبه مؤامرة عن اجتماعنا فرويت لزكريا محيي الدين (والذي كان يأخذ وضع المحقق) بطريقة ويتسلسل وتفاصيل الدعوة للاجتماع ، وما تم فيه وواقعة كتابة المآخذ في تقرير سلمته لشمس بدران وبه كل التفاصيل وأثناء هذا الحديث العاصف بيني وبين زكريا محيي الدين دخل إلى القاعة جميع أعضاء مجلس الثورة ، واحداً بعد الآخر ، والتفوا حول الطاولة وحولى أنا وزكريا محيي الدين . وكنت قد بدأت في الانفعال والرد بشئ من التوتر ، حيث كنت لا أتصور إطلاقاً أن يصل تدهور مستوى الرجولة والأخلاق إلى هذا الحضيض من شمس بدران والذي من المفروض أنه كان ينتمى إلى رجال الثورة ويبدو أن حديثي بهذا التسلسل وهذه الصراحة والانفعال الصادق أثر على بعض الحاضرين لأنه بعد فترة وجيزة امتلأت القاعة بكل أعضاء مجلس الثورة بما فيهم أنور السادات وسمعى وأنا أعدد المآخذ المسجلة عليه هو شخصياً .

وفي أثناء الحديث انفعال جمال سالم وأخذ يوجه لى ظلماً كلمات اعتبرتها غير لائقة فعنفته برجولة ، وكان لى به معرفة سابقة ، حيث كان صديقاً لأمين

الخشب قائد في السجن الحربي وكان كثيراً ما يحضر لزيارته وتعارفنا جيداً هناك قبل الثورة . وفجأة ، وبدون سابق معرفة لي به إطلاقاً انبرى كمال الدين حسين مدافعاً عني في حين كان عبد الناصر صامتاً لا يتكلم وكان واقفاً ويضع أحد رجليه على كرسي ومكتفٍ بالإنصات . وقال لهم كمال حسين يجب ألا تعطلوا الرجل أكثر من ذلك . وشدني من يدي وقال لي بعطف وأخوة ورجولة : مع السلامة يا عبد الفتاح ! .

وأنا في طريق العودة إلى المنزل استعدت الصورة كاملة وتنبهت فجأة إلى خطورة وحساسية تصرفات رجال الثورة في بادئ أيامها . ومربخاطرى مثل عن طباع الققط « كقطعة أكلت بنيتها » فالثورة هي القطعة . ومن شدة حرصها على أوضاعها وأسرتها تبدأ في التهام أبنائها كما أنني استوعبت ذلك الدور الحسيس الذي لعبه شمس بدران . وللأسف انه استمر مقرباً من النظام حتى صار وزيراً كبيراً مسئولاً عن أمن البلاد إلى أن حاقت الهزيمة بنا في ١٩٦٧ وكان هو أحد عناصرها الأساسية . منشورات ضد البرجوازية المصرية

بعد أيام قليلة من الواقعة السابقة . أرسل عبد الناصر في طلب المسئول عن النشاط الشيوعي في المخابرات ، وكنت أنا هذا الشخص في قسم الأمن بالمخابرات وطلب أن أحضر ومعى خبير الخطوط وأعداد من منشورات الضباط الأحرار ، والتي كان الزميل المرحوم كمال رفعت قد استولى عليها ضمن أرشيف القسم المخصوص (القلم السياسي بوزارة الداخلية) .

ذهبت وقابلت عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة ، وأخرج من مكتبه منشوراً أعطاه لي . . . وكلفني مع خبير الخطوط بمضاهاة هذا المنشور بخط

أى منشور للضباط الأحرار ، ومكثت مع خبير الخطوط فترة طويلة وهو يضاهي الخطوط ، ولكنه لم يجد أى منشور للضباط الأحرار مكتوباً بنفس ماكينة الكتابة المكتوب بها المنشور الذى سلمه لى عبد الناصر . بلغته النتيجة وانصرفت .

وعلمت - فيما بعد - من مدير مكتبه أن هذا المنشور الموجود مع عبد الناصر وزع على نطاق واسع شعبياً ، وكان كل ما جاء به هجوم على مجلس قيادة الثورة فى أيامها الأولى وهجوم على زمرة الضباط عندما يعملون بالسياسة واعتبرهم ممثلين للبرجوازية الصغيرة (طبقة صغار الرأسماليين المطلعة للرأسمالية) وأخذ يحذر الشعب من تصرفاتهم منذ قيام الثورة إلى وقت صدور المنشور وكان عبد الناصر يشك فى هذا المنشور أن يكون محرراً بمعرفة الأستاذ الدكتور راشد البراوى ، لأنه كان يعاونه قبل الثورة ، ولملاً بأسلوبه فى الكتابة ، وشك عبد الناصر أن تكون الآلة المكتوب بها المنشور هى نفس الآلة التى كان يستعملها الشيوعيون المتعاونون معه .

موقف الأحزاب

ناشدت الثورة الأحزاب إعادة تنظيم أنفسها وبرامجها ، ولما لم تستجب الأحزاب لنداء الثورة بل أخذت تشكك فى نوايا الثورة ، صدر قانون إعادة تنظيم الأحزاب مطالباً الأحزاب بتسجيل قيدها بشروط معينة مع تقديم برامجها الجديدة . وتقدم فعلاً ١٦ حزباً باخطارات تكوينها وبرامجها حتى ان الأستاذ فتحى الرملى اليسارى المعروف . . أخطر عن حزبه التقدمى فى ورقة تقدم بها بافتاحية عنوانها « مرحباً بالصعاليك » يرحب فيه باتاحة الثورة للكادحين فرصة المشاركة فى الحكم فى الوقت الذى وصفهم فيه نظام ما قبل الثورة بالصعاليك أما الأحزاب فقد عاودت هجومها على نوايا الثورة

والتشكيك فيها ، وصدر قرار مجلس الثورة باعتقال بعض قيادات هذه الأحزاب بعد أن ثبت عدم جدوى التعامل معهم .

مقابلة مع فؤاد سراج الدين

كلفنا قبل ذلك الوقت مع الزميل عيسى سراج الدين بمقابلة فؤاد سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد في معتقل : الثانوية العسكرية ، حيث تم اعتقال كثير من السياسيين ، بعد صدور قانون تنظيم الأحزاب ، كما قابلنا معه هناك شقيقه يسى سراج الدين وكانت مهمتى أن أسألهما عن أفكارهما حول مستقبل التنظيم الجديد لحزبهما ، وأن تركهما يتكلمان دون أن نناقشهما ونبدون أقوالهما كتابة . قابلناهما وتبادلنا الكتابة مع عيسى سراج الدين في جلسة مطولة ، وكانا في غاية المرح ، وسلمنا الحديث المدون كتابة لمجلس قيادة الثورة ، وكانت أفكار فؤاد سراج الدين بالذات لا تخرج عن نفس الأسلوب الحزبى القديم ، وأنه لا يمكن للحزب أن يسير بغيره هو والنحاس باشا وتحدث عن أخطاء ومواقف زملاء له آخرين بحزب الوفد .

وعلمت أن هذا هو نفس ما جاء على السنة باقى الزعماء السياسيين غير المعتقلين . . عندما قابلوا أعضاء مجلس قيادة الثورة . . كلا على انفراد ، وخرج مجلس قيادة الثورة بأن كل السياسيين القدامى كانوا يشهرون ببعضهم لسبب بسيط أنهم جميعاً كانوا مشتركين في هذه التجاوزات إما بالممارسة . . أو بالخضوع لها . . وكل منهم يحاول أن يوهم الثورة أنه الوحيد الذى يمكن أن يتعاون معها فى التكوين الجديد للأحزاب .

ويبدو أن هؤلاء الذين طعنوا بعضهم ، ولم يتقدموا ببرامج حقيقية لم يدركوا أن الثورة كانت تريد الحكم ، وما كان لها أن تسمح لأى منهم أن يلتصق بها ، وقد كان هذا النداء الثورى الحبل الذى أعطى هؤلاء الزعماء

لشنق أنفسهم بأنفسهم . ثم صدر قرار بحل الأحزاب والهيئات السياسية في ١٧ / ١ / ١٩٥٣ .

الاتفاق مع السودانيين

بدأت قيادة الثورة في الاتصال بجميع الطوائف والأحزاب في السودان منذ آخر عام ١٩٥٢ لمحاولة جمع كلمتهم لحل مشكلة السودان مع مصر وقبل البدء في مطالبة المستعمر البريطاني بالتفاوض . وفعلاً تم اجتماع بالقاهرة مع جميع الأحزاب السودانية . . ومع زعماء الطائفتين الرئيسيتين (المهديّة والختمية) وكان للدور الذي قام به رئيس مجلس قيادة الثورة محمد نجيب أثر ناجح في سرعة توحيد كلمة السودانيين أنفسهم .

وفي ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ ، تم توقيع اتفاقية السودان وبذلك انتهت الثورة من أول عائق في سبيل تحقيق الجلاء عن مصر .

عمليات المقاومة في القنالة

في سبتمبر سنة ١٩٥٢ بدأت مصر الترتيب للتمهيد لمطالبة البريطانيين بجلاء قواتهم كلية من الأراضي المصرية ، وذلك بتنظيم مقاومة في قاعدة القنال للضغط على بريطانيا لإرغامها على البدء في مفاوضات جادة من أجل تحقيق الجلاء الشامل . . بدأت السلطات المصرية بإصدار قرار بتكوين حرس وطني لأجل تحقيق أمانى الوطن مع احتمال استخدامه في المقاومة الشعبية ضد قاعدة القنال . كما تكون مكتب خاص للمقاومة في إدارة المخابرات بالقاهرة ضم كل من سعد عفره وكمال رفعت وعبد المجيد فريد (ضابط المخابرات والذي عمل بعد ذلك رئيساً لمؤسسة الأدوية) كان بهذا المكتب قسم للمعلومات وقسم للعمليات . أما أنا فقد تم نقل للعمل في مكتب مخابرات القنال في مدينة الاسماعيلية مع الزميل عمر لطفى والذي كان قائماً بالعمل بهذا المكتب قبل الثورة .

العنصر البشرى اللازم للمقاومة الشعبية

حيث إن العنصر البشرى هو أهم عناصر المقاومة الشعبية والكفاح المسلح ، فقد أمكننى ، عن طريق نواة من الفدائيين الذين عملوا سابقاً بالمنطقة بعد إلغاء معاهدة ٣٦ ، والتعرف على عناصر الإخوان المسلمين العاملين داخل المعسكرات بعد أن رفض قادة الجمعية في كل من السويس الحاج طاهر منير والاسماعيلية المرحوم الشيخ فرغلى وبور سعيد الحاج

عبده تاجر الأدوات الرياضية التعاون المفتوح معنا . وتم الاتصال بعناصر الفلسطينيين الذين يعملون بالأماكن الحساسة في المعسكرات والمكاتب والمنشآت البريطانية عن طريق الصديق الفلسطيني المجاهد « عليان المحتسب » وأيضاً بعض اليونانيين داخل المعسكرات . وبالتعاون مع المحافظين في المحافظات الثلاث ، وبواسطة ضباط المباحث العامة والجناية. أن نستعين بجميع الأفراد المحليين ممن احترقوا السرققات من الجيش البريطاني وأصحاب سوابق سرقات العربات والقطارات العسكرية فأمكننا بعد خضوعهم لتدريب بسيط اكتشاف معدنهم الوطني الأصل حيث عملوا معنا في المقاومة كفدائيين . كما اتصلنا بأحد أقطاب الإخوان بالمنطقة وكان زميلاً لجمال عبد الناصر في التعليم الثانوى بالإسكندرية وهو المهندس ذو الهمة الشرقاوى والذي - عرفنى به اخوانى - هو سعد وفا ناظر محطة أبو سلطان .

التعاون مع العناصر التى سبق اشتراكها فى كفاح عام ١٩٥١

تقدم لى عند وصولى إلى عملى بالاسماعيلية الشاب غريب محمد خضيرى (الشهير بغريب تومى) حيث كان دائم الالتصاق بالمدفع اليومى أثناء قيادته لفصيلة من شباب المقاومة بالاسماعيلية سنة ١٩٥١ وكان يعمل وقتها رئيس عمال فى شركة القنال وقدم لى عدداً كبيراً من زملائه الذين اشتركوا معه فى المقاومة سنة ١٩٥١ وكانوا خير نواة فى ابتداء العمل الإيجابى ضد الانجليز .

أول الغيث قطرة

وفى بداية عملى بمكتب مخابرات الاسماعيلية سمعت كثيراً ومن معظم المترددين على المكتب سواء المندوبين أو أصدقاء المكتب عن زعيم عصاة

مشهور ، ظل يزاول ، بعصابته الواسعة الانتشار في منطقة القنال منذ الحرب العالمية الثانية ، عمليات السرقة والنهب للمخازن البريطانية .

وكانت المعلومات تفيد بأنه قد جمع ثروة من هذه العمليات وزود عصابته بوسائل النقل اللازمة من عربات ولواري ، وأنه يدبر لهذه السرقات بالاتفاق أحياناً مع ضباط وجنود ومشرفي مخازن الجيش البريطاني أنفسهم برشوتهم بمبالغ سخية . هذا الرجل وإسمه « صبرى السروجي » كان أيضاً على علاقة صداقة وثيقة بضابط المخابرات البريطاني الشهير وليامز ، والذي كان يعطيه صبرى السروجي أجراً شهرياً ورشاوى عديدة ؛ لذلك حامت بعض الشبهات حوله ظناً بأنه يقوم بالتعاون مع البريطانيين أيام مقاومة عام ١٩٥١ ولكن لم تتمكن المباحث الجنائية من إثبات أى شيء ضده . وبدراسة شخصيته وسمعته الوطنية ، وجدت أنه ليس عليه أى مأخذ ، فاتصلت به وفي سرعة غير منتظرة أبدى استعداداً للتعاون ووجدته شاباً شديد الذكاء واللباقة . ودون تحفظ عرفني صبرى « السروجي » على شبكته الواسعة من أفراد عصابته ، وكانوا فعلاً نواة طيبة جداً في جميع العمليات منذ بدء المقاومة ضد البريطانيين كما ساعدت هذه الشبكة المدرية في سرعة البدء بتنظيم الكفاح المسلح ، ومن هذا الوقت لم أجرؤ على تسميتهم باللصوص إلا لضرورة الوصف في هذه المذكرات ولكنهم في الحقيقة كانوا نعم الوطنيون المصريون الذين لا يتخلفون عند الشدائد .

اختطاف الخائن كنج صبرى

لتأمين عملية العمل الفدائي والكفاح المسلح تمكنا من واقع ما هو مسجل عن الشخصيات التي سبق تعاونها مع البريطانيين أثناء الكفاح المسلح ١٩٥١ من اعتقال عدد كبير منهم من المنطقة وكان معظمهم يعمل

في الجيش البريطاني . وكان من أخطرهم الخائن المدعو كنج صبرى والذي ثبت من تحقيقات الإدارة والنيابة ، ومن أقوال الفدائيين الذين اعتقلهم الجيش البريطاني لفترات ، ثم أفرج عنهم أنه كان السبب الرئيسى فى عمليات العنف البريطانية ضد الفدائيين فى التل الكبير والقصاصين وعملية مذبحه عزبة أحمد عيده بالسويس ، وكان لدينا تصميم على اعتقاله ولكنه كان لا يخرج إطلاقاً من المعسكرات وتحت حماية السلطات البريطانية وكان دائم التحرك تحت حراسة البوليس الحربى البريطانى خوفاً من اختطافه . وكان يعمل فى نفس الوقت مع ضابط المخابرات وليامز :

وعن طريق « صبرى السروجى » صديق وليامز وزعيم العصاة الوطنية أمكننا متابعة تحركاته داخل وخارج المعسكرات . وفى أحد الأيام أبلغنا صبرى السروجى أن كنج صبرى سيخرج من المعسكر فى عربة جيب يقودها ضابط المخابرات وليامز بنفسه ومعها اثنان من جنود الحراسة فى نفس العربة ، وسيكون خط سيرهم ما بين الساعة كذا والساعة كذا على الطريق بين مدينتى الإسماعيلية وفايده على طريق القنال . وبناء على ذلك استقل الزميلان كمال رفعت ومحمود حلمى ومعهما صبرى السروجى عربة فورد صالون سريعة يقودها « عم سيد » سائق الملك فاروق فى رحلات الصيد ثم استمر يعمل سائقاً بجهاز المخابرات العسكرية المصرى وعملوا كميناً على طريق سير عربة وليامز وتعقبوها بعد تعرف « صبرى السروجى » على الخائن كنج صبرى معهم . اعترضت عربة المطاردة عربة الجيش البريطانية على الطريق فتوقفت وبسرعة ، وتحت تهديد السلاح ، أنزلوا « كنج صبرى » من العربة البريطانية . وقد أوقفت المفاجأة تفكير وسرعة بديهة وليامز والحارسين فرفعوا أيديهم استسلاماً ، وسلموا أسلحتهم للمطاردين . وعادت عربة المطاردة المصرية بالصيد الثمين : الخائن كنج

ضبرى إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بموجب ما هو مسجل ضده
وصدر حكم الإعدام بتهمة الخيانة العظمى .

تنظيم المخابرات فى القنال

وبعد فترة وجيزة أصبح قادة التنظيم فى منطقة القنال الشرقية كالآتى :

بور سعيد : الرائد / عاطف عبده سعد

الاسماعيلية : مكتب رسمى : رائد / عمر لطفى — رائد /
عبد الفتاح أبو الفضل — يوزياشى / سمير محمد غانم . Under ground
: رائد / محمد غانم — رائد / محمود سامى حافظ .

السويس : مكتب رسمى : رائد / محمود سليمان ..

الشرقية : مكتب رسمى : رائد / لطفى واكد .

فى الرئاسة بالقاهرة : رائد / كمال رفعت — رائد / سعد عفره —
رائد / محمود عبد الناصر — رائد / عبد المجيد فريد .

الاستيلاء على محطة توليد كهرباء متقلة

فى أحد الأيام . كان أربعة من الفدائيين المصريين يستقلون عربة
مدنية على طريق الاسماعيلية / التل الكبير ، ويغد مدينة أبو صوير بقليل
لاحظوا أمامهم على الطريق مقطورة ضخمة عبارة عن محطة توليد كهرباء
تجرها عربة أخرى ضخمة . قرر الفدائيون الاستيلاء عليها وعند مرورهم
بجانب مقدمة العربة اكتشفوا أن عربة محطة الكهرباء يقوم بقيادتها سائق
منهمك فى القيادة وبجانبه حارس بريطانى مسلح وليس على المقطورة
الضخمة أى حراسة أخرى ، وضع الفدائيون الخطة بسرعة وبعد

اجتيازهم المحطة المتقلة بمسافة هبط أكفأ الفدائيين وأفضلهم في مستوى التدريب ، فانتظر مرور محطة الكهرباء . ونظراً لثقلها ولشدة بطئها فقد تمكن من أن يقفز على مؤخرتها ثم تسلل إلى الجانب الذي به الحارس في كابينته السائق ، وعاجل الحارس المسلح بطلقة في رأسه أردته قتيلاً في الحال . انزعج السائق البريطاني عندما شاهد مصرع زميله الحارس وكانت عربة الفدائيين أمام المقطورة تراقب العملية فاعترضوا السائق وأرغموه على الوقوف . ويسرعة أجبروه على النزول . وكان غير مسلح فقاموا بتقييده ثم تركوه في الأعشاب القائمة على جانب الطريق . وصعد أحدهم إلى المقطورة الضخمة وآخر قاد العربة المسروقة ، ومعه زميل بعد أن ألقوا بجثة الجندي البريطاني المقتول على جانب الطريق أيضاً ولزيادة الحماية تابع الفدائيان الآخرين بسيارتهما السيارة المسروقة واستمرا في السير حتى وصلا إلى أحد الطرق الجانبية المؤدية إلى القاهرة . وبالفعل وصلت المحطة الكهربائية سالمة في حراسة عربة الفدائيين إلى القاهرة

الانتقام لمقتل ضابط بوليس مصرى

في مساء يوم ١١ مارس سنة ١٩٥٤ كانت مجموعة من الفدائيين المصريين تقوم بعملية الاستيلاء على ذخيرة من مخازن الجيش البريطاني في أبي سلطان . بعد نجاح العملية تماماً ، فاجأتهم داورية بريطانية في سيارة وهم يحملون صناديق الذخيرة خارج سور السلك الشائك للمخازن . ترك الفدائيون صناديق الذخيرة وفروا هارين وطاردتهم الداورية عبر الصحراء بالسيارة ولحسن حظ الفدائيين كانت المزارع قريبة ، وتمكنوا من الجرى خلالها مما جعل مطاردة الانجليز لهم بالسيارة مستحيلة واستمر الفدائيون في الجرى حتى وصلوا إلى نقطة بوليس فتارة ودخلوها للاحتباء بها . ويبدو أن

أحد أفراد الداورية البريطانية كان قد ترجل خلفهم وراقبهم وهم يدخلون النقطة فأبلغ الداورية التي حضرت بعد فترة وجيزة . لما شعر ضابط النقطة « فريد ندا » بعربة الداورية خارج النقطة أسرع وأمر الفدائيين بالخروج من الباب الخلفى لنقطة البوليس وتمكنوا من عبور التربة سباحة والفرار نهائياً من مطاردة الانجليز ولكن أفراد الداورية البريطانية أسرعوا بدخول مبنى النقطة ولم يكن موجوداً بها أحد غير الضابط « فريد ندا » وبعد مناقشة حادة قصيرة أطلقوا عليه نيرانهم وأردوه قتيلاً مدرجاً بدمائه الطاهرة معتقدين أنه ساعد على تهريب الفدائيين . وحين وصل خبر مقتل الضابط إلى محافظة الاسماعيلية قرب منتصف الليل ، استدعاني وكيل المحافظة وكان جميع ضباط بوليس المدينة مجتمعين في مكتبه وكلهم ثورة على مقتل زميلهم بهذه الوحشية . وعلمت بتفاصيل الحادث من وكيل المحافظة . وفي هدوء غادرت مكتبه مشاركاً في سكون ثورة إخواننا ضباط الشرطة . وسهرت طول الليل أدبر خطة محكمة ومؤثرة للشار . وفي الصباح كان بالمكتب عشرة أطقم من الفدائيين ، تحدد لكل طاقم من العشرة مكان من أماكن تجمع البريطانيين خارج معسكراتهم أمام النوادي وشواطئ الاستحمام . وتحدد لكل طاقم هدف ليقتله ويحسن أن يكون ضابطاً بريطانياً . وقبل عصر اليوم التالي لمقتل الشهيد « فريد ندا » تم قتل عشرة ضباط بريطانيين .

عملية سيارة البرمجادير

كان ثلاثة من الفدائيين قد خرجوا للبحث عن صيد جديد وعند شاطئ بحيرة التماسح وفي منطقة منعزلة . كان هناك عربة ملاكى ليس بها ركاب وبدخلها ملابس وبالقرب من العربة ، وعلى الشاطئ كانت هناك قبة حريمى كبيرة ويشكير حمام وداخل مياه البحيرة كان شخص بريطانى

ومعه سيدة يسبحان في مياه البحيرة . وانتظر الفدائيون حتى ابتعد الرجل والسيدة داخل البحيرة ثم اقتربوا من القبة والقوط ووجدوا تحت القبة شنطة كان بداخلها مفاتيح العربية ، فاستولوا على القبة والبشكيرين والشنطة وأخذوا مفاتيح العربية وتنبه المستحان فأخذوا يشيران بأيديهما ويسرعان بالسباحة في اتجاه الشاطئ ولكن الوقت كان قد فات .

بعد غروب شمس هذا اليوم (بعد الحادث بحوالى أربع ساعات) استدعانى وكيل محافظة الاسماعيلية لمكتبه ، وقال لى : إن قائد البوليس الحربى البريطانى كان عنده قبل وصولى وطلب منه أن يسمح المحافظ لأحد ضباط المحافظة بمصاحبته في عربة الدائرية البريطانية المكلفة بمطاردة لصوص عربة البريجادير (العربة المسروقة كان يملكها ضابط برتبة بريجادير بالجيش البريطانى) حيث أنه كان لديه معلومات أن العربة المسروقة لازالت داخل عزبة أبوجاموس ، وكان ضابط البوليس الحربى لديه أوامر بمطاردة لصوص العربية بالنيران ولكنه فضل وجود ضابط بوليس مصرى لمراقبة دائرية المطاردة .

وافق المحافظ على طلب قائد البوليس الحربى البريطانى ، وكلف بذلك الضابط مصطفى شلى مساعد مدير المباحث العامة . وذهبت أنا بعد ذلك مباشرة إلى عزبة أبوجاموس ، وترجلت قبل العربية ولاحظت جلبة وهرجاً والكل يحكى عن المطاردة المثيرة التى حدثت قبل أن أصل بعدة دقائق والتى تم فيها تبادل إطلاق النيران بين الفدائيين وعربتى الدائرية البريطانية . علمت أن الفدائيين تمكنوا من الفرار بالعربة المسروقة في آخر لحظة .

مهاجمة مكتب المخابرات البريطانى في السويس

أمكن الزميل محمود سليمان المشرف على مكتب المخابرات المصرى بمدينة السويس الاتفاق مع بعض جنود الموريشيان (أفريقيون من سكان

جزائر موريشيوس بالمحيط الهندي شرق مدغشقر) المجندين بالجيش البريطاني وكان معظمهم من المسلمين ويقومون بالحراسة على مكتب مخبرات الجيش البريطاني بالسويس . اتفق معهم نظير مبلغ من المال . ويعد اقتناعهم بأن مصر في حالة كفاح ضد البريطانيين على أن يساعدونا في تسهيل عملية الاستيلاء على جميع عربات هذا المكتب الموجودة بجراج المكتب بالسويس ، وذلك أثناء حراستهم الليلية . كان عدد العربات خمس عشرة عربة . فتم تشكيل طاقم كامل من عشرين فدائياً متخصصين في سرقة وتشغيل العربات ، وسبق لهم القيام بمثل هذه العملية . زدناهم قبل العملية بأسلحة العصابات . وكان مع هذه القوة طاقم آخر مدرب على فتح الثغرات في الأسلاك الشائكة المحيطة بجراج مخبرات السويس لتسهيل دخول طاقم السرقة . ذهبت معهم أنا والزميل محمود سليمان يعد أن خططنا لهذه العملية . وكانت الخطة تقضى بالخروج بالعربات بعد فتح الثغرة بسور السلك الشائك ، ثم نسرع بالتوجه بالعربات إلى مكان معدية السويس ثم نعبّر إلى البر الشرقي بسيّاء . وكان موقع المعديّة لحسن الحظ قريباً جداً من موقع العملية . وانتشر طاقم آخر من عشرين فدائياً حول موقع المعديّة من الغرب ليؤمنوا بأسلحتهم عملية العبور من المطاردة البريطانية . وفي الوقت نفسه كان الجميع يتقنون قيادة العربات . وحيث أن العملية كانت ستتم بعد العاشرة مساءً فقد صار التفاهم مسبقاً ، والترتيب مع طاقم عمال المعديّة المصريين الذين كانوا تابعين لشركة القنال الفرنسية . بدأت العملية بفتح الثغرة في سور السلك الشائك حسب الاتفاق مع الحراس الموريشيانيين الذين تركوا لنامواقعهم بالكامل وقت العملية . وتم تشغيل العربات ، وخرجنا بها مسرعين متجهين إلى موقع المعديّة . وبمجرد وصولنا إلى المعديّة قام عمال المعديّة المصريون بتشغيلها بأقصى طاقة وتم عبور الخمس

عشرة عربية على ثلاث دفعات في زمن قصير جداً ، وفي حراسة طاقم الحراسة المنتشرين حول موقع المعدية الغربى . وقد سلم الله فلم يتعقبنا احد من الجيش البريطانى وتجمع الجميع بما فيهم طاقم الحراسة فى البر الشرقى بعد العبور وهناك كان ينتظرونا لورى مصرى به كمية كافية من الوقود .

وبعد إعادة ملء خزانات بنزين العربات المستولى عليها ، بدأنا السير بالعربات المسروقة على طريق القنال الشرقى متجهين إلى القنطرة شرق . واتجهنا من القنطرة شرق إلى معسكر الجيش المصرى هناك حيث سلمنا هذه العربات لهم . واحتفل بنا الزملاء ضباط رئاسة القوات المصرية فى القنطرة شرق . وجمعنا هذا اللقاء اثناء الافطار بإمام القوات الشيخ عبد المنعم الذى كان إماماً للكتيبة الرابعة مشاة أثناء خدمتى بها وكانت كلمة هذا الإمام المبجل كلها إيمان ووطنية .

وكان يتكلم ودموع التأثير تتساقط على وجنتيه من شدة التأثير لأن منظر العربات الخمس عشرة وعليها العلامات البريطانية وهى رابضة فى ساحة المعسكر المصرى الذى يرتفع عليه علم مصر ، كان يدعو حقاً للحماس والتأثر . وعدنا عن طريق القنال فى البر الغربى حيث كانت تنتظرونا عربات لتقلنا إلى مدينة الاسماعيلية .

اقتحام نادى الضباط الانجليز

قام الزميل اليوزباشى غانم بالاستكشاف والتخطيط لهذه العملية فتمكن من معاينة النادى المطل على بحيرة التمساح مباشرة فى مدينة الاسماعيلية ، كما تعرف على رجال الحراسة ، وكانوا من المجندين الأفارقة بالجيش البريطانى ، وعن طريقهم تمكن من جمع معلومات مفصلة عن مداخل وخارج النادى ومنطقة انتظار السيارات . ومن حصيلة هذه المعلومات قام

بعمل رسم كروكى للنادى وما يحيط به . . وبناء على ذلك وضع خطة كاملة لاقتحامه . وكانت العادة قد جرت فى هذا النادى على أن يبدأ الضباط فى ارتياد ناديهم فى التاسعة مساء . ويقوموا بلعب الميسر الذى يستخوذ على كل تركيزهم وحواسهم . ولذلك تقرر أن يكون الهجوم بعد هذا الميعاد وبمدة كافية .

ما جاء بالمعلومات التى تم جمعها أن عدد العاملين فى النادى لا يتعدى خمسة أفراد . وبناء على ذلك قرر سميّر أن تتكون قوته من ثمانية افراد من الفدائيين المصريين . وفى الموعد المحدد استقل سميّر ومجموعته سيارة قادوها إلى قرب النادى ثم أخفوها تحت الاشجار . وترجل الفدائيون المسلحون حتى وصلوا إلى موقع النادى فى العاشرة مساء . وبهدوء وتحت ستار الظلام ، طوق الرجال النادى .

وحسب الخطة الموضوعة تسلل أربعة من الفدائيين من ناحية البحيرة عبر الشرفة الخلفية والأربعة الآخرون من ناحية الباب الإمامى . . وعندما أصبح الجميع متأهين تماماً للاقتحام أصدر أحد الفدائيين من ناحية البحيرة صوتاً كصوت الضفدع وهى الاشارة الخاصة المتفق عليها . وعلى الفور اقتحم الفدائيون الثمانية وهم شاهرو السلاح مبنى النادى من الجهتين فى سرعة فاجأت رواد النادى .

وتقدم أربعة من الفدائيين فتولوا تهديد العاملين بالبوفيه والبار وقام الأربعة الآخرون بتهديد مجموعتين كبيرتين من الضباط العاكفين على لعبة الميسر . ورفع جميع الموجودين أيديهم مستسلمين . ولما كانت التعليمات فى هذه الفترة حاسمة بوقف الاغتيالات فقد قام الفدائيون بتقييد جميع البريطانيين والعاملين بحبال كانوا قد أتوا بها خصيصاً لهذا الغرض ثم أمرهم

بالانبطاح أرضاً على وجوههم فنفذوا صاغيرين . وبسرعة استولى الفدائيون على إيزاد النادى وما كان بخزيرته وجميع متعلقات الضباط الانجليز ، وخرج الفدائيون مسرعين ليقيدوا جميع أفراد الحراسة الأفارقة تنفيذاً لما اتفق معهم عليه . واستولوا على أربع عربات بريطانية كانت فى مكان الانتظار وسلموا كل ذلك فى القاهرة إثباتاً لتمام نجاح عملية الاقتحام .

جمع المعلومات

كان لابد لتصعيد عمليات القتل والتسف من تجميع معلومات عن أهدافنا القادمة لزيادة أعمال العنف التى كان يقوم بها الفدائيون ، فإلى جانب عمليات التخريب والتسف والاغتيالات . كانت تحركات تجرى على نطاق واسع للحصول على معلومات دقيقة عن الجيش البريطانى بالقاعدة .

وبواسطة المندوبين الذين يعملون فى مكاتب الجيش البريطانى حصلنا على رسومات العسكرية والمنشآت التفصيلية . وكان يدون على هذه الخرائط والرسومات أى تعديل يطرأ بموجب المعلومات التى كنا نحصل عليها أولاً بأول من المندوبين . وفى النهاية أصبح لدينا خرائط تفصيلية شاملة عن توزيع القوات والوحدات البريطانية بمنطقة القنال . وكنا عن طريق العاملين فى مكاتب الضباط والقيادات البريطانية نحصل على كميات هائلة من محتويات سلال المهملات التى تلقى فيها الاوراق من مكاتب القادة وضباط القاعدة ، كانت ترسل كما هى إلى مكتب معلومات القاهرة ، وهناك يعاد فحصها بدقة وأمكن أيضاً الحصول منها على معلومات فى غاية السرية .

تعيين الأهداف الحيوية

بعد أن حصلنا على عدد من خرائط ورسومات العسكرية والمخازن والمنشآت كنا نعطى صورة من أجزاء هذه الرسومات والخرائط إلى المندوبين

المصريين العاملين بها ليقوموا بتعيين أماكن الأهداف الحيوية ، والمتحكمة بحيث يفيد تحديد أماكنها كثيراً في عمليات التخريب والنسف والتدمير المؤثر . ثم يعاد وصل هذه الأجزاء لكل معسكر حتى تعطى تفصيلات وافية عن كل معسكر بالكامل على حدة .

الحصول على التقارير والمستندات السرية للغاية

أمكننا تجنيد (بالاتفاق مع العاملين في مكاتب رئاسة القوات البريطانية وكان منهم شخص يعمل لدى العدو ليعمل لحسابنا) أحد الأجانب غير البريطانيين . وكان يعمل كاتباً بمكتب أحد الجنرالات في الجيش البريطاني من القادة الكبار . . وعن طريق هذا المندوب واسمه الحركي (المندوب) « واطسون » والذي أمكنه أن يغافل هذا الجنرال ويحصل على مفاتيح خزانة المستندات لفترة زمنية بسيطة مكتبته من طبع المفتاح على قالب من الشمع سلمه لنا بالخارج وأمكننا عمل نسخة طبق الاصل من المفتاح . وتمكن بواسطة هذا المفتاح المصنع أن يحصل لنا على كمية هائلة من المستندات ذات الصفة السرية للغاية وكان يحملها معه بالخارج ليصورها في أحد محال التصوير التابعة لنا في السويس « مصوراتي كليوباتره السيد رشاد النقادي » ويعيد المستندات الاصلية بعد تصويرها ثانية في اليوم التالي إلى مكانها في الخزانة مستعيناً بالمفتاح المصطنع .

الاستيلاء على قطارات كاملة

من ضمن المهام التي أمكن لمندوبينا الذين يعملون في مخازن الجيش البريطاني في التل الكبير مساعدتنا فيها أمكننا الحصول على كمية من الختامات الخاصة بعربات البضائع المشحونة بالمهمات العسكرية للجيش

البريطاني وكذلك كمية كبيرة من جهاز الختم الذي يطلق عليه صفارة . وهي عبارة عن شريط من الصلب ينتهى بعلبة تشبه الصفيح .

وكان المتبع أنه بعد أن تملأ عربة بضاعة السكة الحديد بالمهمات العسكرية بعد تفريغ السفن بميناء السويس أو بور سعيد ويغلق الباب على البضائع والمهمات يؤمن الباب لعربة بضائع السكة الحديد المشحونة بالبضائع العسكرية بإدخال طرف الشريط الصلب في سقاطة الباب ثم يتم ادخال طرف الشريط الآخر في العلبة الصفيح أو الصفارة المثبتة في النهاية الأخرى للشريط ثم تعالج العلبة أو الصفارة بختامة من الصلب تحكم اغلاق الشريط ويصبح على الصفارة علامة مميزة للمهمات العسكرية البريطانية ، وبالتالي يؤمن الباب المغلق لعربة السكة الحديد .

وبدراسة سلسلة المهمات والأسلحة والمعدات العسكرية من ميناء الوصول في بور سعيد أو السويس علمنا أن المهمات والأسلحة والذخائر البريطانية تنقل من ميناء الوصول إلى مخازن القاعدة في القنال في عربات السكة الحديد المصرية وتؤمن كل عربة بضاعة مشحونة بهذه الصفارة بعد ختمها وتتم هذه العملية بمعرفة أفراد مكتب انجليزى يطلق عليه R. T. O. وهو مكتب تسهيلات السكة الحديد بعد ختم ابواب عربات البضاعة بمعرفة الـ R. T. O. في الميناء تسلم إلى مصلحة السكة الحديد المصرية لسائق القطار وعمال السكة الحديد المصريين وعلى السكة الحديد المصرية توصيل هذه العربات وتسليمها مختومة إلى مخازن الجيش البريطانى في القاعدة دون أية مسئولية من جانب السكة الحديد المصرية مادام الختم سليماً .

بعد الحصول على الاختام والصفارات وهي مفتاح العملية . وبعد دراسة هذه السلسلة . أمكننا - بالاتفاق مع مدير الحركة المصرى المهندس

« ذو الهمة الشرقاوى » بالسكة الحديد بالاسماعيلية - ترتيب إيقاف قطارات المهمات والبضاعة العسكرية قبل دخولها مخازن الجيش البريطانى وفى مناطق مأمونة لنا وذلك بعد حصولنا على معلومات عن ميعاد مغادرتها للموانى فى طريقها إلى مخازن الجيش البريطانى وتجهيز عدد من العربات الفارغة مماثل لعدد عربات القطار المشحون بالمعدات العسكرية فى المناطق الآمنة المتفق عليها مع الحركة بالسكة الحديد ثم تختم ابوابها بالصفارات والختامات المسروقة من مخازن الجيش البريطانى وتقوم قاطرة بسحب عربات القطار الفارغة إلى مخازن الجيش البريطانى . وتقوم قاطرة أخرى بسحب عربات القطار المشحونة إلى مخاون الجيش المصرى إما بالعباسية أو المعادى ولحسن الحظ أنه فى احد هذه القطارات حصلنا على كميات كبيرة جداً وكافية من مواشير مدافع الميدان المصرية البريطانية الصنع ٢٥ رطل التى كانت شديدة الحاجة للتغيير . كما حصلنا على كميات هائلة من أجهزة القنابل الزمنية التى استخدمناها على نطاق واسع بعد ذلك .

مكافحة الجاسوسية

فى مساء أحد الأيام حضر إلى المكتب شخص مصرى يبدو من حديثه أنه مسلم - بخرائط لمنشآت عسكرية وقال لى إنه يعمل رساماً بمكتب الخرائط العسكرية البريطانية وأنه علم من بعض المصريين الذين يعملون معه أن مكتب المخابرات المصرى بالاسماعيلية فى حاجة إلى هذه الخرائط الموجودة تحت يده . وأبدى لهم استعدادات لذلك ولكنه فضل أن يسلمها للمخابرات المصرية بنفسه وعلم منهم عنوان المكتب المصرى وأن الشخص المسئول عن استلام هذا النوع من الخرائط هو ABU - EI - FADEL .

(ابو الفادل) ونطقها كما ينطقها الانجليز بالبدال وليس بالضاد

(أبو الفضل) وأصر على أن يسلمها له (أبو الفادل) نفسه واستتجت في الحال أنه عميل بريطاني مكلف رأساً ومباشرة من ضباط انجليز لإجراء هذا الاتصال وليس موفداً من أحد المواطنين المصريين كما يدعى - وتظاهرت بأننى لست (أبو الفادل) وأننى ساناديه له ليقابلة وخرجت إلى المكتب المجاور وكان موجوداً به الزميل سامى حافظ من مخبرات الطيران . وفى سرعة أفهمت الزميل سامى حافظ الوضع وطلبت منه أن يمثل على العميل أنه أبو الفادل ويستدرجه في الحديث حتى تكرر نطق هذا الأسم عدة مرات ويجعله يعيد عليه الحديث الذى تحدث به إلى ثانية . وقمت أنا بتشغيل جهاز التسجيل من الغرفة المجاورة والمتصل بميكروفون في الغرفة الموجود بها الزائر وبعد أن أعاد عليه الزميل سامى حافظ الكلام وتأكدت من سلامة التسجيل وأصبح لدى قرينة صوتية ضده أمرت باستمرار التسجيل ودخلت عليهما الغرفة عندما بدأ الزائر يخرج ثلاثة خرائط من تحت ملابسه ليسلمها للزميل سامى حافظ على أنه هو أبو الفادل . وبالإطلاع على الخرائط وجدناها خرائط صحيحة وليست مزيفة . عند ذلك فاجأت الزائر المشتبّه فيه بسؤال مفاجئ له تماماً قلت له : من الضابط الانجليزى الذى كلفك بالحضور إلينا ؟ ونظر إلى دهشاً وظل صامتاً ، فأخبرته بأننى قد سجلت كل كلمة قالها وأن نطقه لاسم « أبو الفضل » يدل على أنه قد لقن بالاسم عن طريق رجل انجليزى وأنه مكلف من قبل أعدائنا الانجليز بالتجسس والخيانة وأنه من الأفضل له أن يعترف بكل شيء وبالحقيقة . . . وأننا قد نستفيد منه بشكل أو بآخر وإلا قمت بتسليمه للنياية ليحاكم بتهمة الخيانة كما حوكم « كنج صبرى » من قبل . أصابته مفاجأتى له بالوجوم ثم انهار تماماً . وبعد وقت قليل بدأ يتمالك نفسه معترفاً بأن الضابط البريطانى الذى كلفه بالحضور هو ضابط المخابرات البريطانى ويليامز وهو نفس الضابط الذى

كان يقوم بتشغيل الخائن كنج صبرى والذى كلفه بعدة مهام .
(أولاً) التأكد من أن المخابرات المصرية هى المهمة فعلاً بهذا النوع من
الخرائط .

(ثانياً) محاولة الوقوف من خلال الحديث مع (ابو الفادل) عن سبب
جمع هذه الخرائط .

(ثالثاً) محاولة استدراج (أبو الفادل) لدخول معسكر الجيش
البريطانى الموجودة به الخرائط بحجة إمكان تسليمه هناك عدداً كبيراً منها
يصعب على المندوب الخروج بها بنفسه .

(رابعاً) أو استدراج (أبو الفادل) بالحديث عن بعض مندوبى
المخابرات بدعوى تسليمهم هذه الخرائط عندما يحصل لهم عليها (وبذلك
يمكن من الوقوف على أسماء المندوبين المصريين داخل المعسكرات) .

(خامساً) أن يحاول أثناء دخوله وخروجه من مكتب المخابرات المصرى
التعرف على المدخل والمخارج للمكتب وحجم ومواقع الحراسات حول
المكتب وتسليحها وعددها بالتقريب .

بعد هذه الاعترافات أكدت له أنه قد تم تسجيلها أيضاً وأنه الآن
أصبح متهماً يمكن محاكمته وإثبات تهمة الخيانة وعليه أن يختار إما المحاكمة
بتسليمه إلى النيابة أو الموافقة على أن يعمل لحسابنا وتنفيذ كل ما نأمره به .
عند سماعه هذا العرض وافق وهو لا يصدق أن حياة جديدة قد كتبت له ،
ووافق بالعمل فى كل ما نأمره به . أخذت الخرائط وخرجت وتركت مع الزميل
سامى وقمت بتصوير الخرائط الثلاث . أعدت إليه الخرائط وقلت له :

(أولاً) خذ هذه الخرائط وأعدها إلى ويليامز وأفهمه بأن : لا أبو الفادل ولا المخابرات المصرية في حاجة إلى هذه الخرائط .

(ثانياً) رداً على طلبه باستدراج « أبو الفادل » لدخول المعسكر أخبره أنك لم تجرؤ على ذلك ما دام أبو الفضل ليس له أية رغبة في الخرائط .

(ثالثاً) أما عن استدراج « أبو الفادل » للإفصاح عن أسماء وشخصيات بعض المندوبين المصريين داخل المعسكرات فأخبره بأنك أرجأت ذلك فيما بعد إذا أمكنك معاودة الاتصال بأبو الفادل خصوصاً وأنه أسلمك بعض المنشورات ضد الجيش البريطاني (وأعطيته كمية منها ليقوم بتوزيعها داخل المعسكر) وعليك أن تسلم ويليامز هذه المنشورات (هدية مني له) .

(رابعاً) أما عن عملية استكشاف مداخل ومخارج المكتب فإني أسمح لك باستخدام قوة ذاكرتك عند خروجك من عندنا فحاول أن ترسم صورة حسب رؤيتك وتعيدها على الضابط ويليامز .

(خامساً) أما عن طلبه منك معرفة معلومات عن الحراسة فعليك أن تقول له : إنك لم تلاحظ أي حراسة ظاهرة وأنه لم يعترض طريقك إلى المكتب أي حراس ولكنك لاحظت وجود كثير من الأفراد داخل الشجر الكثيف المحيط بالمكتب وأنت خبرتهم من أصواتهم وبالع في هذا العدد . أما عن التسليح فأخبرهم أنه لم يمكنك رؤيتهم حتى تقف على تسليحهم .

وأخيراً كلفته بزيارتنا مرة أخرى واتفقت معه على مكان معين يمكنه انتظارنا عنده بمدينة الاسماعيلية ويستحسن أن يكون ليلاً بعد أن يتصل تليفونياً وأعطيته اسماً كودياً « مرزبان » على أن يرتدى عند الزيارة قبعة قماش

بيضاء كالتى اعتاد أن يلبسها أهل منطقة القنال ويحمل معه في يده بشكل ظاهر علبة مربى ماركة قها .

واعتبرته من هذه اللحظة عميلاً مزدوجاً أحاول الاستفادة منه لأقصى حد وإذا ثبت إخلاصه يمكن اعتباره مندوباً وطنياً كاملاً .

وبعد ثلاثة أيام حضر بالأسلوب المتفق عليه وعرفنى بأن الضابط ويليامز صدقه في كل ما قاله خصوصاً عندما سلمته المنشورات ، وصرف النظر كلية عن إعادة تشغيله كجاسوس . ولكنه أبدى استعداداه لخدمة بلده . وأفهمنى أن الزيارة الأولى التى قام بها لنا كانت أول تجربة له مع الضابط ويليامز ، وأنه لم يكن مقدراً خطورتها حتى تمت مقابلته معنا التى علمته فيها درساً لن ينساه . وعلمت من الحديث معه أنه يتقن التصوير وسلمته أدوات التصوير اللازمة لتصوير المستندات ، وكلفته بتصوير أكبر عدد ممكن من الخرائط الموجودة . وفعلاً قام بهذه المأمورية خير قيام

تجنيد مندوب

في إحدى زيارات المندوب (مرزبان) - مندوب الخرائط السابقة - علمت منه أنه على صلة بشخص اسمه شريف كيسون يعمل مع ضابط المخابرات ويليامز وكان لدينا بالمكتب ملف خاص عن شريف كيسون وأحضرت الملف وعند اطلاعى عليه علمت أنه سودانى الجنسية يعمل مع مكتب المخابرات البريطانى وأنه يتعاون معهم في أعمال الترجمة واستجواب المعتقلين المصريين من المقاومة الشعبية في عام ١٩٥١ وأنه مشتبّه في تعاونه الضار ضد مصر ، ولكن ليست هناك أى أدلة مادية ضده لأنه يمتاز بالحرص الشديد والذكاء الحاد . لكنه يعرف الكثير من المعلومات عن أعمال

المخابرات البريطانية وخاصة عن الجواسيس المصريين الذين يعملون معهم . وأنه ضمن المطلوب اعتقالهم ولكنه لا يخرج إطلاقاً من المعسكرات البريطانية ولا يتحرك إلا بحراسة . بالإضافة إلى هذه المعلومات كانت لدينا حصيلة معلومات عن شخصيته من واقع تقارير المندوبين الذين يعملون مع مكتب مخابرات الاسماعيلية المصرى وطرأت في ذهني فكرة احتمال التعاون مع شريف كيسون ، واتفقت مع مرزبان أن يحاول مكاشفة شريف كيسون عن إمكانية إقامة اتصال بيني وبينه ، وأنه من الممكن تأمينه إذا تمكن من تقديم خدمات للمخابرات المصرية فيمكننا عند ذلك إصدار عفو عنه فلا يحاكم .

في لقاء بعد ذلك مع مندوب الخرائط (مرزبان) أبلغني أن شريف كيسون وافق على اللقاء والتعاون مادام هناك عفو من أعلى المستويات المصرية سيصدر عنه ، ولكنه اشترط كبدية لبناء جسور الثقة أن يتم لقائي الأول به داخل المعسكرات ، ووعده بعمل التصريح Pass الخاص بذلك لي تحت اسم مستعار وطلب مني صورة بغطاء الرأس (البيره) والذي يجب أن أرتديه عند حضوري داخل المعسكر . وكانت مغامرة مني أن أقبل هذا العرض على هذا النحو . لكن كان لدى اقتناع بإمكان النجاح في مأموريته فمن دراسة جميع المعلومات عن شريف كيسون تكون لدى شعور داخلي في إمكان الوثوق به حيث برزت لديه الشهامة والرجولة والوفاء بالوعد في كثير من المواقف مع الذين تعامل معهم . وفعلاً تم اللقاء بأمان وأثبتت مجازفتي بدخول المعسكرات عن إمكان الثقة منه بي وبنفس القدر أثبتت تصرفات شريف كيسون بعدم الغدري أنه أصبح محل ثقة لدى .

قضية تجسس كاملة الأركان

في أحد الأيام التالية حضر شريف كيسون مع (مرزبان) وللمفاجأة

أخرج لى من جيبه صورة فوتوغرافية لوثيقة تصميم أحد الألقام المصرية المضادة للدبابات من مستندات إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية . وقال إن المستند الأصيل موجود فى هذه اللحظة فى حوزة الجاسوس المصرى (مكسيموس) الذى كان فى لقاء فى مخابرات الجيش البريطانى اليوم وقد قام هو بتصوير هذا المستند للمخابرات البريطانية وتمكن من تصوير صورة إضافية خلصة ، هى التى سلمها لى وغادر الجاسوس مكتب المخابرات البريطانى فى طريق عودته إلى القاهرة . (و مكسيموس) . هذا هو موظف الأرشيف المصرى المسئول فى قسم إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية عن حفظ مثل هذه المستندات وقد حضره لتؤخذ له صورة فى المخابرات البريطانية . وسوف يعود بالأصل ليودعه ملفه فى الإدارة المصرية فى صباح اليوم التالى . وقد سبق وأحضر كثيراً من هذه المستندات للمخابرات البريطانية . واستنتاجاً فإن المستند الأصيل سيكون فى حوزة الجاسوس (مكسيموس) حتى صباح اليوم التالى وكان علينا أن نقبض عليه متلبساً بحيازة هذا المستند الأصيل وقبل إيداعه الملف . جعلت شريف كيسون يوقع على صورة المستند بيا يفيد أنها صورة طبق الأصل من المستند . وتقديراً من شريف كيسون لأهمية عامل الوقت فقد زودنى بوصف كامل للجاسوس وصورة فوتوغرافية له وكذلك عنوانه بالقاهرة . وكان يقيم فى شبرا ، وأبلغنى أيضاً أن الجاسوس سيسافر إلى القاهرة فى قطار المساء من محطة الاسماعيليه فى الساعة كذا وكان موعد مغادرة القطار قد اقترب جداً . ولعدم إضاعة مزيد من الوقت أمرت بتجهيز عربة ورافقنى فيها الزميل سامى حافظ وتوجهنا إلى المحطة (الاسماعيليه) ووجدنا القطار قد غادر المحطة فأسرعنا بالسفر بالعربة إلى القاهرة وتوجهنا رأساً إلى مكتب مخابرات الطيران . وكان هناك قائد المكتب عصام خليل وزودنا بشخصين

مسلحين رافقانا في العربة . وتوجهنا رأساً إلى مدخل منزل الجاسوس (مكسيموس) لأنه بحساب الزمن لم يكن قد وصل إلى منزله بعد .

حول مدخل المنزل انتشرنا نحن الأربعة وبعد مدة طويلة من المراقبة خضر شاب يطابق الوصف والصورة التي معنا . وعندما اقترب من باب المنزل اعتقلناه بسرعة وأرغمناه على ركوب العربة .

ذهبنا رأساً بالجاسوس إلى مكتب مخبرات الطيران وكان ينتظرنا قائد المكتب عصام خليل . وللمفاجأة التي تم بها اعتقاله وتفتيشه وعثورنا على المستند الأصلي سليماً انهار واعترف في التحقيق بكل ما يدينه . وفي الصباح ذهبت مع الزميل سامي حافظ إلى إدارة البحوث والتطورات الحربية . وقابلنا المدير وسألناه عن ملف تصميم اللغم المصري . وتأخر وصول الملف فترة ثم أحضره القائد وكان ينقصه تصميم اللغم . وبدأت علامات الاستياء على المدير الذي أبلغنا أيضاً بتغيب الشخص المسئول عن حفظ الملف ، وزاد سوء موقفه عندما أبرزنا له صورة المستند المصورة في مكاتب الانجليز .

بذلنا مجهوداً كبيراً لإعادة الطمأنينة إلى القائد وأفهمناه أننا قبضنا على الجاسوس متلبساً بحيازة المستند الأصلي ، ووافق كطلبنا بأن وقع على ورقة مكتوب بها شهادة بأن المستند الأصلي رقم كذا الخاص بتصميم اللغم المضاد للدبابات اختفى من الملف الخاص به رقم كذا وأن المسئول عن اختفائه هو موظف الأرشيف (مكسيموس) ، وبذلك استكملت حلقات التهمة حول مكسيموس حيث حول إلى محكمة الثورة ، وصدر عليه الحكم بالإعدام نظير خيائته .

كما وعدت شريف كيسون فقد صدر العفو عنه وترك العمل بالجيش

البريطاني لأن أمره لابد قد انكشف بعد إعلان هذه القضية في الصحف .

القبض على شبكة كبيرة من الجواسيس

أثبت شريف كيسون أنه على درجة كبيرة من الذكاء . فقد سلمني بعد محاكمة مكسيموس صور مستندات عديدة أمكنه أن يحصل عليها من داخل أرشيف مكتب المخابرات البريطاني بعد اتفاهه على التعاون معنا . كان من هذه المستندات والوثائق الأدلة الكافية على خيانة عدد كبير من جواسيس مصريين يعملون في أماكن حساسة تحوى أسراراً هامة للدولة . وكان أغلبهم في إدارة المباحث العامة . وفي بعض قيادات رئاسات أسلحة الجيش . وكان من أخطرها قسم التسليح بالسلاح البحري المصري بالاسكندرية ، تم اعتقالهم جميعاً وحوكموا وصدرت عليهم أحكام مختلفة ، بعضها مخففة ، وبريء البعض منهم واستبعد البعض من العمل في الأماكن الحساسة .

العميل المظلوم

بعد أن تمت محاكمة الخائن (مكسيموس) بالقاهرة عدت للعمل بمكتب الاسماعيلية ، وفوجئت بأن المباحث العامة بالاسماعيلية قد قامت بالقبض على المدعو محمود العدوى ورحلته إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بتهمة الخيانة .

ولما كان محافظ الاسماعيلية قد سلم لي هذه القضية من بدايتها ، وكنت أنا المسئول عن السير فيها ، ولم تكن حلقاتها قد اكتملت بعد لإثبات تهمة الخيانة عليه بالأدلة المادية . فقد عجبت لذلك ، ولم أشأ أن أتدخل في الموضوع على أساس احتمال قيام المباحث العامة باستكمال حلقاتها . ولكم

فى مساء ذلك اليوم اتصل بى تليفونياً السيد زكريا محى الدين . وكان
 بجانب كونه مدير المخابرات يقوم بعمل المدعى العام فى قضايا محكمة
 الثورة . وطلب منى مقابلته بالمنزل فى صباح اليوم التالى لأهمية الموضوع .
 وكانت قضية محمود العدوى تتلخص فى الآتى : فى أحد الأيام حضر
 لى فى مكتب الاسماعيلية وكيل المحافظ على عفيفى ومعه ضابط صغير يعمل
 فى المباحث الجنائية (مجدى) وأبلغنى أن هناك مواطناً مصرياً يدعى محمود
 العدوى يقيم فى منطقة فايد المتاخمة للمعسكرات البريطانية هناك . وليس له
 أى عمل ظاهر يتعيش منه . زار العدوى هذا الضابط (مجدى) فى مكتبه
 بالمباحث الجنائية . وبعد حديث طويل معه أغراه بأنه يمكنه تسليمه مبلغاً
 كبيراً من المال إذا ما قام هذا الضابط وحصل للعدوى على خطاب أو مستند
 رسمى من المحافظة أو من مديرية الأمن أو من المباحث فيه ما يدل على أن
 مكتب المخابرات فى الاسماعيلية هو الذى يدير عمليات المقاومة بكل
 أنواعها ، وكذا الاعتداءات على الجيش البريطانى فى محافظة الاسماعيلية ،
 وأفهم العدوى الضابط (مجدى) أن هذه العملية لحساب أحد ضباط
 المخابرات البريطانية وسيقابل به فى منزله لإجراء هذا الاتفاق . وقام الضابط
 بتبليغ ذلك إلى وكيل المحافظة الذى كلفه بمسيرة العدوى وأحضره لى
 للتصرف لأن لدى المخابرات إمكانيات لمثل هذا العمل أكثر مما لدى المباحث
 العامة . وأبدت استعدادى لتولى هذه القضية وزودت الضابط مجدى
 بجهاز تسجيل صغير يخفيه تحت ملابسه ويستخدمه فى الاجتماع إما مع
 العدوى منفرداً أو وهما مجتمعان مع ضابط المخابرات البريطانى لتسجيل كل
 أحاديثهم ، وأن يوالينى أولاً بأول عن كل اجتماع مدعماً بالتسجيل . قام
 الضابط بزيارة محمود العدوى فى مسكنه بقرية فايد واجتمع معه منفرداً
 وسجل له حديثاً لم يتعد ما قصه على وكيل المحافظة . وتوقفت القضية عند

هذا الحد ، وانشغلت في قضية (مكسيموس) .

مقابلة المدعى العام لمحكمة الثورة

قابلت زكريا محيى الدين بمنزله حسب الاتفاق قبل أن يتوجه مباشرة إلى محكمة الثورة ، وذلك في صباح اليوم الذى كانت ستتهى فيه محاكمة محمود العدوى . يادرنى زكريا محيى الدين بسؤال محدد « هل المتهم محمود العدوى يعتبر فى نظرك خائناً حسب ما لديك من خيوط هذه القضية ؟

أجبت فى الحال وبدون تردد « كلا » لأنه « لا يمكن أن يحاكم العدوى على تهمة الخيانة بخصوص اتصاله بضابط المباحث الجنائية (مجدى) لأننى شخصياً لم يصلنى أى تسجيل لحديث له يدل على الخيانة » .

واستأنف زكريا محيى الدين كلامه قائلاً « ولكن لقد تم تسجيل حديث للضابط معه فى منزله وهو يطلب فيه من الضابط تكليفه بالحصول على الخطاب » .

وأجبت « مادام لم يتم تسجيل حديث بين الاثنين وبين ضابط المخابرات البريطانى والذى يمكن أن يدل على تواطؤ العدوى مع ضابط المخابرات البريطانى . فإن أركان الجريمة تكون غير قائمة ، وأن رأى ألا يحاكم محمود العدوى على تهمة الخيانة لأن الجريمة لم تحدث » . وقلت له « يمكن سؤال الضابط (مجدى) فى شهادته فى المحكمة عما إذا كان تقابل مع العدوى بحضور ضابط المخابرات البريطانى . وعلم منه أو سجل له أى كلام يدل على التواطؤ مع العدوى . فإذا كان رده بالنفى . فليس هناك أى جريمة أو تهمة خيانة ، ويجب أن يحكم ببراءته .

انتهت المقابلة عند هذا الحد وتركت زكريا محيى الدين وهو يرم بركوب

السيارة متجهاً إلى محكمة الثورة .

وتخلفت في القاهرة حتى يمكنني التحقق من حكم البراءة ولكن صدر الحكم على محمود العدوى من محكمة الثورة بعشر سنوات أشغال شاقة . وتأثرت من هذا الحكم . وبلغني أن محمود العدوى بالسجن الحربي يطلب مقابلتى . فقابلته وفوجئت به يشكرنى لأننى أنقذته من حبل المشنقة . ولم أعرف كيف بلغه موقفى .

التحرش السافر رغم تقدم مفاوضات الجلاء

بعد عدة أيام من إعلان محاكمات شبكات الجواسيس التى كانت تعمل مع المخابرات البريطانية بالقنال . توقعت أن يكون هناك تحرشاً من البريطانيين بمكتب المخابرات المصرى ولذلك كنت أوصى كل من يدخل المكتب أو يخرج منه من المندوبين أو الفدائيين أن يكون مسلحاً ، علاوة على وضع وتنفيذ خطة حراسة مكثفة بشكل ظاهر تعمدت أن تصل أخبارها للمخابرات البريطانية ..

وفى يوم كنت أركب عربة جيب عسكرية تابعة لمكتبنا يقودها الزميل كمال رفعت ومعنا الزميل سعد عفرة وثلاثة فدائيين آخرين وكلنا مسلحون . كنا فى طريقنا إلى القاهرة . عندما اتخذنا الطريق الموازى للترعة لنعبرها إلى الطريق المؤدى إلى القاهرة ، وفوجئنا بنقطة تفتيش بريطانية وضعت فجأة قبل الكوبرى . وكانت تقوم بتفتيش إحدى عربات الجيش المصرى وكانت تسبقنا ويقودها السائق بمفرده . أوقفنا عربتنا قبل نقطة التفتيش البريطانية لأننا توقعنا التحرش بنا ، فنزلت ومعى الثلاثة الفدائيون بأسلحتهم واتخذنا مواقع حاکمة على نقطة التفتيش البريطانية ، وذلك بعد أن اختفينا فى الاعشاب على جانبي الترعة . واستمر كمال رفعت وسعد عفرة فى السير بالعربة إلى أن

أوقفهما جنديان بريطانيان بأسلحتها عند نقطة التفتيش وطالباهما بمغادرة
العربة لتفتيشها ، وضع كمال رفعت يده على زنار مدفعه الرشاش ، بينما قال
مسعد عفرة للجنود : نحن ضباط مصريون ولا يجوز تفتيشنا وهو قابض على
مدفعه لايضاح أننا سنقاومهم ، ذهب الجندي إلى رئيس الموقع الذي جاء
إلى العربة وسمح لها بالمرور . وكانت المفاجأة أن العربة لم تتحرك ، فكرر
السماح بالمرور وإذابه يرى أربعة مسلحين قادمين من جانب التربة وقال له
كمال رفعت لا شك أنها كانت ستصبح معركة حامية لومنعتمونا أوقفتم
بالتفتيش .

عملية خطف العسكري البريطاني ريجدن

قام طاقم من مجموعة الفدائيين باستدراج أحد الجنود من بار في
الاسماعيلية . وعندما هموا بإرغامه على ركوب عربتهم قاوم بعض الشيء
ولاحظ ذلك جندي بوليس حربي بريطاني فأطلق طلقة نارياً على العربة بعد
أن تحركت وأصابت الطلقة جسم العربة دون أن تصيب أحد الأفراد .
وأبلغ الجنود البوليس الحربي القيادة البريطانية في القنال وفي سرعة صدرت
الأوامر للقوات البريطانية بمحاصرة جميع الطرق لمخارج الاسماعيلية وتفتيش
جميع العربات المغادرة لها .

وأنا بالمكتب وخالي الذهن تماماً من كل ما حدث جاءتنى مكالمة تليفونية
من إحدى قواعد تدريب الفدائيين وهي عزبة الاستاذ حسين فهمي المحامي
في القصاصيين وكانت خارج نطاق الحصار المضروب على الاسماعيلية .
أبلغني أنه حضر إليه ثلاثة من الفدائيين المعروفين له ومعهم جندي بريطاني
اختطفوه من أحد البارات ويريدون قتله ودفعه بعزبه . أصدرت أوامري
إليهم عن طريقه بعدم قتله والنزول بعربتهم ومعهم الجندي المختطف حياً إلى

رئاسة المخابرات بالقاهرة رأساً وألا يستعملوا أية أساليب عنف معه وسلموه هناك . تصاعد الموقف البريطاني بسرعة غير عادية ، وقبل أن تتخذ القاهرة قرارها بشأن الجندي المخطوف ، أصدرت القوات البريطانية إنذاراً رسمياً لمحافظ الاسماعيلية لتبليغ السلطات المصرية « أنه إذا لم يسلم الجندي المختطف رجيدن إلى القيادة البريطانية قبل الساعة ٨ مساء اليوم التالي سيتم احتلال مدينة الاسماعيلية بكل مرافقها للبحث عن « رجيدن » .

ولما كنت متأكداً بأن الحكومة المصرية سوف ترفض الإنذار ، فقد قمت بعمل خطة سريعة مع الزميل عمر لطفى للدفاع عن مدينة الاسماعيلية ، وجمعت أكبر عدد ممكن من الفدائيين ، كما تطوع جمع كبير من شعب الاسماعيلية وأبدوا كامل الاستعداد للاشتراك في الدفاع عن مدينتهم .

وذهبت لمقابلة فضيلة الشيخ محمد فرغل رئيس الاخوان المسلمين بالاسماعيلية للمشاركة بشباب الاخوان في الدفاع عن المدينة ، إلا أنه رفض وأخذ ينتقد عملية خطف الجندي البريطاني « رجيدن » وأكد أنه لم يكن لها أى مبرر أو معنى فشكرته على ذلك ، وانصرفت في الحال .

وفي فترة زمنية قصيرة من صباح يوم الإنذار كان جميع أفراد المقاومة الشعبية بأسلحتهم في أماكنهم الدفاعية عن المدينة .

وقبل موعد نهاية الإنذار بزمان قصير - وكنت أستمع إلى إذاعة القاهرة - إذا ببيان من الحكومة المصرية يليق به صلاح سالم وزير الارشاد القومى آنذاك وعضو مجلس قيادة الثورة ، ترفض فيه مصر الإنذار البريطاني .

وبعد إذاعة البيان ، اتصل بى تليفونياً الشيخ محمد فرغلى . تراجع
وابدى استعداداه وشباب الاخوان ، للدفاع عن المدينة وباركت ذلك ،
وكلفته بإعطاء التعليمات لشباب الاخوان . بالنزول إلى الخطوط الدفاعية ،
المخططة شعبياً بمدينة الاسماعيلية .

ويبدو أن جواسيس البريطانيين نقلوا للسلطات الانجليزية مدى
استعدادات وقوة المقاومة الشعبية المصرية حول المدينة كذلك كان لرفض
الحكومة المصرية لذلك الإنذار بهذه الصلابة ، تأثيره الفعال على العقلية
البريطانية ، فقد صرفوا النظر عن احتلال المدينة كما جاء بإنذارهم لتوقعهم
المقاومة العنيفة من أهالى الاسماعيلية .

وفى عملية مخطط لها ومحسوبة ، قامت المخابرات المصرية بتزويد
ريجنل بالملايس المدنية وجواز سفر باسم مزيف ، وخرج من مصر برفقة
أحد ضباط المخابرات إلى دولة أوروبية ، ومن هناك عاد إلى بلده إنجلترا
وأذاع من الإذاعة البريطانية بياناً بحسن معاملة المصريين له .

الحرب النفسية

بجانب أعمال المقاومة العنيفة التى يصحبها تبادل إطلاق النيران
وبعض الخسائر فى الأرواح ، كان هناك أيضاً نوع آخر استمر من بدء
عمليات المقاومة إلى آخر يوم ، وكان أثره فعلاً برغم أنه لا ينتج عنه أية
خسائر فى الأرواح الا وهو الحرب النفسية التى تكلف العدو الكثير من
الخسائر المادية . والأخطر من ذلك ما تسببه لنفسية جنود الاحتلال من
انهيار عصبي وشعور بالقلق وعدم الاطمئنان . وقد مارسنا هذا النوع من
أنواع المقاومة بأسلوب دقيق ومتقن ومدروس من بدء العمل الفدائى إلى يوم
توقيع اتفاقية الجلاء .

١ - حرمان جنود القاعدة من صحافة يوم الأحد والمواد الغذائية

كانت صحافة يوم الأحد ولا تزال لها وضع خاص لدى كل بريطاني . وفي تلك الأيام في قاعدة القناة كانت صحافة يوم الأحد هي وسيلة الجندي البريطاني الوحيدة تقريباً التي تحافظ له على صلاته بناديه الرياضي وحياته الاجتماعية . وقد قررنا بناء على ذلك أن النجاح في حرمان البريطانيين الموجودين بقاعدة القنال من الحصول على صحافة يوم الأحد قد يضيف شيئاً من الضيق النفسي لمجموع البريطانيين الموجودين . وكان الجيش البريطاني يعتمد في الحصول على هذه الصحف على مكاتب التوزيع المصرية فتمكنا بعد الدراسة أن نوقف وصول هذه الصحف إليهم . وفي حالة انصراف الجيش البريطاني عن قنوات التوزيع المصرية أصبح إحضار الصحف خصيصاً للقاعدة يكلفهم الكثير .

وقد مارسنا مثل هذه العمليات المزعجة والمكلفة أيضاً بحرمانهم من كثير من مواد التموين التي كانوا يعتمدون على السوق المصرية في إحضارها لهم .

ب - أساليب أخرى للحرب النفسية

تمكنا خلال هذه المرحلة من جمع معلومات مسبقة عن أماكن الترفيه التي يقيمون فيها حفلاتهم الساهرة وتواريخ ومواعيد هذه الحفلات مثل ليالى عيد الميلاد ورأس السنة ، بالإضافة إلى أماكن حفلات السينما ولذلك تم القيام باستكشاف لطرق الاقتراب من هذه الأماكن والمناطق المحيطة بها والحاكمة عليها من خارج معسكرات الجيش البريطاني . فكنا نقوم باحتلال هذه المواقع الحاكمة بأفراد قلائل من الفدائيين الذين تم تسليحهم بأسلحة أتوماتيكية سريعة الطلقات .

وفي الوقت الذى يبلغ فيه البريطانيون أعلى مراحل النشوة والاستمتاع يقوم الفدائيون بإطلاق نيران أسلحتهم على زجاج النوافذ والمصابيح الكهربائية لأكشاك الحراسة من الخارج والمصابيح الكهربائية بالداخل مع الحرص على عدم إطلاق النيران على الأفراد حتى تكون مثل هذه العمليات ذات طابع خاص ، للإزعاج فقط فينفذ الحفل فى الحال ، فتنتطلق صفارات الخطر . وقبل أن تخرج الدوريات للاستطلاع والمطاردة . ننسحب فى أمان تاركين المحتفلين والساهرين والساهرات فى حالة نفسية مزعجة .

ح - عمليات التخريب

من الطريف أننا تمكنا من القيام بعمليات نسف وتدمير عديدة ضد المنشآت البريطانية بواسطة الأقسام الزمنية التى حصلنا عليها عن طريق السطو على مخازن وقطارات البضائع التابعة للجيش البريطانى وكان استخدام هذه الأقسام الزمنية بواسطتنا هو الاستخدام الأول لها فى مصر وضد أصحابها الأصليين . فتمكنا بواسطة هذا السلاح الجديد من تدمير مستودعات الذخيرة والبنزين والمهمات وطرق مواصلات الجيش البريطانى دون تواجد أفراد الفدائيين عند حدوث الانفجارات .

د - المنشورات

كان هناك طاقم فنى متخصص فى عمل المنشورات سواء من الفنيين المتخصصين فى الرسوم الكاريكاتورية أو فى الصياغة الانجليزية التى تخاطب العقلية البريطانية ، يكتبها مصريون عاشوا شبابهم فى انجلترا ، ويتم كل ذلك فى شركة النيل للاعلان ومنهم السيد على زين العابدين والد الشهيد جواد حسنى وتحت اشراف الزميلين وجيه أباطة وجمال الليثى .

ونقوم نحن في منطقة القنال بواسطة شبكة المندوبين المصريين والفلسطينيين والأجانب المنتشرة في القاعدة البريطانية بتوزيع هذه المنشورات التي كانت تخاطب جنود وضباط الشعب البريطاني وتذكرهم بعدم جدوى الاستمرار في احتلال مصر معرضين أنفسهم للمتاعب وعدم الاستقرار والقتل .

وقد وصل أمر توزيع هذه المنشورات لدرجة أن زوجة القائد العام البريطاني للقاعدة انتابها الذعر حين عثرت على أحد المنشورات تحت وسادها في غرفة النوم .

ختام الكفاح

وفي مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٤ وكنا عائدتين من السويس إلى الاسماعيلية في عربة يقودها الزميل كمال رفعت ومعه سعد عفرة واثنان زملاء كمال رفعت هما الفدائيان : عباس دسوقي وضياء حسنين . وبعد استلامنا صورة من وثيقة هامة من مكتب السويس عبارة عن تقرير عسكري بريطاني عن الاجراءات البريطانية التي سيتخذونها في القاعدة إذا ما تمت عملية المفاوضات وإلى حين الجلاء الكامل . وضعنا هذه الوثيقة في مظروف تحت المقعد الخلفي للعربة . وكقاعدة عامة كنا جميعاً مسلحين . اتخذنا طريقاً فرعياً عند أبي سلطان في الصحراء حتى نتحاشى نقط التفتيش البريطانية خوفاً على الوثيقة . فوجئنا بأنوار قوية تضاء فجأة في مواجهتنا صادرة من عربة داورية بريطانية . توقفنا بإشارة من أحد الجنود البريطانيين يعلق سلاحه (البندقية) على كتفه . نزلنا نحن الثلاثة كمال رفعت وسعد عفرة وأنا وانتظر في المقعد الخلفي بالعربة الاثنان الآخران . وكان بالعربة البريطانية جنديان آخران لم يظهر أى سلاح معهما . تركنا الجندي البريطاني المترجل واقفين واتجه إلى عربتنا وعند ذلك تكلم كمال رفعت وأشار لنا بالاستعداد للمقاومة

وتفاهمنا على توزيع الأدوار بالاشارات بيننا نحن الثلاثة وأنا سنتعامل مع الجنديين الجالسين في العربة إذا قام الجندي المترجل بتفتيش العربة وعلى عباس شوقي وضياء حسنين قتله في الحال إذا حاول ارغامهما على النزول من العربة للتفتيش . نظر الجندي البريطاني داخل العربة في الكرسي الأمامي وخاطب عباس وضياء ثم قال فجأة وبصوت عال مخاطباً زميليه في العربة البريطانية O.K (لاتسىء هناك) واستأنفنا الرحلة إلى الاسماعيليه بأعصاب مشدودة من الموقف المفاجيء خصوصاً وأنا كنا نريد أن نضع هذه الوثيقة أمام المفاوض المصري لأن بها تقديراً للموقف البريطاني يقول « إنه لا فائدة من القاعدة عند قيام حرب وسط شعب فعاد يقاومنا بهذه الضراوة » .

ولم يعد سراً أنه قد جاء بالوثيقة أيضاً أنهم كانوا سيعتمدون على الماطلة في الجلاء حتى بعد توقيع الاتفاقية على أساس أنهم يتوقعون خلافات بين أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد ذهاب محمد نجيب .

وفي نفس اليوم مساء عندما وصلنا إلى مكتب المخابرات بالاسماعيليه ، وكنا نستمع إلى أنباء الثامنة مساء أعلن المذيع عن اتمام التفاهم على جلاء الجيش البريطاني عن مصر نهائياً نتيجة المفاوضات وأن التوقيع الأولي على الاتفاقية قد تم ذلك اليوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ .

مقاومة اتفاقية الجلاء

بعد ابرام اتفاقية الجلاء ظهرت في مصر بعض العناصر المتبرمة من الاتفاقية والمعارضة خصوصاً من البنود الخاصة بموافقة الجانب المصري على وجود قاعدة بريطانية بجميع معداتها ومخازنها في منطقة القنال يديرها عدد محدود من البريطانيين في ملابسهم المدنية وكذا من البند الخاص بإعادة

النشاط للقاعدة في حالة نشوب الحرب أوفى حالة اشتراك تركيا في حرب .
انعكس هذا الرفض في منطقة القنال واستمرت عناصر الرفض - وكان
معظمها من الاخوان المسلمين - في احداث قلاقل في منطقة القنال كما تم
نسف بعض الكبارى والطرق . وكان رد الدولة حاسماً باعتقال الفاعلين .

مراسل صحفى فى السودان

بعد التوقيع على اتفاقية الجلاء فى ٢٧/٧/١٩٥٤ أنهت أعمالى فى مكتب مخبرات الاسماعيلية ، وعدت للعمل بالقاهرة وهناك علمت أن مهمتى القادمة هى العمل فى السودان وأنتى سأعمل كمراسل صحفى لجريدة الجمهورية ومندوباً لشركة الاعلانات المصرية التابعة لدار الجمهورية .

وقبل توجهى إلى السودان أمضيت شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ فى التعرف على شخصيات هامة ، تعمل فى السودان ولكنها كانت فى مصر حينذاك بسبب مأموريات أو إجازات . وكان من أهم هذه الشخصيات حسين ذو الفقار صبرى عضو مجلس السيادة بالسودان والرحوم الاستاذ عبد العزيز السيد وكان وقتها يشغل منصب المدير المصرى لجامعة الخرطوم قبل أن يصبح وزيراً للتربية والتعليم وهو أصلاً أستاذ فى العلوم الرياضية بالكلية الحربية ، كما تعرفت إلى الأستاذ صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالخرطوم وغيرهم ممن أفادونى كثيراً فى تسهيل عملى الصحفى والسياسى فى السودان بعد ذلك .

ومن خلال دراساتى ومقابلاتى وأحاديثى التى قمت بها تمكنت من وضع ملخص للموقف العام فى السودان وعلاقاته بمصر . وعلى أعتاب توجهى إلى السودان كانت عوامل كثيرة تعمل فى صالح مستقبل العلاقات مع مصر .

فالحزب الوطني الاتحادي (حزب الأزهرى ونور الدين) وهو حزب الأغلبية البرلمانية تنكر لمبدئه وهو الوحدة مع مصر وأصبح ينادى بالانفصال عن مصر أملاً في الاستقلال كلية . ونظام الحكم المصرى لا يحظى في السودان برضا أحزاب الأغلبية ولا أحزاب الأقلية . وكذلك الرأى العام يؤيد الاتجاه الانفصالى لتأثره بتصرفات ثورة ٢٣ يوليو مع صديقهم الرئيس محمد نجيب . وبريطانياً تلعب دوراً مستتراً في محاولة إقناع الرأى العام السودانى بأن أفضل الحلول للسودان هو الحصول على استقلال مرتبط بالتاج البريطانى ، ولو في شكل بقاء الحاكم العام البريطانى كالنظام الذى كان معمولاً به في الهند . وكانت بريطانيا على اتصال وتعاون وثيق مع أتباع المهدي زعيم طائفة الأنصار وحزب الأمة .

وعلى ضوء هذا الموقف تحددت تفاصيل مهمتى وعلى رأسها الإجابة عن سؤال هام جداً هل هنالك أمل في الوحدة ؟ أم انقطع الأمل تماماً ؟ كما كان على أن أدرس جذور الوضع المتردى وموقف التيارات المختلفة ضد الوحدة وأسباب تلك الحقيقة وهى بالتجديد مواقف الأحزاب التى تنادى بالانفصال وتلك التى تنادى بالوحدة ، وكذلك مواقف طوائف أتباع المهدي والخاتمية أتباع الميرغنى .

ولكى أتمكن من الحصول على الإجابات الصحيحة لمهمتى كان لابد لى من تكوين دائرة واسعة من المعارف يكون لها اتصالات وثيقة وقريبة من معظم التيارات السياسية الموجودة في السودان . وفي أول يناير سنة ١٩٥٥ سافرت إلى الخرطوم بعد أن سبقنى إلى هناك مساعداى ، صديقى زميل الدراسة محمد وكان أبوه سودانياً ومساعدى الآخر عبد الفتاح فرج وهو صرى ، وأصلاً من قبيلة الدنكا بجنوب السودان .

وعند وصولي للخرطوم توجهت لزيارتها وكانا قد أقاما بفندق يملكه رجل سوداني خفيف الظل سبق له العمل في البوليس المصري وشهرته (كيشو) . وكان الفندق ملتقى الشباب المثقف في الخرطوم فهو مكانهم المفضل وخاصة اليساريين السودانيين . كما كان المكان المفضل لإقامة أعضاء البرلمان الجنوبيين .

وتوطدت علاقتي بعدد كبير من شباب السودان المثقفين ومعظم السياسيين الجنوبيين والكثير من عناصر الحزب الوطني الاتحادي الذين تمسكوا بمبدأ « الوحدة مع مصر ثم استطعت من خلال المعارف والأصدقاء المقربين توسيع دائرة معارف أكثر لتشمل عناصر الجناح الموالي لمصر (جناح نور الدين) داخل الحزب الوطني الاتحادي وتمكنت من التعرف إلى بعض أعضاء البرلمان الشماليين والجنوبيين وكذلك شملت دائرة معارف العديد من المصريين خاصة المدرسين ، ومهندسي الري .

وكانت هذه الدائرة الواسعة المعارف مصدراً هاماً لمعرفة حقيقة الأوضاع بالسودان وبعد فترة أخرى وجيزة توطدت علاقاتي وصداقاتي بكثير من العناصر السياسية السودانية الذين كانت لهم مواقف معادية من الوحدة مع مصر ، ولذلك فقد كانوا في كل المناسبات يعبرون - بصدق - عن حبهم لمصر وللمصريين . وكنت اعجب لذلك في بادئ الأمر حتى نبهتني الواقعة التالية ، التي عبر فيها الشعب السوداني - تلقائياً - عن ذلك التناقض .

واقعة سينما الخرطوم

حضرت في إحدى الأمسيات عرضاً سينمائياً بإحدى دور العرض بالخرطوم وحين عرضت الجريدة الإخبارية الناطقة في بداية العرض، ظهرت ملكة بريطانيا في إحدى الفقرات وفي إحدى المناسبات البريطانية . وكانت

تمتطي صهوة جواد من خيول الحرس الملكي المطهمة وترتدى ملابس الحرس الملكي الملونة الفخمة فتؤدي التحية العسكرية للحرس المصطفى أمامها في خيشوع ونظام . عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة بالشعب السوداني ، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقاً شديداً وهمهمون استحساناً وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبد الناصر وهو يخطف في الجماهير المصرية وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية عليه وهو في حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس فما كان نفس الجمهور السوداني إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمراى عبد الناصر .

كان هذا رد فعل تلقائياً لا يعبر عن حب أو سخط الشعب السوداني لبريطانيا أو مصر ، ولكنه انعكاس صادق لمدى ما صنعه الاستعمار البريطاني في نفسية الشعب السوداني بحيث شوه العلاقة الاخوية المصرية السودانية .

الرجوع إلى التاريخ

بعد هذه الواقعة راجعت تصرفات مجموعة الأصدقاء السودانيين وبخاصة العناصر السياسية وقد تأكدت أن هناك تناقضاً في جذور الفرد والشعب السوداني . ثمة أحداث تاريخية على مدى الزمن منذ الوجود المصري في السودان حفرت بعمق في هذه العلاقة التاريخية وتركت آثاراً طيبة وأخرى سيئة ، كما أن هناك أسباباً تاريخية مفتعلة تسبب فيها أحد الأطراف الخارجية وهو الذي طرأ على الوجود المصري بالسودان . وأعنى الاحتلال البريطاني لمصر والسودان . لذلك تفرغت كلية لقراءة تاريخ السودان الحديث منذ حملة محمد على باشا على السودان سنة ١٨٢٢ . وكان ما أثارنى في هذا المجال سرعة التحول للرأى العام السودانى . من تأييد

شبه اجماعى للوحدة مع مصر عقب ابرام اتفاقية السودان في ١٢ / ٢ / ١٩٥٣ ، إلى موقف شبه عدائى لمصر وللوحدة وقبل مضى أقل من سنتين على هذا التأيد .

القوى المؤثرة في المجتمع السودانى

عبر تاريخ السودان منذ حملة محمد على باشا حتى تاريخنا المعاصر كانت تلك القوى ولا زالت حتى وقت وجودى بالسودان هى :

أولاً : الطوائف الدينية والتي توطد نفوذها من خلال موجة دخول الطرق الصوفية إلى السودان على أجنحة الدعوة الإسلامية .

ثانياً : الوجود المصرى الأخرى في السودان منذ حملة محمد على .

ثالثاً : التيارات والتنظيمات والأحزاب السياسية التي أخذ دورها في الوضوح والتكوين لفرض وجودها بجانب الطائفية ذات الجذور العميقة في المجتمع السودانى .

رابعاً : الاحتلال البريطانى لمصر والسودان .

أولاً : الطوائف الدينية

انتشر الاسلام في السودان عن طريق الطرق الصوفية . وحتى وقت حملة محمد على ، كانت الطرق الصوفية في السودان هى البديل للحكومات المركزية . حيث كانت تجمع بين السلطتين الدينية والإدارية .

وقد دخل التصوف إلى السودان على يد الشريف أحمد أبودنانة ، وبدأ من بربر ثم تعددت بعد ذلك مختلف الطرق الصوفية وكان من أبرزها في هذا العصر .

الطريقة الادريسية

كانت هذه الطريقة أكثر الطرق الصوفية تأثيراً في السودان والذي أدخلها هو السيد أحمد بن إدريس الفاسي دون أن ينزل أرض السودان . وكان من أبرز تلاميذه محمد عثمان الميرغني سنة ١٩٧٣ / ١٨٥٣ وهو الذي كون الطريقة (الختمية) والتي انتشرت في شمال وشرق السودان (الميرغنية) .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى تطوع على الميرغني زعيم الختمية بتوقيع وثيقة ولاء لبريطانيا ونشرت في عدد خاص من جريدة (السودان تايمز) (٤ اغسطس سنة ١٩١٥) ووقعها معه الشيخ محمد مصطفى الميرغني والسيد الشريف يوسف الهندي جاء فيها « أننا شهدنا عياناً ما كان يجري فيما سلف مدة الأتراك (يقصد المصريين) من الجور والفجور والاستبداد في الأحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والقتل والإهلاك والإهانة وحكمنا الاتراك (لم يدخل السودان عسكري تركي إطلاقاً) وال دراويش (هذا التعبير - الدراويش - أشاعه البريطانيون لأن محمد أحمد السيد كان يعارض بشدة تسمية انصاره بالدراويش لأنهم جنود فكر وعقيدة وليسوا جنود دروشة وغيوبة وأحلام) وغيرهم فلم نجد عدلاً مثل ولادة أمورنا الانجليز الحاضرين الوفيين العاملين » .

هذه الطريقة الختمية بحكم تعاليمها الدينية كانت تقوم على يد مؤسسها محمد عثمان الميرغني بدورها الديني ، ومع تصاعد الاتصال الحضاري السوداني المصري من انتشار التعليم في السودان على يد الحكومة المصرية السودانية والثقافة بواسطة المدارس العسكرية المصرية السودانية بالسودان والمتعلمين السودانيين بالأزهر ، سايرت الطائفة الختمية النهضة الصاعدة وكان لها دور يمتشى مع سياسة الحكومة ، وبالتالي حتمت عليها

الظروف توطيد العلاقة مع مصر فيما قبل الثورة المهدية . وكان لها موقف سلبى من الحركة المهدية فى بدء ظهورها ثم انقلب إلى موقف معادى للمهدية خوفاً على مركزها الشعبى .

وبعد انتصار المهدي فى معركة الجزيرة (اغسطس سنة ١٨٨١) . أيدت المهدي وأخذت موقفاً سياسياً محايداً مع مصر على أساس التمشى مع ما يؤكده المهدي من أن حركته هى ثورة ضد الأتراك وجنود الأتراك الخاضعين للسيطرة البريطانية وبعد وفاة محمد أحمد المهدي تولى وزيره الأول الخليفة عبد الله التعايشى ووقف أخوات المهدي وأسرتة وأقاربه ضد التعايشى تطلعاً لوراثته عرش المهدي وطمعاً فى الدنيا انحاز على الميرغنى زعيم الختيمية للتيار المضاد للخليفة وكانت الطائفة الختيمية تسيطر على شرق السودان .

وعلى يد السياسة البريطانية انغمست الختيمية فى السياسة بعد هزيمة المهدية فى المعارك الفاصلة فى كررى (١٨٩٨) . وقامت بدور الانتهازية السياسية ، وأبدت المحتل البريطانى ضد الخليفة وضد مصر .

واستمرت الختيمية فى لعب هذا الدور الانتهازى ، فعندما تخلى عنها الاستعمار تماماً ، ووضع كل ثقله على عبد الرحمن المهدي – انقلب الميرغنى مرة أخرى لتأييد مصر سنة ١٩٥٣ وبعد عام سنة ١٩٤٨ ظهرت فى أفق القوة السياسية الصاعدة فى السودان ، رغبة الكثير من السودانيين فى الابتعاد عن الارتباط بمصر ، وتشكلت جهة وطنية لذلك ، وسرعان ما ركب موجتها على الميرغنى وساتنها . وأخيراً ، عندما شرع محمد نجيب فى حل قضية السودان دعا الزعيمين الطائفيين وزعماء الأحزاب بمصر للحصو على تأييد الجميع لفكرة تقرير المصير والاستفتاء على الوحدة أو الاستقلال .

حضر الجميع وزاوغ على الميرغنى ولم يحضر . ولوح بأنه يبارك اتفاقية السودان (١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) ولكنه سرعان ما حركته الأصابع الخفية ، ووقف وزراء حكومة الأزهرى الخاضعين للختمية موقفاً معادياً للوحدة بصورة سافرة . ثم تظاهر الأزهرى بعد ذلك بموقف سليم من عملية تقرير المصير . وفي نفس الوقت كان مباركاً لعملية الانفصال !

الطريقة السمانية

أدخلها إلى السودان أحمد الطيب البشير ، وعندما تولاه حفيده محمد شريف الدائم كان أستاذاً للإمام محمد أحمد المهدي الكبير ، وعرفت بعد ذلك باسم الطريقة المهدية .

وبالإضافة إلى هاتين الطريقتين البارزتين ، كانت الطرق المجنوية ، والقادرية ، والشاذلية ، والاسماعيلية . وجميع هذه الطرق الصوفية هي التي حفظت ونشرت الإسلام في السودان . ومع زيادة التدخل الاستعماري في مصر في أواخر عصر اسماعيل باشا انعكس ذلك على الوجود المصري في السودان .

أخذ محمد أحمد المهدي منشئ الطائفة المهدية يواجه هذا الخط بالثورة على القهر والذل وهذا ما اعتبره التدخل الاستعماري في مصر في أواخر عصر اسماعيل وأوائل عصر توفيق تمرداً مما جعل مصر المغلوبة على أمرها ترسل الحملات العسكرية المتتالية للقضاء على هذه الثورة (وكانت هذه الحملات ترسل إلى السودان تحت قيادة الضباط البريطانيين والأجانب . ويصرف عليها من أموال مصر) وكانت الطريقة أو الطائفة المهدية تقوم وحدها بهذا الدور إلى أن تحقق أول انتصار لها على قوات الحكومة في معركة الجزيرة في ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ ، فلفتت الأنظار إليها لأنها حققت كل ذلك تحت راية

الجهاد فآمنت بالثورة المهدية كل الطوائف والملل داخل السودان حتى القبائل الوثنية بالجنوب وتوحد الشعب السوداني تحت راية الجهاد .

وتفجرت أحداث ثورة عرابي في مصر فتجاوبت الثورة المهدية مع كفاح عرابي ، وخاصة عندما قام شيخ الأزهر الشيخ محمد عليش بإدانة الخديو توفيق بالخيانة . وأصدر فتوى بخلع الخديو وعرف أن المهدي قبل وفاته كان قد أصدر أمره بحملة تتوجه إلى مصر لتحريرها (٢٦ مايو سنة ١٨٨٥) وهو ما فعله خليفته عبد الله التعايشي . وقد وصلت جيوش الخليفة إلى جرجا بمصر كما أن محمد احمد المهدي طلب إلى أعوانه المحاصرين للخرطوم . بأن يأتوا له بالقائد البريطاني جوردون حياً . إذا وقع في أيديهم أسيراً ليفتدي به البطل المصري المنفي احمد عرابي « ويستمر الثائر المسلم محمد احمد المهدي في رفع راية الجهاد حتى وافته المنية بعد اربع سنوات من الكفاح وبعد تحرير الخرطوم بخمسة شهور فقط حقق فيها استقلال السودان لمدة ١٣ سنة تقريباً ، وأثبت عن جدارة أنه قام بثورته لتخليص المستضعفين من القهر والظلم والتخلف .

الخليفة عبد الله التعايشي

وقبل وفاة الثائر محمد احمد المهدي بمدة قصيرة كان أحس بخطورة أقراره وإخوانه وطمعهم في وراثة دعوته وكفاحه لأجل المغانم فقط خصوصاً بعد ما تكشف له تواطؤهم مع حارس بيت المال أحمد سليمان . أعلن تبراها منهم وبايع وزيره وقائده الأول عبد الله التعايشي . ويعد وفاته سنة ١٨٨٥ تحرك الحقد والغيرة وطمع الدنيا في نفوس أهل المهدي وعشيرته فانقلبوا ضد الخليفة في الوقت الذي كانت فيه الثورة في أوجها . . ودارت معارك ضارية بين الأشراف (عشيرة المهدي وإخوانه) والخليفة التعايشي وبدل أن يركز

الخليفة على الخط الخارجى بدد جهوداً جبارة فى مقاتلة الأشراف الذين ناصبوه العدااء فى مختلف أنحاء السودان وانضمت إليهم بعض الطوائف والقبائل وكانت النتيجة الحتمية هزيمته على يد البريطانيين سنة (١٨٩٨) الذين لعبوا دوراً حاسماً فى بذر بذور الشقاق داخل السودان ووقف الختمية منه أيضاً موقفاً معادياً بتأليب أطماعهم ضده .

هزيمة مشرفة

حاصر الزحف البريطانى جيش الثورة المهديّة بأحدث الأسلحة من الشمال والجنوب والشرق وفى مواجهة الأسلحة المتخلفة للثورة المهديّة ، وأخيراً سقطت مزكة فى ٧ / ٦ / ١٨٩٦ ، ثم دنقلة وعطبرة فى ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ ، وأخيراً كررى وهى المعركة الفاصلة فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقام أبطال السودان فيها بخوض معركة ضارية وغير متكافئة بصدورهم وأسلحتهم المتخلفة بمشاركة الجماهير ، وصمدوا حتى الرمح الأخير .

عبد الرحمن المهدي وفترة التنكيل

ولد عبد الرحمن المهدي بعد وفاة والده محمد أحمد المهدي باثني عشرين يوماً فقط . لم ير والده الشائر ، ولم يتزود بتعاليمه وخلقه وتقشفه . وكانت سنوات طفولته هى سنوات الخلاف الحاد بين أهله والخليفة التعايشي .

امتلات نفسه مرارة من السلطة الثورية كما عاصر استجداء أفراد أسرته لمرتباتهم المتواضعة من الخليفة وشاهد أهله يدخلون السجون ويوضعون فى القيود ، ثم عاصر حملة الانجليز الرهيبة بالتنكيل بعد هزيمة الخليفة حيث أعدموا على مرأى منه عمه وأخواته الكبار وحرموا عليهم دخول معقل المهديّة فى (أبا) وشاهد بعينه هدم الانجليز لمقبرة والده والتمثيل بجثته

وحرقها بعد فصل رأسه . وولد كل ذلك في نفسه اليأس من معاندة الاجليز لأنه لا سبيل لمقاومتهم .

كان في شبابه يقيم في أم درمان ويتقاضى مرتباً من الحكومة خمسة عشر جنيهاً شهرياً . وتبعاً للمخطط البريطاني بعد تغير الظروف الدولية في أوائل أيام الحرب العالمية الأولى وكانت بريطانيا قد قضت تماماً على مضمون الثورة المهدية .

كانت الأوضاع البريطانية الدولية والحربية تقضى باستمالة الطوائف السودانية الإسلامية بعد استثنائها ، وتلاقت الأهداف البريطانية مع نفسية عبد الرحمن المهدي اليائسة وذهب عبد الرحمن المهدي للانجليز بعرض خدماته وسمح له الانجليز بالعودة إلى جزيرة (أبا) لضان ولاء الشيوخ والعشائر ضد الدعاية التركية التي كانت تنادى بالجهاد ضد المستعمرين وبعد نجاح عبد الرحمن المهدي في مهمته الانجليزية أغدقوا عليه المال المغري بعد أن أعمال سيفه فيهم بالتنكيل والتشريد والحرمان . وأعطى الانجليز عبد الرحمن المهدي ستينائة فدان ومبلغ ٤٥٠٠ جنيه كقرض ثم اعتبروه هبة في ١٩٢٦ . وفي سنة ١٩٣٣ كان عبد الرحمن المهدي يمتلك ١٣ ألف فدان وجاء بآتباعه إلى الجزيرة لا ليتلقوا تعاليم الجهاد الإسلامي ولكن ليعملوا بالأجور الزهيدة في أرضه كعمال حتى بلغ عددهم في عام ١٩٣٣ حوالى ٤٥٠٠ عامل وتحول ابن الشائر إلى زعيم للثروة بدلاً من الثورة .

المهد ختمية

لم يقف المخطط البريطاني عند حد وخصوصاً في غيبة من الوجود المصرى المحتل في بلده . فعندما دخلت تركيا الحرب مع ألمانيا وناشدت تركيا دولة الخلافة بإيعاز من ألمانيا بنشر دعوة الجهاد الإسلامى في الولايات

التركية اسماً والخاضعة للاستعمار البريطاني هادفة لإحداث القلاقل في المستعمرات البريطانية ذات الأغلبية المسلمة ومن ضمنها بصفة خاصة السودان . أسرع البريطانيون بمواجهة المخطط الألماني التركي خوفاً من تدهور الأوضاع في السودان وبالتالي في باقي مستعمراتهم الإسلامية واستخدموا نفس الطوائف الدينية في السودان وعملوا على التقارب بين الطائفتين الكبيرتين في السودان الختمية والمهدية .

وأعلن البريطانيون عودة السيد على الميرغنى من سواكن . وكوفئ هو الآخر بتخصيص مرتبات له ولعائلته ومنحه الأراضي الزراعية . وعاد ليزر فضل المساعدات البريطانية وآلت ملكية جريدة « حضارة السودان » الناطقة بلسان السلطة البريطانية في السودان إلى زعماء الطوائف على الميرغنى وعبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي على شكل شركة وجاء في افتتاحية العدد الأول لهذه الجريدة « اما سياستها الداخلية فستدير رحاها على ركن التوفيق بين الحاكم (البريطاني) والمحكوم « الشعب السوداني » وفي مواجهة تجاوب الشعب السوداني مع ثورة مصر سنة ١٩١٩ أعلنت « صحيفة الحضارة » (يونيو سنة ١٩١٩) « أن وفداً من سراة البلاد سيتوجه إلى إنجلترا لتهنئة الملك بانتصار إنجلترا في الحرب » (بعد أن انتهت الحرب بمدة) فعلاً ذهب الزعماء السودانيون إلى لندن لمواجهة الوفد المصري والذي يطرح « وحدة وادي النيل » وعبر وفد الولاء لبريطانيا « عن رغبتهم في انفراد بريطانيا بحكم السودان » وعليه أكدت بريطانيا على استبعاد السودان من القضية المصرية في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

ثانياً : الحركة الوطنية وتخطى الطائفية

كان للوجود المصري الحديث في السودان وبنفس القدر الوجود

السودانى فى مصر أثر كبير فى نمو الحركة الوطنية الحديثة فى السودان بما عمله من فكر ووعى ثقافى وطنى وسياسى . وساعدت الأزمات السياسية التى كان يفتعلها الاستعمار فى مصر المحتلة والسودان المحتل إلى اشتعال جذوة الوطنية السودانية وإلى الخروج من التقوق داخل الطرق الصوفية والطائفية التى أعلنت الولاء فجأة للمستعمر البريطانى بعد كفاح طويل واستقلال دام على يدها لمدة ١٣ عاماً عندما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وذهب الوفد المصرى إلى مؤتمر باريس للمطالبة بالاستقلال .

تجاوبت الحركة الوطنية السودانية الجديدة مع الثورة المصرية وقامت المظاهرات الصاخبة فى السودان مطالبة بوحدة وادى النيل وكان على رأس المتظاهرين الضابط السودانى المتقاعد محمد أمين هديب .

عقب تصريح بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت جمعية « الاتحاد السودانى » وكان لأحد الضباط المصريين (محمد فتوح) علاقة بها وهو فى نفس الوقت كان صديقاً للبطل الضابط السودانى على عبد اللطيف وكانت هذه الجمعية تجمع المثقفين السودانيين ونظمت مظاهرة مطالبة أيضاً بوحدة وادى النيل ، وأحيل الضابط عبد اللطيف إلى المعاش . وكون جمعية سرية جديدة اسمها « اللواء الأبيض » وكان من ضمن تنظيمها عدد كبير من موظفى البريد والتلغراف والتليفونات (حققوا سرعة الاتصال ونشر الدعوة الوطنية) . وفى مواجهة التجمع الطائفى الاستعمارى عند نشرهم وثيقة الولاء لبريطانيا ، وتأكيدهم فى هذه الوثيقة على اختيارهم لبريطانيا دون مصر . وقادت « اللواء الأبيض » المظاهرات ضد بريطانيا والطائفية المتعاونة معها خصوصاً بعد اعتقال السلطات البريطانية لندوبى « اللواء الأبيض » بسبب السفر إلى مصر للمطالبة بوحدة وادى النيل .

عمت المظاهرات الخرطوم وأم درمان ووادي مدني وحلفا والأبيض
وبورسودان ومالكال وكسلا وكان المتظاهرون السودانيون يرفعون العلم
الأبيض وخريطة النيل واعتقل على عبد اللطيف في ٤ / ٧ / ١٩٢٤ وحكم
عليه بالسجن واندلعت الثورة (سنة ١٩٢٤) في السودان مؤكدة على المطالبة
بوحدة « وادي النيل » ومتخطية عمال الطائفة المتعاونة مع الاستعمار . وخرج
طلبة الكلية الحربية السودانية في مظاهرات وطنية نظامية ويشغل حماس
الجمهير لمنظرهم ٩ / ٨ / ١٩٢٤ .

بعد انسحاب الجيش المصري من السودان سنة ١٩٢٤ طبق للإنذار
الذي قدمه الانجليز لحكومة مصر على أثر اغتيال السردار ، انفراد الانجليز
بالسودان ، وأخذوا يثرون طائفتي الختمية والمهدية الجديدة (المهدى ختمية)
لتوسيع شقة الخلاف بين مصر والسودان . ومع ذلك استمرت القوى
الوطنية السياسية في التجمع والانتشار إلى أن تكون أول تنظيم سياسي
وطني عام ١٩٣٨ .

في عام ١٩٣٨ تكون المؤتمر القومي العام للخريجين يضم الخريجين
السودانيين من مراحل التعليم المختلفة ويوجد هذا التنظيم مقاومة من الحكومة
في سنة ١٩٤٢ طالب مؤتمر الخريجين السلطة الحاكمة بحق تقرير المصير
وقبول بما يشبه الرفض وعلى أثر ذلك انشق مؤتمر الخريجين إلى :

(أ) المعتدلين وأغلبهم من العناصر ذات الولاء للمهدى ختمية وكان
على رأسهم ابراهيم أحمد وكانوا على صلة بشكل أو بآخر بالحكومة
ويؤيدونها .

(ب) المتشددین : وكانوا من القوى السياسية الوطنية وكانوا يطالبون
بأخيرة وحق تقرير المصير يزعمه اسماعيل الأزهري وتحارب الرأي العام

السوداني مع الأزهرى فكون حزب الأشقاء وكان هدفه الاتحاد مع مصر . وكانت الختمية فى هذا الوقت تأخذ جانب التقارب مع مصر غير من المهدي فكان حزب الأشقاء تحت رعاية الختمية (على المرغنى) وكانت مصر تؤيد هذا الحزب . والجانب الآخر من الخريجين انضم تحت لواء عبد الرحمن المهدي . وكونوا حزب الأمة برئاسة ابنه صديق المهدي وكان هذا الحزب ينادى باستقلال السودان التام (السودان للسودانيين) . .

● سنة ١٩٤٨ قاطع حزب الأشقاء انتخابات الجمعية التشريعية التي أقامها البريطانيون وعارضتها حكومة مصر ، ونظم الحزب المظاهرات ضد الجمعية التشريعية واعتقل زعيم الحزب اسماعيل الأزهرى .

● ثم قامت الختمية بتبنى فكرة تكوين جبهة وطنية ، وكان ذلك نتيجة صراع داخل حزب الأشقاء وكانت هذه الجبهة الوطنية تدعو إلى عدم الارتباط الكامل بمصر . وكانت تحت رعاية الميرغنى .

● سنة ١٩٥١ تكون الحزب الجمهورى الاشتراكى يعارض الاتحاد مع مصر .

● بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قام الرئيس محمد نجيب بالمبادرة لحل قضية السودان وعمل على جمع الشمل السودانى واندمج حزب الأشقاء مع الجبهة الوطنية فى الحزب الوطنى الاتحادى بزعامة الأزهرى .

وقد خرج الحزب الوطنى الاتحادى فجأة بإعلان استقلال السودان الكامل ومعارضاً الوحدة مع مصر مدعياً الظروف السابق الإشارة إليها .

(ثالثاً) تاريخ اللعبة البريطانية فى السودان

بدأت الأطماع البريطانية فى السودان عقب احتلالها لمصر عام ١٨٨٢

وكان للسودان وضع خاص بالنسبة للوجود المصرى بها بموجب « القرمات
السلطاني التركى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بنقل ولاية مصر على السودان » .
توالت على السودان أحداث الثورة المهدية حتى استطاع محمد أحمد المهدي
أن يحقق انتصارات متتالية وكانت الجيوش المصرية تسيطر على أجزاء كثيرة
من السودان . وبخاصة فى الشرق .

وانتهزت بريطانيا الفرصة لابتلاع السودان من يد الامبراطورية العثمانية
المنهارة ، ومن الولاية المصرية المحتلة فقرضت على مصر إخلاء السودان .
لكن رئيس الوزراء المصرى شريف باشا رفض إخلاء السودان بموجب
فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ لأنه يحظر على مصر التصرف فى الأقاليم
السودانية . كان ذلك بموجب مذكرة أرسلها شريف باشا إلى سير أفلين
بارنج فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ثم استقال شريف باشا بضغط بريطانيا
وتولى نوبار باشا الوزارة فتعد ما طلبه الانجليز بإخلاء السودان سنة
١٨٨٤ .

ولأجل الانفراد كاملاً باحتلال السودان فرض على الحكومة المصرية
الحاضنة تماماً للإرادة البريطانية توقيع وثيقة استعمارية بين حكومتى بريطانيا
ومصر ، ووجدت بريطانيا فى رئيس وزراء مصر الضعيف الشخصية بطرس
غالى الرجل المناسب لتسليم مقدرات السودان إلى السلطة البريطانية .

وبعد ستة أشهر من توقيع الاتفاقية الأولى وكانت مادتها الأولى تعترف
بحق رفع العلم المصرى فقط على سواكن والتي لم ينسحب منها الجيش
المصرى طول فترة الثورة المهدية . أبرم كل من كرومر وبترس غالى مرة أخرى
فى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اتفاقاً آخر أنهى بشكل الوجود المصرى كلية من
سواكن أيضاً . وهذا هو ما يطلق عليه اتفاقية سنة ١٨٩٩ .

اللعبة البريطانية بمياه النيل

منذ تثبيت اوضاع الاستعمار البريطانى فى السودان وطبقاً لاتفاقيتى سنة ١٨٩٩ المشؤمتين ، فقد أكدت هاتان الاتفاقيتان على أن يكون الحاكم العام للسودان بريطانياً . وفى نفس الوقت سردارا للجيش المصرى حتى يضمن الانجليز السيطرة على أوضاع الجيش المصرى أيام محمد على ، وبموجب هاتين الاتفاقيتين تنبه البريطانيون إلى أهمية مياه النيل بالنسبة لمصر بالمقام الأول ثم السودان وإمكان اللعب بها .

وكان المخطط البريطانى والمتحكم فى أمور مصر والسودان يختص مصر بالنصيب الأكبر من مياه النيل وبشكل مبالغ فيه لأسباب فى نفس يعقوب وليس من أجل مصالح مصر . فمصر اعتبرها الانجليز منذ الاحتلال مزرعة القطن التى تشغل مصانع الغزل والنسيج فى بريطانيا . . وكان من مصلحتهم ازدهار الزراعة فى مصر حتى تزدهر صناعة وتجارة المنسوجات فى بريطانيا وفى نفس الوقت لم تكن السودان وقتها فى حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لتخلف الأمور الزراعية فيها . كما أن بريطانيا درست نفسية الشعب المصرى الذى تعد الزراعة بعداً أساسياً فى حياته فهى تقدر مدى حرصه على المياه .

فى عام ١٩٢٩ أبرمت اتفاقية مياه النيل مع مصر ونالت مصر نصيب الأسد من مياه النيل على حساب السودان . وهذا التمييز ترك أثراً سيئاً على نفسية القوى الوطنية السودانية الحديثة على مر الزمن . فى نفس الوقت عمل البريطانيون منذ وجودهم فى السودان على إقامة مشروع الجزيرة وأنشأوا فيها زراعة القطن بغرض منافسة السودان لمصر فى هذه الزراعة وطرح إمكانية حصول السودان على نصيب أكبر من مياه النيل على حساب حصه

مصر المبالغ فيها ، لذلك عقب مقتل سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان على يد الوطنيين في القاهرة .

قدم البريطانيون إنذاراً إلى حكومة سعد زغلول ، ومن ضمن شروطهم إعطاء السودان كمية مفتوحة من مياه النيل ، مما أوجد بعض المرارة لدى المصريين وأعطت حقاً مستقبلاً للسودانيين يصعب استرجاعه منهم بواسطة المصريين .

هذه اللعنة البريطانية الخبيثة خفيت ابعادها في وقتها عن عقلية المصريين والسودانيين ، ولكن ثارها ظهرت بعد اتفاقية السودان (٢ فبراير سنة ١٩٥٣) فعندما عقدت مفاوضات مياه النيل بين مصر والسودان بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٥٥ ظهرت جذور ما حفره الانجليز من تناقض بين المطالب المصرية والحقوق السودانية . وفشلت هذه المفاوضات بشكل مأساوى مما كان له أثر بالغ على العلاقات المصرية السودانية بل إنها كانت من الأسباب الرئيسية في استبعاد فكرة الوحدة مع مصر .

أول عملية بالسودان

كان الأستاذ صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهى جريدة باللفة الانجليزية تصدر في السودان ، وكان المدير بريطانياً أقام بالسودان مدة طويلة جداً . وعلمت من صلاح محمد على أن لهذا الرجل نشاطاً اجتماعياً ورياضياً واسعاً فهو حريص على سباق الخيول ويقوم بالتحكيم أثناء السباق وعند متابعة أخبار ونشاطات هذا الرجل ساورنا : أنا وصلاح شيك في أن هذا البريطاني يقود شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان . وعن طريق صديق لنا داخل مصلحة التلغرافات السودانية وضعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة .

وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مربب بجميع المستشارين البريطانيين في حكومة السودان ، فهو يتلقى منهم أدق المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته . كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزارة الدائمين بحكومة السودان ، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاوناً كاملاً مع بريطانيا . إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الجبشى بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية في السودان .

وفي نفس الوقت تمكنا بعد مجهود شاق من استئالة سكرتير مدير جريدة (Morning Bews) السودانى للعمل معنا . وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزانة المدير الانجليزى التى يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادةها إلى مكانها ثانية .

وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان وبالتالي حصلنا على المعلومات التى أثبتت أن « ملس عندوم » الذى تعلم بمصر فى مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية ، وعن طريق التصنت على مكالماته التليفونية تبين لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التى يهملها بقاء الاستعمار البريطانى فى السودان لازدهار أعمالهم

وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة « ملس عندوم » والتى سجلتها فى المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت فى وقت لاحق أن يكون سفيراً للحبشة بمصر ولفترة طويلة ، وكان عميداً للسلك الدبلوماسى الأجنبى فى مصر ثم أكرمه مصر فصار لاجئاً سياسياً بعد سقو هيلاسلاسى . كذلك كشفت هذه المستندات السرية عن الخطط والتدابير

البريطانية لعزل السودان كلية عن مصر .

ولشغفى بالرحلات والاستكشافات قمت فيما بين فترات العمل بعدة رحلات اسطلاحية إلى غرب السودان حتى الأبيَضُ وإلى شرق السودان فوصلت حتى كسلا وبورسودان . ولحسن الحظ وبطريقة موفقة تكشف لى خلال إحدى هذه الرحلات ، أحد الاسرار الاقتصادية الذى جعل من السودان مركز اهتمام بريطانيا وبالتالي جعل بريطانيا تحشى التقارب المصرى السودانى .

خلال رحلتى للأبيض اصطحبت معى مساعدى فى المكتب عبد الفتاح فرج السودانى الأصل الجنوبى . . وفى أحد أيام الرحلة استيقظت مبكراً وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معاً فى جولة بالمدينة ، واسترعى انتباهى مبنى على النمط الأوروبى الحديث . وفى ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى . ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين .

أثار الموقف فضولى فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله . فعلمت أننا فى موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربى وأن السودان تستأثر بحوالى ٨٥٪ من حصة الانتاج العالمى لهذا المحصول .

أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربى . . والرجل الأجنبى الواقف فى وسط السودانيين مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشاراً لشركات تجارة الصمغ العربى . . وقد اعتاد على الحضور كل عام فى هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربى . أما باقى السودانيين ذوى الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات

الأجنبية التي تقوم بشراء الصمغ العربي من السودان .

« والأبيض » تعتبر مركز تجميع هذا المحصول .

ودفعني الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضني أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون إلى مستغربين ومستفسرين عمن أكون . وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث ، فبدأت المزيادات لشراء وبيع الصمغ العربي ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبي الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح في البورصة وبأسعار متفاوتة بنسبة ضئيلة جداً . وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلي وهانكي Glatly and Hanky هو الذي تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة . وأن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطاني الشهير في البلاد العربية « عبد الله فلي » وكان يشغل في الوقت نفسه منصب المستشار السياسي للملك سعود . أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضاً شركتان بريطانيتان وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربي .

وعند وجودي في أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركي وكان رئيساً لمركز البحوث القومي وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلاً ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربي له استخدام هام في تكنولوجيا استخراج البترول . وأشار على بزيارة حقول البترول البريطانية في البحر الأحمر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطاني اسم أحد المهندسين الجيولوجيين المصريين العاملين هناك وهو من تلاميذه وعلمت بالفعل أن الصمغ العربي يستخدم في عملية حفر آبار البترول ، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال عملية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من

الطفلة والصمغ العربى ويسمى هذا الخليط Draga Gum . وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر ، فهذه الماسورة الخاصة هى الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته كما تحمى البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر .

وعند عودتى إلى القاهرة واطلاعى على إحصائيات التجارة الدولية تبين لى أن بريطانيا كانت وقتها هى المبتكر الوحيد لتجارة هذه المادة وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول . وبناء على ذلك رفعت تقريراً يتضمن قصة الصمغ العربى كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر فى السنة التالية وفى موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربى عن طريق بنك مصر فرع السودان وهو فرع كان يرأسه الاستاذ عمارة .

وبالفعل فى السنة التالية . وكنت قد تركت العمل بالسودان ، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزداد . ونتيجة للمنافسة تسبب فى رفع السعر لصالح المنتج السودانى وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذى احتكرته بريطانيا طويلاً

من المطبخ السياسى إلى جزيرة أبا

خلال عملى فى السودان تناقلت أوساط شباب السودان أخبار سالون تتجمع فيه الشخصيات السياسية ورجال الأعمال السودانين وبعض المستوطنين الأجانب وأعضاء البرلمان وبعض الدبلوماسيين الأجانب . وعلمت من هؤلاء الشباب أن ضيوف الصالون تقدم لهم الخمر وعندما تلعب الخمر برؤوسهم تنطلق ألسنتهم بأسرار الدولة السياسية والاجتماعية فتتلفحها الأذان المتنبهة . وفى أمسيات هذا الصالون كان يتم طبخ سياسة

السودان العليا كما كان يحدث في مصر في « كلوب » محمد علي قبل الثورة .

وفي فيلا كبيرة تملكها أرملة أحد أثرياء الأجانب من الايطاليين الذين جمعوا أثناء عملهم بالسودان ثروات طائلة . كانت تقام أمسيات الصالون . وكان هذه الأرملة ابنة على جانب كبير من الجمال ، ولها نشاط اجتماعي واسع في السودان وكانت مخطوبة لأحد الشبان اللبنانيين الذي يعمل في شركة أجنبية كبيرة في السودان وكان صديقاً لمحمود سليم . وأوعزت لزميلي المصري أن يدخل فيلا المطبخ السياسي بصحبة صديقه اللبناني . تم ذلك بأسلوب طبيعي جداً .

وكان محمود سليم وسيماً وعلى درجة من الثقافة فأمكن بسهولة اكتساب ثقة أعضاء هذا النادى السياسى الاجتماعى ، وأصبح من أكثر أعضاء هذا المنتدى الاجتماعى محبة . وساعدتنى المعلومات التى كنت أحصل عليها منه عما يدور من أحداث وأسرار في هذا المطبخ السياسى الفريد في نوعه على الوقوف على حقيقة أى حدث سياسى أو اقتصادى رسمى لا تعلن عنه الصحف . وكانت هذه المعلومات مادة صحفية في منتهى الكفاءة . وكنت أرسلها إلى جريدة الجمهورية . أما المعلومات ذات الصبغة السرية فكنت أرسلها أولاً بأول كتقارير إلى رئاستى .

وثائق اتفاقية مياه النيل

عن طريق أحد أعضاء هيئة التدريس المصريين في السودان ، الأستاذ « نصر الدين السيد » والذي له صلات اجتماعية ممتازة بكبار الموظفين في الدوائر السودانية المهمة تعرفت على شخصية سودانية بارزة ذات وعي كامل بالأعباء السياسية الاستعمارية البريطانية في السودان .

وعندما شعر هذا الصديق السوداني بالدور الذى يقوم به المستشار البريطانى « كارل مايكل » - وخاصة أثناء مفاوضات اتفاقية مياه النيل والتي كانت تتم بالقاهرة بين وفد حكومة السودان برئاسة خضر حمد وزير الرى السودانى وعضوية مأمون بحيرى وبين الوفد المصرى برئاسة زكريا محيى الدين - أمكن هذا الصديق السودانى الوطنى أن يقدمنى إلى صديق له ، يعمل فى أرشيف وزارة الرى السودانية ، وكان هو الآخر على درجة عالية من الوعى السياسى .

كان المستشار كارل مايكل يرسل إلى القاهرة يومياً ، ودورياً ، تقارير إلى وكيل الوزارة مأمون بحيرى . والذى كان يرافق وفد المفاوضات السودانى فى القاهرة ، وكان بتلك التقارير توجيهات واحصائيات كلها تدعو إلى التشدد فى موقف السودان من حصة مياه النيل ومصاغة بدهاء اشتهر به البريطانيون .

كانت كل هذه التقارير ذات السرية العالية تصلنى فى وقت مناسب جداً وكان يتم تصويرها وإعادة المستندات الأصلية . وبالاتفاق مع رجال شركة مصر للطيران كانت صور هذه الوثائق الهامة ترسل أولاً بأول لتكون فى متناول يد المفاوض المصرى قبل اجتماعات التفاوض ، مما كان له أثر كبير فى كشف المخطط البريطانى ، الذى كان يمثلته المستشار البريطانى موريس ، المرافق لوفد السودان لمفاوضات مياه النيل بالقاهرة ، والذى تسبب فى إفشال هذه المفاوضات التى أجريت فى أبريل ١٩٥٥ . وتوقفت فى الشهر نفسه (نجحت تلك المفاوضات عام ١٩٥٥ عندما أبتعد الانجليز عن الوظائف) .

حادث اختناق العمال الفلّاته

وفى مساء أحد الأيام أبلغنى الصديق المصرى صلاح محمد على مدير

وكالة الأنباء العربية بالسودان وكان مكتبه بجوار مكتبي الذي استأجرته بالخرطوم . أبلغني أن برقية وصلته حالاً تحمل نبأ سيئاً . فقد اختنق أكثر من مائة عامل من الفلاته في بلدة « كوستى » في مديرية « النيل الأزرق وعلى النيل الأبيض » وهم عمال أفارقة يقدون في مواسم خاصة إلى السودان أويمثلون القوة العاملة الموسمية وكانت تفرض عليهم الشركات الزراعية السودانية البريطانية أجوراً زهيدة يرضون بها تحت وطأة ظروفهم السيئة . وعندما طالب هؤلاء العمال برفع أجورهم رفضت هيئة مشروع الجزيرة طلبهم واستعدت عليهم السلطات السودانية والبوليس ، فاعتقلوا لعدم امكان التفاهم معهم ، ووضعهم البوليس مكدسين في عنبر واحد وكان عددهم حوالى ١٣٥ عاملاً . وبعد مدة من الحجز في هذا العنبر العتيق المساحة ، ماتوا جميعاً مختنقين من شدة الحرارة .

وأفادنى صلاح محمد على أن هذا الحادث اهتمت به صحافة ووكالات الأنباء العالمية وكلفوا مندوبيهم بالنوجه إلى « كوستى » مكان الحادث لتغطية أنبائه . فاتخذت المبادأة وأسرعت في تجهيز نفسى وسافرت إلى هناك في نفس الليلة . وبصحبتى زميل صحفى سودانى هو الاستاذ سعد الشيخ ومساعدى عبد الفتاح فرج ، ووصلنا إلى هناك بعد منتصف الليل وعلى الفور توجهنا إلى مكان الحادث واجتمعنا فور وصولنا مع قائد البوليس السودانى وجمع من أهالى (كوستى) وكانوا مجتمعين في شبه ثورة ضد حكومتهم وجاء على لسان أحدهم « الله يرحم أيام الاستعمار البريطانى » وتبادلت الحديث معهم ، وأقنعتهم بعد مناقشة هادئة مستنكراً فضل الاستعمار ، وأفهمتهم أن استعداد السلطة على هؤلاء المظلومين هو من فعل موظفين سودانيين ولكنهم في الحقيقة لحساب شركة لازالت أصبح بريطانيا تعمل فيها .

وفي الصباح الباكر خرجت من المنزل الذى اسضافونى للإقامة به إلى

منطقة العنبر المشئوم ، وهناك أخذت أقيس العنبر الذى حجز فيه ١٣٥ بائسا اختنقوا عن آخرهم بالخطوة طولاً وعرضاً حتى يمكن أن أقف على الحجم الكلى له . وأخبرنى الأهالى أن العمال لم يقوموا بأى عمل من أعمال العنف ، ولكنهم توقفوا فقط عن العمل وتجمعوا فى أماكن إقامتهم المتواضعة حول الأكواخ فحضر رجال البوليس وأخذوا فى جرهم بقهوة . وربطهم بعضهم ببعض بالحبال وهم يصرخون من شدة الألم وعنف المعاملة ثم ساقوهم إلى هذا العنبر وأغلقوا عليهم الأبواب بأحكام . وبعد نصف ساعة بالضبط أخذ المحجوزون داخل العنبر يستغيثون ولا من يجيب ثم بعد مدة أخرى علا صوتهم وأخذوا يدقون بشدة على الأبواب واعتقد حراس العنبر القلائل أن المحتجزين فى حالة ثورة فلم يبلغوا رؤساءهم . وريداً أخذت أصوات الاستغاثة والاحتجاج تخفت إلى أن خمدت مرة واحدة ثم ساد صمت الموتى . وعندما علم الرؤساء بهذا الحادث المفجع أرادوا التستر على الجريمة البشعة فقاموا أثناء الليل وقبل بزوغ النهار بنقل جثث الموتى إلى مقبرة كبيرة جداً بالقرب من العنبر وأهالوا عليها التراب . وقادنى الأهالى إلى مكان المقبرة . . . وتسمرت مكاني فقد هالنى ما رأيت فلم يسعف الوقت والامكانيات البوليس لتغطية الجثث بالتراب . . فكانت بعض الأذرع المتدلية والأرجل المستسلمة والعيون الجاحظة تطل من بين الأتربة تصرخ فى صمت بليغ ضد عنف الإنسان وعدم آدميته . وأبرقت من الخرطوم بتفاصيل الحادث المؤلم ، وأرسلت الصور إلى جريدتى وإلى إذاعة ركن السودان وهما المصدران اللذان انفردا بتفاصيل هذا الحادث المروع .

رحلة وحوار فى جزيرة ابا

استمرت جزيرة ابا مهد الحركة المهدية تلعب دورها فى تعميق جذور تعاليم المهدي الدينية . وأصبحت هذه الجزيرة أيضاً معقل الحركة للمهدية

الاستعمارية الحديثة والتي ظهرت بشكل مخالف تماماً للحركة المهدية الأصلية حيث اشتهر الزعيم السيد عبد الرحمن المهدي قائد الأنصار وراعي حزب الأمة بمعاداته لمصر وتبني الدعوة الانفصالية عن مصر . يعكس أفكار المهدي الكبير ، وقمت برحلة إلى الجزيرة يرافقتي الأستاذ سعد الشيخ وهو صاحب شركة اعلانات سودانية كانت مندجة مع شركتنا المصرية ، وكان شاباً واسع الاطلاع بشئون وتاريخ بلده السودان . وأثناء الطريق روى قصة السيد عبد الرحمن المهدي ، وكيف كان يتقن القيام بدوره المزدوج وهو تعميق وتثبيت زعامته الدينية ليغمر بأتباعه لمسيرة السياسة البريطانية الاستعمارية . فبعد أن شبَّ السيد عبد الرحمن المهدي أعادته بريطانيا للحياة في جزيرة آبا بين أتباعه وأنصاره الذين كانوا يتوافدون من جميع أنحاء السودان للتفرغ للعلم والعبادة حسب تعاليم المهدي الكبير داخل أروقة القصر المعد لهذا الغرض . وكان عبد الرحمن المهدي يعتمد الاختفاء قبل موعد الغروب ويتسلل خارجاً إلى البراري والحقول ، يتجول فيها . وعندما يجيم الظلام كان يعتمد أن ينبر مصباح يد (بطارية يد) كهربائي من تحت عبائه فيبدو في الليل ومن بعد كأنه شبح منير . ويرى أتباعه المنتشرون في أرجاء الجزيرة هذه الظاهرة الغريبة ويعتقدون أنها تدل على الخير والبركة والتقوى وأن روح سيدهم عبد الرحمن المهدي الطاهرة تتجول في الليل ، ويصبح الأتباع بأعلى أصواتهم منادين : (سيدي بينور سيدي بينور) ولا يجرؤون على الاقتراب منه فترتفع مكانته عندهم ، وأصبح إيمانهم به وأتباعهم له لا يربو إليه الشك .

وعند وصولنا إلى مقر المهدي بالجزيرة علمنا بالصدفة أن ابن السيد عبد الرحمن المهدي « الأستاذ الصادق المهدي قد حضر . وانتهزت هذه الفرصة وطلبت مقابلته ورحب هو بهذا اللقاء . وكنت علمت من زميل

الاستاذ سعد الشيخ أنه خريج جامعات بريطانيا ووجدته شاباً لبقاً على الثقافة يتقن الحوار في لغة عربية محبة باللكنة السودانية ذات النطق العربي السليم قدم إلينا الشاى على الطريقة البريطانية . وبدأ الحوار فسألته : « عن موقف حزب الأمة قبل بداية مفاوضات مصر مع بريطانيا على المسألة السودانية ، وتأييده هذه الاتفاقية في اجتماعهم بمحمد نجيب ثم تحولهم وتكرهم للاتفاقية إلى المطالبة بالانفصال وأن يصبحوا أعضاء في الكومنولث البريطاني علماً بأن تحرير وادى النيل شماله وجنوبه كوحدة واحدة كان هدف المهدي الكبير » . فقال : « إن مصر منذ احتلالها من وقت عرابي وجميع سياساتها رغم وعيهم التام بأنهم غير مستقلين كانوا يعتبرون ويعاملون السودان على أنه مستعمرة مصرية ويتمسكون بحق الفتح وثابت ذلك من جميع محاضر جلسات المفاوضات المتعاقبة بين المصريين والبريطانيين فكان المصريون يؤكدون دائماً على حق مصر في السودان (حق الفتح) وضرورة تبعيتها لمصر بشكل أو بآخر ولم يضع زعمائكم وسياستكم أى اعتبار أو وزن لرأى السودان والسودانيين أنفسهم . وحتى أيام الاحتلال البريطاني لمصر والسودان كان الاستعمار البريطاني يدعى أن وجوده في السودان للمحافظة على حقوق مصر في السودان وكنتم تصدقونه ، وهذا الخضوع الذى يعبر عنه الاستعمار البريطاني كنا في السودان نعرف جيداً أنه خضوع شكلى . لكنكم كنتم في مصر كالنعام تحيئون رؤوسكم أمام عدوكم معتقدين خطأ أنكم مادمتم لا ترون عدوكم فهو لا يزاكم .

كنتم في مصر تصدقون بريطانيا فيما تدعيه لحمايتكم حتى من مطالبة السودانيين بحقوقهم في بلادهم ، وتتناسون أن في السودان شعباً وسياسة وقادة وزعماء وطنيين يتمون إلى هذه الأرض . « وقال أيضاً : « إن الوجود البريطاني في السودان حقيقة والوجود المصرى في السودان منذ الاحتلال

البريطاني لمصر رمز وشكل دون المضمون . المفروض علينا نحن
السودانيين أن نتعامل مع الحقيقة لا مع الشكل
عند هذا الحد من حديثه بدأ الانفعال بفرض نفسه على نبرات صوته
ويبدو أن سؤالاً في هذا الوقت بالذات أصاب منه موجعاً رغم أن رده كان به
شيء من الواقع والحقيقة المرة فقررت أن أستمر في محاورته . فأعدت إلى
ذاكرته أن مصر عندما أرادت التفاوض مع بريطانيا على الجلاء عن مصر
بدأت أولاً بالمطالبة بالجلاء عن السودان ، وبادرت مصر بجمع شمل
الأنصار (طائفتكم) وطائفة الخاتمية ومختلف الأحزاب في القاهرة وبذلت
مصر خالص جهدها لتوحيد كلمتكم واعترفت بكيانكم وبيارة الشعب
السوداني ، وبحقكم الكامل في تقرير المصير لتختاروا الوضع الذي يحقق
مصلحتكم . لكن للأسف كان لحزبكم (حزب الأمة) موقف أثر على
مجريات الأمور بشكل عكسي مغالفاً بذلك لمبادئ وأهداف الحركة المهدية
الأصلية على يد المهدي الكبير .

معظم النيران من مستصغر الشرر

كنت قد تقدمت منذ وصولي إلى السودان بأوراق رسمية لتسجيل
مكتب الجمهورية للإعلانات والصحافة بمستندات سليمة عن طريق
مكتب أحد كبار المحامين السودانيين (محمد أحمد محجوب أحد أقطاب حزب
الأمة والذي أصبح وزيراً فيما بعد) . وقدمت مع صور هذه المستندات
طلباً إلى وزارة الداخلية السودانية والجوازات والجنسية لأحصل على تصريح
إقامة للعمل . وكنت أتردد على مكتب الوكيل الدائم لوزارة الداخلية
السودانية « محمد عثمان يسن » للسؤال عن طلب الإقامة . وفجأة وبعد
مرور أكثر من ستة شهور على وصولي للسودان استدعاني محمد عثمان

يسن وكيل الداخلية الدائم بمكتبه . وأخذ يسألنى عن حقيقة اسمى وعملى السابق قبل العمل الصحفى وأجبتة بأننى كنت ضابطاً بالجيش المصرى برتبة اليوزباشى وقد استبعدت من العمل بالجيش بعد عملية التطهير بعد الثورة . ولكنى تمكنت من الحصول على عمل فى دار الجمهورية فى شركة الاعلانات الشرقية . وأخرج قصاصة ورق من درج مكتبه قرأ فيها اسم يوزباشى محمد عبد الفتاح أبو الفضل . ورقم التليفون وعنوان المنزل (ادعائى بأننى من الضباط المصريين فى التطهير كان تغطية فقط بطبيعة الحال) .

وبشأت كررت عليه ما قلت له ، وافهمته أنه ليس هناك ما يمنع ضابط الجيش بعد استقالته أو استبعاده من العمل العسكرى أن يمارس عملاً مدنياً وليس فى هذا ما يثير الشبهات وقد تركته وأنا شبه متأكد أن هناك وشاية أو تبليغ من أحد . وأنه أخذ يشك كباقى السودانين أننى موفد من السلطات المصرية فى مأمورية خاصة . ولكنى قبل مغادرتى مكتبه قلت : إن السلطات المصرية إذا كانت هى التى رتبت وضعى بهذه الصورة لم يكن من الصعب عليها أن تزيف اسمى حتى تكتمل الصورة والغطاء .

وقال لى الزميل صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية بالخرطوم انه فى لقاء خاص بينه وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية علم منه أن هناك أحد المدرسين المصريين المعينين بعقد مع حكومة السودان ، يتعاون مع الأمن السودانى وأنه هو الذى ابلغهم ذلك بعد أن رجع إلى دفتر التليفون المصرى ووجد به اسمى بالكامل وعنوان منزلى بالقاهرة . وأمام الاسم رتبة ليوزباشى .

وتولانى غضب من هذا الشخص الذى وصل إلى هذه الدرجة من الخسة وادرت أن ألقته درساً بصورة أو بأخرى وكان يملك عربة فاخرة كثيراً

ما يتركها أمام منزله أثناء الليل في حى الموجرن الهادى في السودان وتمكنت من وضع عدة اقراص من السكر في تنك بنزين العربية . وعندما قام بتشغيل عربته بعد ذلك احترق الموتور وكبده ذلك مبالغ طائلة لاصلاحها .

وكان في هذا التصرف شيء من الصبيانية . ولكنى كنت شاباً وفي بدء حياتى العملية ولكنى استدعيت بعد ذلك بمدة ، وحذرت من مثل هذه الأعمال الخطرة ، وأكدت له أننى الذى قمت بتخريب سيارته انتقاماً مما قام به من أعمال تصل إلى مستوى الخيانة .

الاحتكاك بالوكيل الدائم

بعد واقعة استدعائى في الأمن السودانى ومواجهتى لشكوكهم ، دعيت إلى حفل عشاء في منزل الصحفي صالح عرابى رئيس تحرير جريدة الصراحة السودانية وكانت تؤيد سياسة مصر إلى حد كبير . وبعد أن بدأ المدعوون في تناول الأطعمة من البوفيه وأثناء انتقائى لبعض الأطعمة وكنت بالمصادفة وقتها بجوار وكيل الداخلية الدائم محمد عثمان ياسين ، وكان يتبادل الحديث بالانجليزية مع رئيس تحرير جريدة المورننج نيوز Morning News .

وهو في نفس الوقت رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية في السودان الذى أشرت إليه قبلاً وجه محمد عثمان يسن الكلام لى وهو في حالة سكر : « كيف حال ولد البق » ، وهذه إهانته بالغة درج عليها أهل السودان عندما يريدون توجيه إهانة إلى أى مصرى على أساس أن حشرة البق موجودة في بعض البيوت المصرية الفقيرة وحاولت السيطرة على أعصابى وقلت له : إننى افتخر بأننى مصرى صميم لأنك وصفتنى بصفة مصرية صميمة لا نخجل منها ولكنك لا أكثر ولا أقل من خائن سودانى وولاءك في المقام الأول لهذا البريطانى ولبريطانيا . وكنت متأكداً أن رئيس تحرير المورننج نيوز ،

يتقن اللغة العربية وواصلت توجيه اللوم الشديد له وبصوت مرتفع وتجمع حولنا كثير من المدعويين من السودانيين والأجانب . وحضر الداعي صالح عرابي وأخذ يعتذر لي هو وجمع كبير من نواب البرلمان الأصدقاء . ورفعت الحرج عن موقف الداعي الأستاذ صالح عرابي وقلت له إنني في منزلي وقد قمت بالتصرف نيابة عنه وفي اليوم التالي حضر لي في المنزل الأستاذ صالح عرابي ومعه جمع كبير من الصحفيين السودانيين وكثير من أعضاء البرلمان . وكان الاجتماع مثمراً . قام الصديق العزيز محمد عبد الجواد نيابة عنهم بالكلام وقال : إنهم حضروا ليس للاعتذار ولكن بدافع حبهم وتقديرهم لمصر والمصريين وامتداداً لدور الوطنيين السودانيين الذين يؤمنون بضرورة الوحدة مع مصر . وإنهم على يقين من قدرتي على توصيل ما سيصرون عنه إلى المسئولين في مصر . وقال محمد عبد الجواد « إن السودان منذ احتلال البريطانيين لمصر وللسودان بعد إخماد ثورة عرابي اندلعت فيه ثورة محمد أحمد المهدي تحت علم الدعوة الدينية الصادقة بمعاداة المحتل الأجنبي .

وكان المهدي الكبير في ثورته ضد الانجليز يقوم بمحاربة الانجليز والأتراك ولم يقصد المصريين إطلاقاً لأنه في نفس الوقت كان يعتبر ثورته امتداداً لثورة المصريين بقيادة أحمد عرابي . ورغم أن الثورة السودانية تمكنت من تحقيق الاستقلال لمدة حوالي ١٣ سنة . فقد قامت الجاسوسية البريطانية داخل صفوف الثورة المهدية بالفتن بعد أن تجاوزت معها الكثير من الدول العربية والإسلامية وتمكنت بريطانيا بعد ذلك بالاستعانة بالجيش المصري المغلوب على أمره وبقيادة الضباط البريطانيين من إخماد ثورة المهدي ونجحت بريطانيا في غرس بذور الخلاف بين السوداني والمصري . ثم استندارت على المهدية نفسها وخلقت زعامة خائنة لتعاليم المهدي من أبناءه هو عبد الرحمن

المهدى . كما استعانت بالطائفة الميرغنية والشريف المهدى في توطيد دعائم حكم بريطانيا ونفس الشيء تكرر بعد توقيع اتفاقية السودان ، وفي غفلة من المسؤولين المصريين الذين لم يفطنوا للملابسات الألاعيب البريطانية في تعاملهم مع الثورة المهدية . فقد قامت بريطانيا . وفي غفلة من المصريين باللعب داخل صفوف الاتحاديين بزعامة الأزهرى الذى كنتم تعتمدون عليه وفي زيارته لبريطانيا قبل تقرير المصير تم طبع الدور بالكامل وعاد وهو ينادى بالاستقلال متخلياً عن المتفق عليه مع المصريين من تحقيق الوحدة . وبأموال أمريكا ، ويتغلغل النفوذ البريطانى فى السودان وسيطرتهم على الوزارات السودانية عن طريق وكلاء الوزارة السودانيين الدائمين وكلهم عملاء لبريطانيا فشلت الوحدة . . . ويشكل مؤكد ولا أمل لمصر فى تغيير الوضع داخل السودان وكل مانرجوه منكم هو تحسين وتقوية العلاقات بين شعب مصر والسودان والذى عن طريقها يمكن تحقيق ما هو أقوى وأثبت من الوحدة .

الواقع أننى لم أجد ما أرد به على كلام هذا الصديق المدعم بالأسانيد التاريخية وكان هذا الحديث مجال تقرير لى شامل عن موضوع الوحدة أو الاستقلال . واعتقد أنه كان من ضمن الأوراق التى استندت إليها مصر فى مباركة رغبة السودان فى الاستقلال .

الصراع فى منطقة الشرق الأوسط

منذ وصولى إلى الخرطوم فى أول يناير سنة ١٩٥٥ وما قبلها بعد إبرام اتفاقية السودان والتطورات التى حدثت فى رأى العام السودانى منذ إبرام الاتفاقية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ . ومنذ إبرام اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتسم الموقف الداخلى فى مصر بالهدوء . كانت مصر مصممة على

التفرغ لمعركة التنمية وذلك بالبدا في تنفيذ مشروع السد العالي . ومنذ عام ١٩٥٣ حاول دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة ثم إيدن في فبراير سنة ١٩٥٤ إقناع مصر بضرورة وأهمية قيام حلف عسكري دفاعي لمنطقة الشرق الأوسط (امتداداً لمشروع صدقي بيفن الذي سبق ورفضته مصر قبل الثورة) لسد الفراغ بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر على أن يقوم العرب بمساندة هذا الحلف .

رفضت مصر وعارضت هذا الحلف لمشيرة وبكل وسيلة وبخاصة في وسائل إعلامها وبشكل مركز في إذاعة صوت العرب المسموعة في العالم العربي كله بالإضافة إلى الإذاعات الموجهة لدول العالم الثالث وهي مناطق نفوذ الاستعمار القديم والكتلة الغربية . وفوجئت مصر بالدول الغربية العظمى تحاول استئناس مصر وتطويعها لتفرض عليها التبعية وكلما كانت تعارض مصر في قبول مارسمة لها الاستعمار القديم كالدخول في أحلاف عسكرية تحتونها ، كانت الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة وطلبت مصر السلاح من الغرب لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية ، وأمعن الغرب في الرفض وطلبت مصر المعونات الاقتصادية ، وأصر الغرب على فرض الشروط المجحفة . وحاولت مصر طلب المعونات الاقتصادية والعسكرية من روسيا فلقيت من الغرب التهديد والوعيد . ودخلت مصر في دوامة .

بعد أكتوبر سنة ١٩٥٤ استخدمت كل من بريطانيا وأمريكا شتى أساليب الضغوط على مصر لتعيد إلى منطقة الشرق الأوسط استكانتها السابقة للاستعمار الغربي خصوصاً مع ظهور النفوذ الروسى المتطلع للانتشار وكسر حصار التحالفات الغربية من حوله خاصة في المناطق حديثة الاستقلال ذات التيارات الوطنية .

كانت المهمة هينة وبسيطة بالنسبة لانجلترا وأمريكا في أغلب دول الشرق الأوسط ، ولكنها كانت صعبة ومستعصية في تعاملها مع مصر .
تحسن الموقف في السودان

كل هذه المواقف الصعبة التي واجهت بها مصر الضغوط المختلفة من الدول العظمى وبخاصة من الكتلة الغربية والولايات المتحدة جعلت الرأي العام العربي يتجاوب مع مواقف مصر المتطلعة لتحرير إرادتها من دوائر التبعية . وحيث أن السودان علاوة على انتمائه للوطن العربي ، فإنه رغم ما شاب علاقاته بمصر من تدهور في فترة تقرير مصيره والتي عاصرت فترة منها ، فقد تغير الموقف كلية هناك في آخر عام ١٩٥٥ ومطلع عام ١٩٥٦ سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي . وعادت الثقة المتبادلة بين القطرين الشقيقين .

اجازة بلا عودة

في الأيام الأخيرة من يونيو سنة ١٩٥٦ حضرت إلى القاهرة في أجازة وقبل أن أغادر الخرطوم حصلت على فيزة (تصريح) العودة . (Re Estery Visa) بعد الخلاف المستمر بينى وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية الدائم محمد عثمان يسن تلافياً لاعتراض المسئولين في قنصلية السودان بالقاهرة على إعطائي تأشيرة الدخول . ومع ذلك فقد كانت آخر إقامة لي بالسودان . وفي مساء ٢٦ يوليو وكنت في غرفتي قرب ميدان السيدة زينب استمع من خلال راديو السيارة إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في احتفالات ٢٦ يوليو بالاسكندرية ، وأثناء الخطاب أخذ يشرح ملابسات في تمويل السد والظروف والمراحل التي مرت بهذا التمويل ، وأعلن في نهاية هذا الاستطراد قراراً تأميم شركة القنال .

وفي يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ صدرت لى الاوامر بعدم العودة إلى السودان كى أقوم بمهمة فى مصر بعد تتابع الأحداث نتيجة تأميم قنال السويس . كلفت بإعادة تنظيم المقاومة السرية بمنطقة القنال لأن الموقف الدولى الغربى بدأ يشن حملة مسعورة ضد مصر .

وفي الأيام التالية شكلت بريطانيا وفرنسا وباقى دول الكتلة الغربية هيئة دولية مستقرة اسمتها « هيئة المتتفعين » وعن طريق هذه الهيئة مارس الغرب علينا ضغوطاً مختلفة جعلت القيادة فى مصر تعد العدة لأسوأ الاحتمالات .

المقاومة السرية ضد الاحتلال

في النصف الثاني من يوليو سنة ١٩٥٦ ، ثم انتقاء نخبة من الزملاء من ضباط الجيش والبوليس والمدنيين وتحدد لكل منهم منطقة لنشاطه للتحضير لعمل المقاومة السرية . كان في منطقة أبو سلطان الزميل سعد ناظر محطة أبو سلطان والذي سبق عمله معي أثناء مقاومة البريطانيين في القتال في الأعوام السابقة لإقامة الجلاء ، وكانت له مدة خدمة طويلة بالمنطقة وله معارف في كل مكان . وفي كل القرى المحيطة بكلفته ومعه المواطن المكافح غريب تومي (غريب خضيرى) بإعادة الاتصال بالمندوبين السابقين بالمناطق الأخرى والمنتجة لقيادات المقاومة لإيوائهم . وتخصير غطاء مناسب لكل منهم . ثم تم تزويد كل منهم بموتوسيكل أوفيسيا . وتمت عملية تجهيز أماكن رئاسات المقاومة الفرعية والتجهيز ، وذلك في مدة عشرة أيام وكان التوزيع كالاتى :

الإسماعيلية : عبد الفتاح أبو الفضل (رئاسة) ، القنطرة غرب : محمد الصلاحى والحاج محمد المعداوى ، الإسماعيلية : ضياء الدين حسنين ، فايد : م . أول يحيى راشد ، السويس : م . أول عبد القادر عبد العظيم ، الصالحية : الشيخ حسين اللق (شيخ البلد) ، بورسعيد : صاغ يحيى القاضى ، يوزباشى مصطفى كمال الصياد ، باشجاويش باراشوت حسنى عوض ، السيد / إبراهيم عبد الغفار ، السيد / محمد على الشاعر .

وبدأت القيادات فوراً في تجنيد أفراد جماعات المقاومة ومن نفس أفراد المقاومة الشعبية الذين سبق تعاملهم ضد الجيش البريطاني قبل اتفاقية الجلاء . ولكن بشكل سرى . وكل قيادة جهزت في منطقتها مخازن لتسويق الأسلحة والمتفجرات والمعدات التي ستستخدم في المقاومة وإذا بدأ العدوان كان من المفروض أن تتحول هذه المقاومة السرية إلى مقاومة شعبية شاملة شعرت بالموقف يتخرج وقد تسوء الأحوال فقد عجلت باستلام أكبر كمية من الأسلحة والمعدات ومواد من الجيش والحرس الوطني — وقام الزميل صلاح بإعداد كميات كبيرة من زجاجات المولوتوف والقنابل القربانسية (هولو شارج Holow Sharge واعدت مقرأ سرياً لرئاسة بالاسماعيلية في إحدى الشقق هناك .

العدوان الثلاثي

في يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر مساء كنت بمدينة الإسماعيلية وعلمت هناك ومن خلال اتصال تليفوني مع رئاسة المخابرات بالقاهرة أن إسرائيل قامت بالاستيلاء أثناء الليل على منطقة عمر متلا في سيناء وهي خالية من القوات المصرية وبها فقط بعض جنود الحدود مخترفة بذلك الحدود المصرية . وقد تمت الغارة على الممر باسقاط جنود المظلات . وكذلك تم الهجوم على سدر الحيطان بقوة تقدر بكتيبة وأن حجم العملية يدل على أنها مقدمة لعدوان شامل وليست عملية اسرائيلية محدودة .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٣٠ / ١٠ / ٥٦ سافرت إلى القاهرة وقابلت المشير عبد الحكيم عامر الذي أمر بسرعة صرف جميع ما احتاجه من معدات وأسلحة من مخازن الجيش والحرس الوطني لتوزيعها على المقاومة الشعبية . وفتحنا مركز تجميع لقوات المقاومة من خارج المنطقة بعزبة الاستاذ حسين

ذو الفقار عمدة قرية طويحجر بالشرقية ومركز رئاسة في نفيسة في عزبة العمدة قاسم سلطان .

وفي مساء ٣٠ / ١٠ / ٥٦ ظهرت تمثيلية الإنذار البريطاني الفرنسي مطالباً الجانبين المصري والإسرائيلي بإيقاف القتال براً وجواً وأن يسحب كل منهما قواته بعيداً عن القتال بمسافة عشرة أميال على الأقل . وعلى أن توافق مصر على احتلال القوات البريطانية والفرنسية مؤقتاً للنقط الرئيسية في كل من بور سعيد والإسماعيلية والسويس لضمان حرية الملاحة ، على أن ينفذ ذلك خلال ١٢ ساعة وإلا سيضطرون للتدخل العسكري . ورفض مجلس الوزراء المصري هذا الإنذار واستمر الطيران المعادي في ضرب قواتنا طول النهار على طريق تقدمها إلى سيناء .

وفي يوم الأربعاء ٣١ / ١٠ / ٥٦ تأكدت لدينا المعلومات التي سبق أن رفعها جهاز المخابرات إلى الرئاسة عن الاستعدادات البريطانية في قبرص ومالطة للنزول في منطقة قناة السويس وذلك بقيام العدو بغارات جوية مركزه ومتلاحقة على جميع المطارات المصرية بمنطقة القناة وظهر جلياً أن الهدف هو تدمير السلاح الجوي المصري الذي سيطر على سماء المعركة مع إسرائيل حتى هذا اليوم بالرغم من مساعدة الطيران الفرنسي للقوات الإسرائيلية .

وفي يوم الخميس ١ / ١١ / ١٩٥٦ استمرت الغارات المركزة على جميع الأهداف والمنشآت المصرية وبدأت الطائرات البريطانية والفرنسية في اللجوء إلى الطيران المنخفض لتحقيق دقة إصابة أهدافها . . . وصدر في صباح يوم ٥٦/١١/١ قرار مصري بسحب القوات المصرية من سيناء لإفساد مخططه بقطع خط الرجعة على الجيش المصري في سيناء واستمرت الطائرات المعادية في ضرب القوات على طريق الانسحاب . وفي نفس

الوقت وصلت كميات هائلة من الأسلحة للتوزيع في المنطقة على الشعب بأكمله ليقاتل بجانب الجيش .

وفي يوم الجمعة ١٩٥٩/١١/٢ ألقى الرئيس عبد الناصر خطابة الشهر في الأزهر الشريف موضحاً للشعب المصري وللعالم ، أبعاد التآمر الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى .

المنظر المؤلم

وفي يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء مرورى على طريق القاهرة الاسماعيلية مع قوى المقاومة الشعبية لمقاومة الغارات الجوية على الطريق دخلت محطة أبوصوير الجوية العسكرية وكان منظر العدد الكبير من الطائرات المصرية الميج الروسية الصنع وهى محطمة على أرض المطار مؤلم للغاية . وعلمت هناك من أحد الفنيين أن هذه الطائرات ما كان يجب أن تضرب وتطم بهذه السهولة (أولاً) لأن الزمن الذى يستغرقه الطيار من وقت الإنذار حتى الصعود إلى الجو بهذا النوع من الطائرات زمن بسيط جداً ولكن الطيارين المصريين وقت ضرب القاعدة كانوا يبيتون في فندق بمدينة الاسماعيلية (فندق المسافرين) ولم يكن بالمحطة العسكرية أى طيار . (ثانياً) أنه كان من المفروض على المسئولين عن القاعدة أن يتحققوا الطائرات تحت الأشجار الموجودة حول أرض المطار خصوصاً وأن هذا النوع يمكن سحبه بسهولة ولو بالأيدى لحقة هذه الطائرات .

وفي نفس اليوم أرسلت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ومواد النسف إلى المقاومة الشعبية في بور سعيد دخل بها الزميل سمير غانم وعاد .

وفي بور سعيد صباح يوم الأحد ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بدأ الهجوم المركز من العدو وكانت القطع البحرية الفرنسية والبريطانية قد دخلت الغاطس أمام

بورسعيد حتى وصل بعضها إلى مسافة ٤٠٠ متر من الشاطئ ووجهت نيران مدافعها على شواطئ بورسعيد وبورفؤاد وكانت تسقط ألف دانة مدفعية في الدقيقة على ساحة بورسعيد آنذاك وهي ٤ كيلو متر مربع وبذلك فاقت كثافة النيران المعادية ، أكبر تركيز بالنيران لأي معركة من معارك الحرب العالمية الثانية . فدمرت كافة الأسلحة المصرية الثقيلة المضادة للسفن والطائرات ، وأمست بورسعيد خالية من الأسلحة الثقيلة .

وبدأت قيادات المقاومة الشعبية بالمدينة :مصطفى كمال الصياد وحسن عوض التنسيق مع ما تبقى من وحدات الجيش القليلة في المدينة للتعاون معها والاشتراك في خطة الدفاع بجمع طوائف الشعب . وكان قائد الكتيبة الرابعة مشاة العقيد حسين توفيق يسن وهو المسئول عن الدفاع على طول الشاطئ ووحداته منتشرة من منطقة مطار الجميل إلى الجبانات إلى البلاج إلى كوبرى الرسوة بأعداد بسيطة . كذلك كان هناك عدد محدود من رجال الجيش المصرى في منطقة مكاتب شركة القنال وكان الموقف مؤثراً للغاية عندما رحب القائد حسين توفيق يسن باشتراك المقاومة مع قواته . وقال لمصطفى الصياد أنه كان يشعر قبل هذه المساهمة الشعبية بضعف وقلة قواته وبالوحدة القتالة على طول هذه الجبهة . ولكن الشعب المسلح بالروح العالية رفع من روحه وروح جنوده المعنوية وأقسم بالله على المقاومة لآخر طلقة . استمرت الغارات الجوية ومدفعية الاسطول في الضرب والإجهاد على مواقع المدفعية المصرية ومدفعية السواحل وبطارية الصواريخ والتي استشهد عدد كبير من جنودها . نظمت المقاومة طريقة لترحيل النساء وكبار السن والأطفال عبر البحريرات إلى دمياط والمطرية وفي مساء ٥٦/١١/٤ كانت وحدات الجيش المتبقية في المدينة كلها من المشاة فقط ، وهي عبارة عن الأحياء من الكتيبة ٢٧٥ في بورفؤاد والكتيبة ٢٩١ والكتيبة الرابعة وكذلك كانت هناك بطارية

مدافع صاروخية في حي المناخ وكتيبة حرس وطني بين مطار الجميل والبلاج .

ويوم الاثنين ٥/١١/٥٦ في الساعات الأولى من الصباح استأنفت مدافع الأسطول والطائرات المعادية الضرب على مواقع وخنادق الجيش والمقاومة ثم توقفت مرة واحدة بما كان يوحى ببدء إنزال قوات العدو على الشاطئ . وفي الساعة التاسعة صباحاً أسقط العدو موجته الأولى من رجال المظلات بمنطقة مطار الجميل وتمكنت قوة المقاومة والجيش هناك من إبادتها عن آخرها . وفي التاسعة هبطت الموجة الثانية بشكل موسع على طول الشاطئ وعلى بور فؤاد ، وأبلى الجميع بلاء حسناً في مقاومتها وأبىد معظمها إلا بعض هابطين منفردين تمكنوا من الهروب في المناطق القريبة ولكن الشعب كان يتعقبهم ويجهز عليهم وحدثت خسائر كبيرة في جنود الجيش واستشهد كثير من أفراد المقاومة .

في نفس الوقت ضرب البطل القائد العقيد حسن توفيق يسن قائد القوات المصرية المدافعة ، المثل الأعلى في الفداء ، واستشهد في خندق في منطقة الجبانات . وكان القدوة في سلوكه وقوة عزمته لجنوده وإخوانه من أفراد الشعب المشترك معه في الدفاع المجيد . ونظراً لكثرة خسائر العدو في الهابطين من المظلات في هذه المناطق الدفاعية المستميتة ، تم اسقاط الموجة الثالثة بشكل مكثف على المناطق الخالية من الدفاعات حول وابور المياه وموجة أخرى من المظليين الفرنسيين في بور فؤاد في منطقة بعيدة بعض الشيء عن الدفاعات المصرية وكونت رأس كوبرى بها بعد أن طاردها بعض أفراد المقاومة والجنود المصريين . وحدثت خسائر كثيرة بين الطرفين ، ولكن الفرنسيين تمكنوا أخيراً من احتلال بور فؤاد كما تمكنت القوات الهابطة عند وابور المياه واحتلته قبل غروب يوم ٥/١١/٥٦ .

وفي مساء يوم الاثنين ٥/١١/٥٦ وبينما أيدن يعلن كذباً في مجلس العموم أن بور سعيد استسلمت ، أستأنفت الغارات الجوية المركزة على المدينة وبخاصة على مخازن الأخشاب ومستودعات البترول والكيابن الخشبية وحي المناخ وكل ما هو قابل للاشتعال . واشتعلت المدينة بشكل مخيف وتحولت إلى كتلة هائلة من النيران . وسيطر العدو في مساء هذا اليوم على موقعين فقط هما موقع وابور المياه وموقع منعزل في بور فؤاد .

بعد فجر يوم ٦/١١/٥٦ وعلى أول ضوء للصباح كانت شوارع المدينة مملوءة بجثث الشهداء من المدنيين ، وأستأنف العدو العمليات الجوية ومدفعية الاسطول الضرب بشكل مركز ومتواصل إلى أن أحدثوا ستارة كثيفة من الدخان على طول الساحل استطاع بها العدو الاقتراب والتقدم بقوارب انزال الجنود المحملة ، ونجح في إنزال قوة مشاة الأسطول وعدد من الدبابات وتمكنت هذه القوات المعادية من احتلال مناطق متفرقة على الساحل .

في نفس الوقت تمكنت قوات مظلات من احتلال مطار الجميل بعد تدمير كل دفاعاته . تحت ستار نيران الغارات الجوية ومدفعية الأسطول . تمكنت قوات الأسطول المعتدى من احتلال ميناء بور سعيد وأنزل العدو جميع وحداته ودباباته التي اتجهوا بها وخلفها الجنود المترجلون إلى المدينة بعد أن أحدثوا ثغرة في سور الميناء ، وانتشروا في أنحاء مدينة بور سعيد ، وكانت تقابلهم الجموع الشعبية المسلحة ، وأحدثوا في الشعب خسائر كبيرة إلى أن وصلوا داخل الشوارع ، فكانت المعارك العنيفة مع الشعب الراض في كمائن فوق الأسطح وفوق أشجار الحدائق وخلف البواكي ومن داخل المنازل ، وكانت معركة رهيبية ولكن غير متكافئة ، حيث تمكن العدو من هدم كثير من المنازل بواسطة مدافع الدبابات . وكانت هناك بطولات كثيرة منها :

عملية الأشجار : انتشر بعض أفراد من الفدائيين المصريين فوق أشجار حديقة البلدية (حديقة الباشا) وانتظروا مرور إحدى دبابات العدو وخلفها عدد من الجنود المترجلين ، وفجأة فتحوا عليهم النيران من فوق الأشجار فقفضوا على جميع المترجلين من العدو وقبل أن توجه مدافع الدبابات إليهم النيران تمكنوا من النزول والهروب .

كمن خلف البواكى : كمن جمع من الفدائيين خلف البواكى عند المنزل ٤٥ شارع عبادى فى انتظار مرور إحدى داوريات الأعداء وعندما أخذوا يطلقون النيران على الداورية تمكنت الداورية من إصابة يسرى بخيت الذى استشهد فى الحال وسقط جنديان بريطانيان قتلى ، وتقدم شقيق الشهيد يسرى بخيت ليحمل جثته بعد انسحاب أفراد المقاومة واستشهد الشقيق الآخر وجدى بخيت وكانت والدتهما مقيمة فى نفس المنزل فخرجت تصيح على ولديها غير عابثة بجنود العدو اتجهت صوب الجثتين وقبل أن يصبوب جنود الأعداء النار على الأم الثكلى تمكنت مجموعة أخرى رابضة فى إحدى النوافذ من الضرب على باقى أفراد الداورية البريطانية وقتل جميع أفرادها .

وعند تقاطع شارع محمد على بالقرب من شارع الحميدى أمام كنيسة الأقباط كانت هناك دبابة بريطانية مفتوحة البرج ويقف به ضابط يراقب المنطقة وخلفه دبابة أخرى وفجأة خرج الفدائى عبد الله ابراهيم ويده قنبلة يدوية واندفع بسرعة فائقة بجانب الدبابة وقبل أن يأخذ الضابط حذره ألقي الفدائى بالقنبلة داخل فتحة الدبابة وأصيب الضابط ، وحدث انفجار داخل الدبابة أوقفها ، وأطلقت الدبابة الثانية النيران على البطل واستشهد الفدائى عبد الله ابراهيم .

احتل بعض القناصة البريطانيين أسطح كثير من المنزل ليؤمنوا تحركات قواثم فى الشوارع . وفى منطقة حديقة زغلول أمام رصيف فرقة المطافئ

كانت مجموعة من الفدائيين تسير ولم يكن موجوداً أى جنود بريطانيين في الشوارع ولم يتوقع الفدائيون وجود القناصة بأعلى المنازل المجاورة وفجأة أطلق القناصة النيران عليهم وأصابوا عدداً من الفدائيين واستشهد بعضهم ، ولكن كان معهم الفدائي اليوناني الأصل والمصري الموطن بنايوتى مافروماتين وتأكد من مكان القناصة من فوق منزل نفوسه واحتفى بنايوتى بجانب أحد البواكى ومن موقعه وبمدفعه أخذ يطلق النيران عليهم وحضرت داورية بريطانية في الحال وأطلقوا النيران على بنايوتى واستشهد مع زملائه المصريين بعد أن تمكن من قتل أحد القناصة البريطانيين .

في مساء يوم ٥٦/١١/٦ قطعت القوات المعتدية مياه الشرب عن المدينة من وابور المياه حيث كانوا يحتلون منطقة محطة وخزان المياه .
وفي الساعة الثانية من صباح يوم ٧ نوفمبر سنة ٥٦ أوقف المعتدون إطلاق النار طبقاً لقرار هيئة الأمم ، ولكنهم استمروا في اشعال الحرائق في المباني التي كانوا يعتقدون أن بها أوكارا للمقاومة الشعبية ، وبات بور سعيد حزينة على شهدائها الأبطال عطشى بغير مصدر للمياه ، جرحى لا يجدون الرعاية الكافية من لتضميد الجراح ولكنها كانت رافعة الرأس لقيامها بواجبها المقدس في الدفاع لآخر رمق .

عملية نسف طريقي القناة والمعاهدة

يوم ٥٦/١١/٦ أعلن همر شلد سكرتير الأمم المتحدة موافقة بريطانيا وفرنسا على إيقاف القتال في مصر ابتداء من منتصف ليل ٥٦/١١/٦ ، ولعلمنا أن الكلام شيء والفعل شيء آخر توقعنا تقدم القوات المعادية واتصل كمال رفعت بالرئيس جمال عبد الناصر واقترح كمال نسف طريقي القنال والمعاهدة واستمرارنا في المقاومة .

واتفق مبدئياً على نقطة دفاعية بمثابة عنق الزجاجة حددناها على الخرائط وسط الملاحات وأرض رخوة جداً يصعب تقدم الدبابات عليها إذا ما نسف الطريقان عندها ، لتعطيل أى تقدم للجيش البريطانى والفرنسى فى اتجاه الاسماعيليه . ثم التقدم فى اتجاه بورسعيد لاستعادة موقع جسر الحرس . وأبلغنا بعض المتطوعين بالاسماعيليه بأن هناك عملية هامة ستقوم بها وتوافدت علينا أعداداً كبيرة من المتطوعين المدربين وغيرهم . وفى السابعة والنصف مساءً تحركنا فى طابور كبير من العربات لاتقل عن ٧٠ عربة مدنية محملة بعضها بالأفراد من جميع الأعمار من سن ١٤ سنة إلى ٧٠ سنة ويحملون أسلحتهم ومواد النسف وأدوات الحفر .

واصلنا زحفنا إلى جسر الحرس بتكتيك قتالى تحرزا أن تكون القوات المعادية قد احتلته . وفى النهاية وجدناه خالياً ووزعت القوات عليه فى مواقع دفاعية وعدت بمفردى لموقع النسف . وأثناء حفر مواقع النسف خرج إلينا أهل القنطرة غرب وعلى رأسهم مأمور قسم القنطرة البكباشى عمر وهبى ومعه كل قوة البوليس هناك ، وقوة أخرى من خفر السواحل وقوة مسلحة من أهالى القنطرة وعندما شعروا بوجودنا ونجن نعمل على الطريق فى ظلمة الليل حضروا مقدمين أنفسهم للمقاومة فى أى عمل يساهمون به للدفاع عن بلادهم وعمل الجميع بعزيمة صادقة مما عجل بالانتهاء من عملية الحفر .

حضرت قوات الحرس الوطنى محملة على اللوارى وكان خليطاً من طلبة الجامعات وطلبة كلية البوليس وموظفين وتركنا لهم جميع أفراد المقاومة التى كانت معنا وكذلك قوات البوليس وخفر السواحل ليعاونوا فى عملية الدفاع لتعطيل أى تقدم للأعداء فى اتجاه الاسماعيليه وأثناء الانتظار حتى يتم الاحتلال ، فوجئت بصوت قائد قوات الحرس الوطنى فى الظلام ، ووجدتني أتذكر هذا الصوت لأنى أعرف صاحبه تمام المعرفة واقتربت منه ،

فتحققت أنه كمال عزمي ، والذي يحمل رتبة يوزباشي احتياطي . كنت قبل هذه اللحظة أجهل كل شيء عن نشاطه الوطني حيث كان المسئول عن تدريبي في شركة الاعلانات المصرية دار الجمهورية قبل سفري إلى السودان . أثناء فترة تدريبي كان يبدو لي أنه شخص مدني أبعد ما يكون عن اختياره لعمل جاد كالتطوع والعمل الفدائي وعلمت أنه عمل ضابطاً احتياطياً متطوعاً في حملة فلسطين مع قوات أحمد عبد العزيز .

سمعنا أن جى موليه رئيس وزراء فرنسا أعلن عن سقوط الاسماعيليه في البرلمان الفرنسي ، فاستتجنا أنهم قد يهاجمون الاسماعيليه ، فعدنا إلى الاسماعيليه لتجهيز مواقع فدائية حولها ويدخلها .

في نفس الليلة (٥٦/١١/٦) وجهت روسيا إنذاراً جديداً إلى الدول المعتدية أعلنت فيه أنها ستسمح لعدد هائل من المتطوعين الطيارين ورجال الدبابات والمدفعية والضباط ، بالسفر إلى مصر . للقتال جنباً إلى جنب مع الشعب المصري ، لطرد المعتدين إذا لم ينسحبوا .

وإزاء تباطؤ المعتدين في الانسحاب ، أعلن الاتحاد السوفيتي أنه لن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه القرصنة الدولية ، وأذيع أيضاً في نفس الليلة نبأ NSF سورياً لأنابيب البترول التي تؤثر على تدفق بترول العرب المحلى إلى بلاد المعتدين . وكذلك NSF آبار البترول في جميع انحاء مناطق البترول العربية وكان للأخوة الفلسطينيين الفضل في كل ذلك .

وفي الساعات الأولى من صباح يوم ٥٦/١١/٧ وصلتنا إشارة من القوة التي احتلت جسر الحرش . [من الحرس الوطني بقيادة كمال عزمي] أن هناك قوة معادية تتقدم ، سمعوا أصواتها من موقع الكاب أمامهم . وبعد

ساعة أخرى حوالى الساعة الثانية اشتبكت داورية من العدو مع قوة دفاع جسر الحرش واستشهد إثنان من طلبة الجامعات محمد محروس ، وبهجت قبودان وأصيب طالب الطب محمد صادق سامى ، وأسر طالب الجامعة جواد حسنى الذى استشهد بعد ذلك وهو فى معسكر الأسرى فى بورفؤاد . وقتل ثلاثة من الأعداء .

وتوقف تماماً ما تقدم العدو فى اتجاه القنطرة والاسماعيلية . وتبين على ضوء النهار وعلى مرمى البصر من موقع الحرش أن الفرنسيين كانوا يحتلون مبنى المدرسة فى محطة الكاب أمام مواقعنا . وبذلك نجحت خطة إيقاف التقدم .

لا راحة لعدو على أرضنا

أعلنت بريطانيا وفرنسا موافقتهما على إيقاف القتال الساعة الثانية صباح يوم ٥٦/١١/٧ ورغم ذلك فقد استمرت فى القيام بعمليات عسكرية حول مداخل بورسعيد وكانت كلها ضد المقاومة الشعبية إلا أن المقاومة هى أيضاً لم تتوقف عن عملياتها ضد القوات المحتلة .

وحين اكتمل تنظيم المقاومة تكون أعلام شعبى داخل بورسعيد تحت إشراف محمد أبونار الذى باشر إصدار نشرات بعد كل عملية من عمليات المقاومة أو عمليات التحرش بالأعداء ليطلع شعب بورسعيد أولاً بأول على مجريات أمور المقاومة . وفى رحلة لاحقة انضم إليهم طاقم اعلام من المقاومة التابعة لى وتسلسل إلى داخل بورسعيد يقوده الأستاذ محسن لطفى وتمكنوا من إصدار جريدة « المقاومة الشعبية » وجريدة « الأنصار » من داخل بورسعيد .

وفى يوم ٥٦/١١/٨ تمكن الزميل اليوزباشى سمير غانم من دخول بورسعيد عن طريق المطرية والبحيرات لتولى قيادة السرية لبدء عمليات

قنالية وتخريبية ضد القوات البريطانية وإمداد القاهرة بالمعلومات عن القوات المصرية . وقد قام الفدائيون في يوم ١١/١١ ولمدة أربع ساعات كاملة بالاشتباك مع موقع يحتله الفرنسيون في بورسعيد .

وفي يوم ١١/١٤ وصلت إلى بورسعيد قوات من الصاعقة المصرية التابعة للجيش بقيادة جلال هريدى لتعزيز المقاومة الشعبية ومعها أسلحتها وذخائرها علاوة على ما تسلمته من داخل بورسعيد من الزميل سمير غانم .

وفي يوم ١١/١٥ اختبأت مجموعة من الفدائيين تحت البواكى وفي المنازل في شارع سعد زغلول وانتظروا مرور داورية بريطانية أمام سينما مصر . وفي الساعة التاسعة صباحاً مرت سيارة جيب وسيارة مدرعة وفتح الفدائيون النار عليها في عملية خاطفة وانسحبوا في الحال .

وفي نفس اليوم اشتبك عدد من الفدائيين مع داورية من الأعداء مترجلة وألقوا عليها القنابل اليدوية .

وفي المساء قامت جماعة أخرى من الفدائيين بإلقاء قنابل على معسكر للقوات المعتدية داخل المدرسة اليونانية بشارع سعد زغلول وقام تشكيل آخر من المقاومة بنسف سيارتين بريطانيتين بشارع الملكة فريدة .

وفي يوم ١١/١٧ قام تشكيل آخر بمهاجمة داورية بريطانية بشارع عباس وأصيب في هذه العملية القدائي عبد المنعم مختار وأثناء نقله بعربة الاسعاف إلى المستشفى الأميرى ومعه إخوانه قبض البريطانيون على كل من الفدائيين محمد شاكر مخلوف ومحمد مخلوف . وفي اليوم التالى مباشرة فتح الفدائيون النار على سيارة الإذاعة البريطانية التى كانت توجه نداءات للأهالى ، وتعطلت السيارة .

وجاء دورى لدخول بور سعيد

عندما وصلت أعمال المقاومة إلى هذه الدرجة تقرر أن تتوجه نصف القيادة الرئيسية للفدائيين من الإسماعيلية إلى داخل بور سعيد وجاء بذلك دورى لدخول بور سعيد .

بعد أن استقرت أوضاع العدو هناك ، حاول المراوغة في ميعاد الانسحاب فقامت ومعى الزميل محمد فائق والزميل ضابط اللاسلكى محمد فرج ومعنا جهاز لاسلكى . ووصلنا إلى المطرية تمهيداً لدخول بور سعيد فى يوم ١٦/١١/١٩٥٦ وأبحرنا من المطرية بملابس الصيادين على مركب صيد كبيرة يقودها الرئيس عبد المنعم فى اتجاه بور سعيد . وعندما أوشكت المركب على الوصول إلى مشارف المدينة لاحظنا على مرمى البصر وجود بعض نقاط الحراسة البريطانية على الشاطئ ولم يكن قد تم اكتشافها من قبل . فأسرع الرئيس عبد المنعم بإجراء مناورة بمركبته وأمر رجاله بالتظاهر بالصيد ، بينما طلب منا نحن الثلاثة النزول إلى قاع المركب وكان يستخدم كمخزن لكثير من أجولة السكر والدقيق ومواد التموين وبعض أقفاص السمك . قلت ضاحكاً للزميل محمد فائق « علينا أن نعتبر أنفسنا ثلاثة أجولة من أجولة السكر التى لا تفكر ولا تتكلم . ولكن بوصولها بور سعيد ستكون مادة حلوة . وشعرنا بالمركب وهى تدور وتلف كثيراً فى البحيرة وفعلاً كان الرئيس عبد المنعم يتجول بمركبه خلال الأعشاب الطويلة مناوراً متظاهراً بالبحث عن السمك والصيد وتمكن فى النهاية من الخروج من وسط الأعشاب مرة واحدة ومباشرة إلى موقع على شاطئ بور سعيد بعيداً عن نقط التفتيش البريطانية على بحيرة المنزلة . وأخيراً نادى علينا وخرجنا من قاع المركب واشتركنا مع باقى الركاب فى تفريغ حمولة البضائع من المركب .

وكانت تنتظرنا عربات كارو وعربات يد فوضع لنا الرئيس عبد المنعم كمية من أقفاص السمك على عربة اليد وسرنا مع صاحب العربة إلى مكان معين متفق عليه . أما جهاز اللاسلكى فقد كان مقسماً إلى أربعة أجزاء ملفوفة في الخيش وموزعة داخل أربعة أجولة من السكر . وتولى الرئيس عبد المنعم مسئولية توصيلها إلى قيادة المقاومة داخل بور سعيد .

وتركنا الرئيس وسرنا خلف عربة اليد كما يفعل أصحاب البضائع الأخرى الأخرى ورويداً رويداً ابتعدنا عن شاطئ البحر بعيداً عن نقط المراقبة البريطانية حتى دخلنا شوارع المدينة الضيقة وبعد مدة توقف بنا صاحب العربة أمام مطعم فول وطعمية نادى على صاحب المطعم الحاج محمد شلاطة وكان رجلاً مهيباً كبير السن عليه سمات الصلاح والتقوى وصعدنا إلى منزل نأخذ قسطاً من الراحة . تناولنا بالمنزل وجبة إفطار شهية من الفول والطعمية وكان ضابط اللاسلكى فرج محمد فرج قلقاً على جهازه وفجأة دخل علينا الغرفة الغرفة الزميل سمير غانم . فبدلنا ملابس الصيادين بملابس عادية أحضرها سمير . وذهبنا معه إلى مركز قيادته بمكتبة محمود العربى وكان من أفراد المقاومة بالحى الافرنجى . وهناك وجدنا أجزاء الجهاز الأربعة ملفوفة داخل أوراق الجرائد وجاهزة للتوصيل إلى أحد المنازل ليتم تركيبه وتشغيله من هناك . وفى صمت دخل علينا الشاب يحيى الشاعر وعمره آنذاك لا يتعدى ثمانية عشر عاماً فأخذ إحدى اللقافات الأربع وخرج بها فوضعها على دراجة وانطلق ، وعلى التوالى حضر ثلاثة شبان آخرون من إخوانه وزملائه فكروا نفس ما فعله ما فعله زميلهم يحيى الشاعر . وانزعج صاحب الجهاز فرج محمد فرج فطمأنه بأن الجهاز سيتم تجميعه فى منزل يحيى الشاعر وأخذنا نضحك . وبعد وقت كاف توجهنا إلى المنزل المحدد واستقبلتنا والدته السيدة أمينة محمد الغريب بترحاب وبشاشة وأمومة محبة للنفس . وقد ساهمت هذه السيدة

الفاضلة بشجاعتها وأبنائها الثلاثة في أعمال المقاومة وكانت مثلاً للمرأة المصرية في الأزمات الوطنية . قامت السيدة فأفرغت جزءاً من دولاب ملابسها لإخفاء الجهاز داخله ، وفي نفس الوقت قام ضابط اللاسلكي فرج بتجميع أجزاء الجهاز داخل الدولاب وصعد إلى سطح المنزل وثبت الهوائي بحيث لا يسترعى الانتباه . ثم قام بتشغيله حتى تم الاتصال بالقاهرة والاسماعيلية . واستمر فرج محمد فرج ملازماً هذا المنزل وجهازه ولم يغادر هذا المكان إطلاقاً حتى انسحبت القوات المعتدية من بورسعيد .

كان هذا هو الجهاز الوحيد الذي نقل أخبار بورسعيد بشفرة خاصة إلى مراكز القيادات ، إلا أننا لم نستخدمه في نقل أية أخبار عن المقاومة حتى لا نقع في المحذور ، لو أمكن للبريطانيين حل شفرة الجهاز . أما أنا فقد أقمت مع محمد فائق في إحدى الشقق بالحى الإفرنجى وهى شقة سامى خضير ضابط البوليس المكلف من المحافظة للاتصال بالمقاومة . كما اتخذت لنفسى اسماً مستعاراً لأحد أصحاب محلات الدراجات التى تهدمت من آثار العدوان ، وكان المحل يقع أمام مكتبة العدنى فانتحلت اسم صاحب المحل وهو محمد غريب خليل ، بينما اتخذ الزميل محمد فائق اسماً آخر ل أحد المدرسين بالمدرسة الثانوية ببورسعيد والذي كان قد هاجر مع أسرته إلى القاهرة واستخرجنا بطاقات شخصية بذلك عن طريق سامى خضير .

عملية مخططة

كان هناك معسكر تابع للبوليس الحربى البريطانى وبعد الاستطلاع التفصيلى للموقع تبين أن أفراد البوليس الحربى يقيمون بأحد المباني وهو يطل على شارع الاسكندر الأكبر والسلطان حسين وخلف المبنى توجد أرض فضاء . وقد لوحظ يومياً عودة ثمانى سيارات عسكرية لتقف فى الأرض

الفضاء بعد حلول موعد منع التجول . والأرض الفضاء . . . على كل ركن من أركانها الأربعة توجد دشمة مرتفعة تكسوها أكياس الرمال ويقف داخلها حارس مسلح للحراسة يقوم بتشغيل كشافات الإضاءة الليلية .

وفي مساء يوم ٢ / ١٢ / ١٩٥٦ م وبعد أن تم وضع خطة دقيقة لمهاجمة هذا المعسكر تسللت أربعة أطقم من الفدائيين إلى أسطح المنازل الأربعة المشرفة على هذا المعسكر وكان قد طلب من كل فرد دور خاص ففتح الجميع نيران أسلحتهم المختلفة في وقت واحد . فقام بعضهم بضرب السيارات الثماني بالأسلحة المضادة للدبابات ال R.B.D . وفي نفس اللحظة قام أفراد آخرون من القناصة بإصابة الحراس الموجودين بكشك الحراسة ثم هبط الجميع إلى أسفل المنازل وانسحبوا عن طريق الشوارع الخلفية ثم تجمعوا جميعاً في مكان متفق عليه ، وظلوا بأحد المنازل المهجورة حتى الصباح . وقد كللت هذه العملية بالنجاح دون أدنى خسائر في جانب الفدائيين .

وفي المساء احتلت أطقم الفدائيين مواقعها المختارة بدقة . وكان الملجأ به سبع عشرة دبابة وعربة مدرعة بريطانية وهو موقع في أرض فضاء بطرح البحر في شارع ٢٣ يوليو أمام المبرة وتقوم على حراسته نقط بريطانية مسلحة . وكان مبنى السجن قريباً من الموقع فتم قيد أفراد الصاعقة في دفاتر مساجين بمعرفة ضابط الإتصال سامي خضير وبعد موعد منع التجول أطلق سراح رجال الصاعقة من السجن . وكان الطريق المؤدى إلى الموقع يصعب سير العربات فيه نظراً لكثرة أنقاض المنازل المهدمة لذلك تم اختياره ليكون طريق تقدم وانسحاب المهاجمين .

وفي منتصف الليل هاجم رجال الصاعقة الدبابات الرابضة في ملاجئها بأسلحتهم المضادة للدبابات « البلانديت » فتمكنوا من تدمير

أربع دبابات وجميع العربات المدرعة كما أصابوا معظم أفراد الحراسة البريطانية ودوت في أرجاء المدينة أصوات تبادل النيران وانطلاق مدافع « البلانديت » وانفجار الدبابات البريطانية وأخذت المدينة تهتز من تأثير الانفجارات .

وانسحبت قوات الصاعقة عبر الطريق المهدم إلى مبنى السجن حيث بقوا فيه كمساجين حتى الصباح . إلا أن الدوريات البريطانية قامت بالتجول لقطع خط الرجعة على المهاجمين ومطاردتهم فاشتبكت معهم قوات المقاومة الشعبية حسب الخطة لتعيق تقدم الدوريات التي تطارد أفراد الصاعقة وقد حدثت بعض الخسائر في الأفراد .

وللأسف كانت هذه العملية آخر العمليات التي قامت بها الصاعقة في بورسعيد ، لأن السلطات البريطانية استشعرت أن هذه العملية وغيرها من العمليات المخططة تمت بيد رجال مدربين على مستوى عال فتمكنت من معرفة مكان مبيتهم ودهمته في ليلة ١٢/١٥ واعتقلت سبعة من ضباط الصاعقة ومعهم الدكتور حسن جودة الذي كان يقيم معهم في عيادته المطلية على شارع صفية زغلول ورمسيس . وأخذوهم أسرى ورحلوا معهم عند الجلاء على البوارج البريطانية فأنزلوهم في قبرص حيث عادوا منها إلى القاهرة بعد تمام انسحاب القوات .

عملية قرب ملجأ الدبابات البريطانية

عقدت اجتماعاً بحضور سمير غانم والرائد جلال هريدى قائد الصاعقة ، ومصطفى الصياد المشرف على الجماعات الفدائية ، لوضع خطة مشتركة لضرب ملجأ الدبابات البريطانية وتقضى الخطة أن تقدم قوات لصاعقة بقيادة الملازم حسين مختار على مهاجمة ملجأ الدبابات بالتنسيق مع

قيادة المقاومة الشعبية ، فتتولى المقاومة تأمين انسحاب قوات الصاعقة بعد تنفيذ الهجوم .

اختطاف الضابط مور هاوس

قام اليوزباشى سمير غانم ، بالاتصال بالعميد الموجى (الذى وقع أسيراً فى أيدي القوات البريطانية أثناء الغزو) فى المعتقل . أبدى العميد الموجى تخوفه من قيام القوات البريطانية باصطحابه هو وباقي الأسرى من الضباط المصريين إلى قبرص ، بعد انسحاب القوات البريطانية من مصر ، وعلى أثر ذلك أصدر سمير غانم تعليمات بخطط بعض الضباط البريطانيين ، حتى يمكن المبادلة بالضباط المصريين . وقامت مجموعة من الفدائيين بخطط أحد الضباط . وكان يقود عربية بمفرده عند ناصية شارع رمسيس بالقرب من ميدان ديلسبس فاستولوا منه على بطاقته ووضعوه فى عربية لأحد الفدائيين تصادف وجودها فى نفس المكان وصعدوا به بسرعة لأحد المنازل الخالية من السكان بشارع ابراهيم توفيق وكان اسم الضابط أنتونى مورهاوس وقيده ووضعوه فى صندوق لحمله خارج المنزل .

وعند استطلاع الطريق للنزول به فوجئوا بقوات كبيرة من البوليس الحربى البريطانى تقوم بتمشيط المنطقة بحثاً عن الضابط المخطوف . عادوا وصعدوا إلى أعلى المنزل ، ومن هناك قفزوا على سطح أحد المنازل المجاورة وتمكنوا من الهروب . ولكن أحد الفدائيين من أهالى الحى علم بوجود الضابط البريطانى فى هذا المنزل ووجد أن البوليس الحربى البريطانى يقوم بعمل علامة بالجير على كل منزل يتم تفتيشه فقام بسرعة خاطر بتقليد هذه العلامة على المنزل الموجود به الضابط المخطوف ولم يقم البريطانيون بتفتيش المنزل واستمرت عملية الحصار البريطانى على المنطقة عدة أيام فى خلالها مات

الضباط « مورهاوس » حيث لم يتمكن مختطفوه من العودة لإخراجه من الصندوق وإنقاذه . وبعد رفع الحصار عن المنطقة قام الفدائيون بدفن الصندوق وبه جثة « مورهاوس » في الحوش أسفل المنزل . وبعد جلاء القوات المعتدية عن مصر طالب البريطانيون به حياً أو ميتاً وسلمت لهم الجثة . وعلم فيما بعد سر اهتمام القوات البريطانية بهذا الضابط فقد كان يمت بصلة قرابة للأسرة المالكة البريطانية .

قتل ضابط المخابرات الشهير ويليامز

كان هناك مجموعة من الفدائيين صغار السن يقودهم عسران وكان لا يتعدى سنة ١٥ سنة وله شقيق استشهد في عمليات ضرب بور سعيد . نصب كميناً مع زملائه على الطريق المؤدى إلى الرسوة وخلف صندوق كبير انتظروا مرور عربة عسكرية منفردة فآلقوا عليها وابلا من القنابل اليدوية وفروا هارين . وعلمنا في نفس اليوم أن ضابطين بريطانيين كانا بهذه العربة وقتلا وكان أحدهما الكولونيل جريس والثاني الكولونيل ويليامز وهو الضابط الذى قام باعتقال ضباط الصاعقة وكان ضابطاً للمخابرات في القاعدة البريطانية . ولعب دوراً كبيراً في اعتقال كثير من الفدائيين عام ١٩٥١ ، وكان يحمى الخونة المصريين داخل المعسكرات البريطانية أمثال كنج صبرى ومكسيموس ، وحضر مع قوات الغزو وكلف بأن يعمل ضابط اتصال مع محافظة بور سعيد بعد احتلالها لأنه يتكلم اللغة العربية ورفض المحافظ محمد رياض ذلك .

لبحث عن جهاز اللاسلكى

وفي مساء أحد الأيام وبعد موعد منع التجول كنت مع محمد فائق وسمير غانم في البشة التى نقيم فيها بشارع الملكة فريدة . وكان سمير غانم يقوم

بالإرسال على جهاز لاسلكي قديم . أما نحن فكنا نراقب الشارع أثناء الإرسال ومرت عربية بريطانية متخصصة في تحديد اتجاه أجهزة اللاسلكي ومثبت بأعلاها هوائي مربع يتحرك حول نفسه في ببطء . وقد قصدنا بذلك أن تلتقط العربية صوت إرسال جهازنا فيبتعدوا عن موقع الجهاز الرئيسي مع فرج محمد فرج ولما اقتربت العربية ، طلبت من سمير غانم التوقف عن الإرسال والصعود بالجهاز إلى سطح المنزل وبعد قليل غادرت العربية المنطقة . فنزل سمير والجهاز معه إلى منزل آخر لتكرار الخداع مرة أخرى حتى يبتعدوا تماماً عن الجهاز الأصلي في منزل السيدة فاطمة الغريب والدة يحيى الشاعر .

الختم المزور

في صباح أحد الأيام ، وقبل أن أغادر المنزل الذي أقيم فيه سمعت أصوات حركة غير عادية في الشارع وخطوات سير جنود وعندما أطلت من النافذة وجدت أن البريطانيين ، أثناء الليل أقاموا سوراً كاملاً من الأسلاك الشائكة بطول شارع الملكة فريدة ونزلت مع الزميل محمد فائق فوجدنا أن هذا النطاق من الأسلاك الشائكة يحيط تماماً بالمنطقة المتاخمة وعلى السور داوريات وحراسة مركزة لحماية قواتهم أثناء الانسحاب عن طريق الميناء وقد عزلوا هذه المنطقة تماماً عن باقى مدينة بورسعيد حتى لا يدخلها المزيد من الفدائيين المصريين فيسببون لهم خسائر أثناء الانسحاب .

ووجدنا أنفسنا داخل السور معزولين عن بورسعيد ، تجولنا حول السور فوجدت فتحة وأمامها طابور من أهالى المنطقة المعزولة ، تسدح لهم السلطات البريطانية بالخروج من المنطقة لشراء حاجياتهم من بورسعيد والعودة . وكانوا يختمون على ذراع كل فرد يريد الخروج حتى يتعرفوا عليه عند

العودة ولا يدخل غيرهم . وقفنا في الطابور وتم طبع الختم البريطاني على ذراعى أنا ومحمد فايق . وذهبنا إلى مركز قيادة المقاومة وهناك أمكننا الاستعانة بأحد عمال الزنكوغراف وصنع ختماً مماثلاً . ختمنا به أذرع عدد كبير من أفراد المقاومة تمكنوا من دخول المنطقة المعزولة في نفس اليوم ، وقاموا في الأيام التالية بعمليات للازعاج ضد الجيش البريطاني أثناء عمل الانسحاب حتى آخر يوم لهم قبل الجلاء الكامل .

الأسر

في يوم ١٤ ديسمبر وصلتني اشارة شفرية عن طريق جهاز اللاسلكى لأعود من بورسعيد ، ومعى الزميل محمد فائق ليحل محلنا سعد عفرة بمجموعة أخرى رتب طريقة العودة مع الرئيس عبد المنعم الذى سبق أن حضرنا معه من المطرية . وغادرن بورسعيد عن طريق القابوطى صباح يوم ١٥ ديسمبر مبكرين بعد ارتداء ملابس الصيادين وكان معنا الاستاذ الطناحى من مجموعة الاعلام حيث كان مريضاً . قادنا الرئيس عبد المنعم عن طريق آخر فى مياه البحيرة الضحلة مسافة طويلة لنصل إلى مركبه فى (الغاطس) بعد جزيرة صغيرة هى جزيرة الخندق ، وعندما وصلنا إلى هذه الجزيرة ظهرت فجأة طائرة اسكتشاف بريطانية تطير فوق الملاحه وأخذت تحوم حولنا على ارتفاع منخفض . وقبل أن نصل إلى القارب مباشرة خرجت علينا من داخل أعشاب البحيرة داورية بريطانية فاحتجزتنا جميعاً وكان معنا عدد كبير من الصيادين والعمال وأمرونا بالجلوس على الأرض . كنت ارتدى سويتر وضعت فى جيوبه الداخلية نماذج من المنشورات والصحف التى كنا نلعبها ونقوم بتوزيعها داخل بورسعيد ضد الاحتلال .

وتوقعنا المتاعب فخلعت السويتر وبه المنشورات ووضعته داخل

الأعشاب وأخذت فقط بطاقتي المزيفة ومائة جنية كانت معى أعطيتها للرئيس عبد المنعم واحتفظت بالبطاقة فى جيب الجلاية . وعلى الفور بدأوا بتفتيشنا وعثروا مع الرئيس عبد المنعم على النقود فاستولوا عليها أما أنا فقد سلبونى دبله الزواج وأخذوا من الاستاذ الطناحى علبة الدواء . أما محمد فايق فوجدوا فى يده ساعة سلبوه إياها ، وأخذ محمد فايق يصيح بالانجليزية Give me my watch . I'am a school teacher, I'need my watch أعطونى ساعتى — أعطونى ساعتى أنا مدرس وفى حاجة إلى ساعتى . وأخذ الانجليز يضحكون وبالطبع لم يعيدوها له .

ثم جاءت مرحلة الاستجواب وكان يوجه السؤال بالانجليزية ضابط بريطانى وبجانبه مترجم يتكلم اللغة العربية باللهجة الشامية . ولما جاء دورى كان الضابط بعد أن أطلع على البطاقة يوجه لى السؤال باللغة الانجليزية وكنت لا أعيره اهتماماً لأنى صاحب محل دراجات لا يفهم الانجليزية . وقد تم الإفراج عن الرئيس عبد المنعم والاستاذ الطناحى والزميل محمد فايق وركبوا المركب إلى المطرية . أما أنا فقد كشفوا على باطن كفى ووجدوها غير خشنة بدرجة كافية كعامل يعمل بيديه . واحتجزونى مع عدد آخر من المعتقلين ، وأرسلوا فى الاستفسار عن صحة المعلومات التى بالبطاقة . واحتجزت لمدة ثلاث ساعات قاموا بتشغيل مع باقى الأسرى فى نقل الحجارة « دشمة مدفع » كانوا يقومون بتحسينها وكان العمل متواصلاً . ثم أفرج عنى وحدى وعدت مسرعاً إلى بورسعيد مرة ثانية لأبلغ باللاسلكى اننى لا زلت محتجزاً فى بورسعيد وكانوا قلقين على حتى أبلغهم محمد فايق بما حدث .

وفى يوم ١٧ ديسمبر قبل الغروب فوجئت وأنا برئاسة المقاومة بمكتبة العدى بحضور سعد عقرة فى زى رجال الاسعاف ويصحبته آخرون من

رجال اسعاف الاسماعيلية ومعهم عربية اسعاف جاءت بتصريح من
الدولى عبر طريق الاسماعيلية بور سنعيد خلال نقط تفتيش الجيش القه
استبدلت ملابسى بملابس أحد أفراد الاسعاف لأعود بدلاً من سعد
وفى يوم ٢٣ ديسمبر احتفلنا جميعاً بجلاء العدو .

التهامى .. والقلمة الغامضة

بعد الثورة مباشرة كان من الزملاء الذين عينوا معنا حديثاً بالمخابرات : حسن التهامى . ولم يكن له مكتب خاص بمبنى المخابرات . ولا نعلم عن عمل محدد يقوم به ، إلا مساهمته فى إحضار بعض خبراء المخابرات الأمريكيين لعقد حلقات دراسية لأربعة من ضباط المخابرات المصريين؛ للاستفادة بخبراتهم فقط ، كما أشرت سابقاً

وفى فترة متقدمة — بعد البدء فى إنشاء برج القاهرة بحيث أخذ يرتفع عن الأرض ، علمنا أن حسن التهامى احتل الدور الأول ، وأحاط جزءاً من هذا المبنى بأسوار عالية . وجعل له بوابات ضخمة وكان مقره فى مجموعه يشبه قلاع الأمراء فى العصور الوسطى . وحتى بعد احتلاله لهذه القلعة كنا نسميها قلعة الأسرار حيث عجزنا كضباط مخبرات وزملاء أن نعرف أى شىء عن العمل الذى يجريه داخل هذا الحصن .

بعد أن قام على صبرى باستلام العمل بالمخابرات العامة محل زكريا محيى الدين بعد العدوان الثلاثى علمت وأنا أعمل بالمقاومة الشعبية فى الإسماعيلية أن حسن التهامى قد صدر قرار بنقله من قوة المخابرات . ورفض حسن التهامى أن يغادر قلعته الغامضة بأسفل البرج واعتصم بها هو وأعوانه ، وأرسل له على صبرى رئيس المخابرات مجموعة مسلحة من ضباط المخابرات أرغمته على مغادرة قلعته . وبعد أن أنهينا عملنا بمنطقة

القنصل ، وعدت إلى عملي بالقاهرة علمت من كمال رفعت - وكان زميل دراسة لحسن التهامي - أن الرئيس عبد الناصر وصله نسخة من شرائط تسجيل مسجل عليها بعض أحاديث عبد الناصر التليفونية ذات الطابع السري وكان هذا هو السبب في طرده من القلعة وعلمت أيضاً أن حسن التهامي كان منذ بداية الثورة يعمل وهو موظف بالمخابرات في عمل خاص مكلف به من عبد الناصر .

هذا العمل لم نعرف به إلا مؤخراً بعد إرغام حسن التهامي على مغادرة هذا المكان ، وكان مسئولاً أمام الرئيس عبد الناصر عن مراقبة تليفونات أعضاء مجلس الثورة والوزراء والشخصيات ذات الصلة العامة وأنه يسجل هذه الأحاديث لعرضها على عبد الناصر فقط .

وكانت النتيجة أنه قام بتسجيل أحاديث عبد الناصر نفسه . وكانت حجة حسن التهامي عندما طالبوه بإخلاء القلعة أنه هو صاحب الفضل في الحصول على تكاليف إنشاء البرج من الأمريكان .

وكان من المفروض أن يجازى حسن التهامي على الأقل بإبعاده عن المراكز الحساسة بعد كشف عملية تجسسه على مكالمات الرئيس عبد الناصر . وهنا يثور التساؤل لمصلحة وحساب من كانت تسجل مكالمات رئيس الجمهورية ؟! ومع ذلك ، فقد نقل حسن التهامي معزراً مكرماً للعمل برئاسة الجمهورية وفي أعمال لا يعلمها أحد ، وفي هذه الفترة تظاهر بالتدين الشديد وأطلق لحيته . ثم أرغمه عبد الناصر على إزالتها بعد أن أحضر له الحلاق .

وبداية من هذا التاريخ بدأ في الهلوسة وخلط الواقع بالغيبات سواء كان عن عمد أو تمادياً في تغطية شيء لا يعلمه إلا الله والعالمون ببواطن

لأمور .

بعد وفاة الرئيس عبد الناصر أبلغني المرحوم كمال رفعت أن حسن التهامي أثناء عمله بالرئاسة ، بعد طرده من قلعة برج القاهرة ، فاجأه عبد الناصر بالوثائق التي تسلمها من الاتحاد السوفيتي التي تؤكد أن أحد أعضاء سفارتنا في موسكو وكان يعمل لحساب حسن التهامي قام بتجميع معلومات عن الجيش السوفيتي وتدريباته من الضباط المصريين الذين يتدربون في الاتحاد السوفيتي . وعلمت بذلك المخابرات السوفيتية بواسطة عملائها في الولايات المتحدة الأمريكية وأبلغ عبد الناصر هذه الواقعة للمرحوم كمال رفعت وعلمت بعد فترة بنفس هذا المضمون من صلاح دسوقي ، وهو على قيد الحياة أطال الله في عمره . والغريب في الأمر رغم كل هذه الأعمال من حسن التهامي فقد عين في فترة لاحقة سفيراً بوزارة الخارجية وصدر قرار جمهوري يسمح له بالزواج من أجنبية .

وبعد وفاة الزعيم عبد الناصر كنت أزور حسن التهامي في منزله للحصول منه على دراسات وقرارات المؤتمر الإسلامي حيث كان يشغل مركز سكرتير عام المؤتمر الإسلامي ، وفي هذه المقابلة الطريفة أخذ يقص على حقيقة قصة صفقة الأسلحة التشيكية . ومن ضمن حديثه أن الرئيس عبد الناصر قبل توقيع اتفاقية صفقة الأسلحة التشيكية أرسل حسن التهامي في مأمورية خاصة إلى الولايات المتحدة ليستطلع رد فعل رجال المخابرات الأمريكية CIA في أثر هذه الصفقة على السياسة الأمريكية إذا ما تمت ولما عاد من هناك طمأن الرئيس عبد الناصر بأنه قام باستجلاء الموضوع مع المسؤولين في الولايات المتحدة ، وأن توقيع وإعلان هذه الصفقة سوف لا يحدث أى انزعاج لواشنطن وقال للرئيس عبد الناصر وقع الاتفاقية ولا تخش شيئاً . وتردد عبد الناصر ، فما كان من حسن التهامي إلا أن صرخ في وجهه قائلاً « امض يا جبان !!! » وكان ردى على حسن

التهامى « أنه يجوز لك أن تقص مثل هذه القصص على أى إنسان آخر إلا على حيث إنى أعلم جيداً أنه لا يجرؤ أى إنسان مهما كان قريباً من الرئيس عبد الناصر أن يحدّثه ويأمره بهذه اللهجة المهينة » .

وجاءت فترة حكم الرئيس السادات وكان حسن التهامى من أقرب المقربين للسادات رغم ما اشتهر عنه من عدم الاتزان وتفسير الأحلام والغيبات علاوة على أنه كان قد بلغنى من أحد المقربين لأنور السادات عندما كان يرأس المؤتمر الإسلامى ويعمل معه حسن التهامى أن حسن التهامى دخل عليه مرة يراجع أنور السادات فى موضوع. وأخرج له مسدسه الذى يتباهى دائماً بحمله أينما كان وهدد به أنور السادات . فما كان من أنور السادات إلا أن نظر له فى هدوء وقال له « اجر يا ولد والعب اللعبة دى مع أحد غيرى لأنه فاتك أننى أتقن هذه اللعبة أكثر منك » ووصلت العلاقة بينهما لدرجة أنه اختاره كمندوب له للتقارب مع حكام إسرائيل وقابل موسى ديان فى قصر الملك الحسن ملك المغرب للتمهيد لزيارة الرئيس السادات للقدس ، وإعلان مبادرته .

والأخطر من كل هذا أن يعين أنور السادات حسن التهامى ذى الشخصية المهزوزة فى الظاهر والغامضة فى الباطن فى الوفد المصرى للتفاوض مع إسرائيل فى قلعة ليدز فى بريطانيا ثم يعينه فى وفد المفاوضات الرسمى فى كامب ديفيد وكان له مكانة عند السادات أثناء المفاوضات الجانبية تفوق صلاحيات وزير الخارجية المصرى محمد ابراهيم كامل الذى استقال من قبل إبرام اتفاقية كامب ديفيد وجاء فى مذكراته عن هذه الفترة فقرات كلها تهكم وسخرية مما كان يدعيه حسن التهامى أثناء المفاوضات أوفى وقت الراحة . عاد حسن التهامى بأكاليل الغار بعد كامب ديفيد

وألبسه الرئيس السادات ريش الطاووس في الاحتفالات العسكرية وبوأه مكاناً عالياً في يوم الزينة الكبرى بحيث كان يوازي أويتخطى نائب رئيس الجمهورية .

كل هذه المتناقضات تدعونا للعجب ولكن هذا العجب زال بعد رفع الحجاب عن أسرار المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط وبعد أن نشرت بعض وثائق السفارة الإيرانية في طهران بعد أن احتلتها منظمات طلبه إيران واحتجزت رجال السفارة فقد تناولت صلة حسن التهامي الوثيقة بالمخابرات الأمريكية وأنه كان هناك تنظيم سرى يجمع بين مخابرات إيران والسعودية ومصر والمغرب يطلق عليه نادى السفارى Safary Club وكانت سكرتاريته الدائمة بالقاهرة وقد تكلف إنشاؤها وتجهيزها المبالغ الطائلة وكانت مهمتها مقاومة الشيوعية في المنطقة وكان من ضمن المهام التى كُلفت بها هذا النادى الإعداد لاجتماع بين مصر وإسرائيل في قصر ملك المغرب .

وأخيراً وفي الأيام الأخيرة قبل حادث اغتيال أنور السادات ساءت العلاقات بين حسن التهامي وأنور السادات بسبب تصريحاته لبعض الصحف العربية بما يشوه اتفاقية كامب ديفيد ، ولكن حسن التهامي بقدرة قادر استمر في العمل وبدرجة نائب رئيس وزراء في رئاسة الجمهورية إلى أن أحيل إلى المعاش في عهد الرئيس مبارك . وتخلصت المسئوليات العامة في مصر من هلوسة صاحب قلعة الأسرار (القلعة الغامضة) والذي كان قادراً على تبوء أعلى المراكز رغم ما حوله من شبهات .

المخابرات .. وإعادة التنظيم

منذ بدء ، وإشراك « المخابرات الحربية » في مهام كثيرة لتأمينها من الداخل وتأمين البلاد من خطر القاعدة البريطانية التي كان يربض فيها أكثر من مائة ألف جندي بريطاني بأسلحتهم ، كان على المخابرات أن تجد شبابها وتعيد تنظيم نفسها . لم يعد أمام المخابرات إلا المساعدة في مواجهة التحديات الخارجية والمصاعب الداخلية إلى أن تحقق إبرام اتفاقية الجلاء وبذلك استكملت المخابرات تنظيمها حتى يلائم متطلبات الاستقلال الكامل وما يحتاجه ذلك من تأمين سياسة مصر الخارجية وأوضاعها الداخلية واستلزم ذلك :

(أ) محاولة تدريب ضباط في الاتحاد السوفيتي

حاولت مصر بعد الثورة مباشرة عن طريق سفير مصر في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت (عزيز المصري باشا) أن تعقد اتفاقاً مع الاتحاد السوفيتي لإرسال بعثة من بعض ضباط المخابرات المصريين تحت ستار العمل الدبلوماسي . وحضور تدريب في المخابرات الروسية ولكن السلطات السوفيتية لم توافق على الفكرة حينذاك .

(ب) الاستعانة بالخبراء الألمان

كانت المحاولة الثانية مبكرة . وعقب الثورة مباشرة حيث قام جهاز المخابرات باستدعاء عدد من أكفأ رجال المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء

الحرب العالمية الثانية عن طريق استدعائهم بواسطة الملحقين العسكريين المصريين في سفاراتنا بالخارج وفي البلاد التي كان هؤلاء الألمان يختبئون ويعيشون فيها . وقد استؤجرت لهم فيلا بعيداً عن جميع مباني المخابرات أقاموا فيها . وكانوا مكلفين فقط بكتابة مذكراتهم وخبراتهم في المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها . وخصصت المخابرات لهم طاقماً محدوداً من ضباط المخابرات لقراءة ومراجعة هذه التقارير والمذكرات وانتهوا منها بوضع المبادئ العامة لتنظيم أسلوب عمل المخابرات بما يلائم ظروف مصر وأمنها ثم أضفنا خبرات أخرى . حصلنا عليها من بعض الخبراء الأمريكيان . وحسب معلوماتي وقتها فإن حسن التهامي فقط هو الذي كان يتصل بالأمريكان .

(ج) الاعتماد على النفس

وتجدر الإشارة إلى أنه منذ بدء العمل في إدارة المخابرات بعد الثورة مباشرة . كان هناك تصميم بالاعتماد على النفس بالإضافة إلى الاستعانة بالمخابرات الأجنبية . وأعد ترتيب للحصول على مختلف المراجع والكتب التي تناولت أعمال المخابرات والجاسوسية في مختلف الدول قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها . ووجدنا بمكتبة المخابرات مجموعة لا بأس بها من هذه المراجع . قمنا بترجمتها وطبعها وتوزيعها على جميع العاملين بالمخابرات . ثم حصلنا على الكثير من المراجع والكتب عن طريق سفاراتنا وملحقينا العسكريين بالخارج وعكف على دراستها نخبة من الزملاء المصريين ضباط المخابرات واستخلصوا منها ما يفيد التنظيم وأسلوب العمل ، ثم وزعت ترجمتها على جميع ضباط المخابرات ليعكفوا على قراءتها والاستفادة من الخبرات التي تحويها . وكانت هذه الكتب هي المراجع الأساسية في حصولنا على أصول علم المخابرات وحقت لنا مبدأ الاعتماد على النفس .

(د) الاستفادة من المتخصصين الأمريكيين (سنة ١٩٥٣)

بعد الحصول على مذكرات الألمان والمراجع العلنية ودراساتها بدقة وقع الاختيار على مجموعة من ضباط المخابرات المصريين ليضعوا تنظيماً يلائم إمكانيات وظروف مصر كما ظهرت الحاجة الملحة لتطوير برامج مدرسة المخابرات ولتدريب ضباط المخابرات المصريين الجدد . وكان الضباط الموجودون بالخدمة أيضاً يتلقون هذا التدريب . كما أعد برنامج تدريب لضباط المخابرات بالقوات المسلحة حتى مستوى الكتيبة . وأثناء التطوير وإعادة التنظيم أمكن للزميل حسن التهامي عضو المخابرات والذي كان على علاقة مع أحد رجال المخابرات الأمريكية ، واسمه مايلز كوبلاند . أن يستدعى مجموعة خبراء أمريكيين في علم المخابرات .

قامت المخابرات المصرية بتجهيز منزل آمن لهم Safe House بالقرب من شارع الهرم وتكونت المجموعة المصرية من أربعة ضباط مخابرات فقط لعقد ندوات مع طاقم المخابرات الأمريكية في جميع أوجه التخصصات لمدة ثمانية أشهر .

وكان من المفروض أن يتلقى حسن التهامي المحاضرات معهم ولكنه كان يحضر من وقت لآخر بمصاحبة مايلز كوبلاند (وهو المؤلف المشهور لكتاب لعبة الأمم Lyame of Nations أثناء هذه الدورة . وبانتهاء الحلقات أو الندوات انقطعت صلة هؤلاء الخبراء الأمريكيين كلية بجهاز المخابرات والمجموعة المصرية . وتم تكليف اثنين من الضباط المصريين الأربعة بإعادة تنظيم مدرسة المخابرات والتي عرفت فيما بعد باسم « معهد العلوم الاستراتيجية » والتي كان يتلقى فيها رجال وزارة الخارجية الجدد الدراسة أيضاً .

التنظيم الجديد

بعد أن تقرر إنشاء جهاز المخابرات الاستراتيجية بقيت المخابرات الحربية تابعة للجيش ، وبها قسم الملحقين العسكريين وأنشئت المخابرات الاستراتيجية (العامة) . وكان تنظيمها نابعاً مما حصلنا عليه من بعض أفكار خبراء المخابرات الألمانية ومن المصادر العلمية الخاصة بالمخابرات من واقع الكتب والمراجع بالإضافة إلى ما حصلت عليه مجموعة الضباط المصريين الذين شاركوا في ندوات خبراء المخابرات الأمريكيين والذين اقترحوا تنظيماً عرضوه في ندوة على السيد زكريا محيى الدين رئيس الجهاز في

١٩٥٣ / ١٢ / ٣ .

وفي النهاية وضع تنظيم مثالي بمعرفة رجال المخابرات المصريين يلائم إمكانيات وظروف مصر آنذاك وصدر في مارس سنة ١٩٥٤ بقرار جمهوري على شكل قانون باسم المخابرات العامة . ومن وقت التحاقى بالمخابرات العامة في يوليو سنة ١٩٥٢ إلى أن غادرتها للعمل برئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٨ لم يطأ عتباتها ولم يتدخل في تنظيمها أو يشارك في برامج تدريب مدرستها أى أجنبية . ومنذ نشأة معهد العلوم الاستراتيجية توسع في التدريس والتدريب ليشمل ضباط القوات المسلحة ونخبة من الدبلوماسيين بوزارة الخارجية ، وضباط المباحث العامة في وزارة الداخلية ورئاسة مكاتب الأمن بالوزارات والإدارات الهامة في الدولة ، واعتقد أن هذا الجمع الهائل من الدارسين خير شاهد على استقلال جهاز ومدرسة المخابرات بعيداً عن أى تبعية أجنبية . وكان المعهد يستعين بأساتذة الجامعات المصرية في تدريس المواد المدنية التى لها صلة بالعلوم الاستراتيجية كل في تخصصه مما ساهم بشكل أساسى في إقامة البناء كاملاً على أكتاف المصريين فقط سواء كانوا عسكريين أو مدنيين .

مهمة في تركيا

بعد جلاء القوات المعتدية عن الأراضي المصرية أخطرت بأننى سأعمل في تركيا . وهى منطقة شديدة الحساسية بالنسبة للسياسة المصرية آنذاك لأنها كانت إحدى دول حلف بغداد (الحلف المركزى) الذى يتناه الغرب وأمريكا في الشرق الأوسط بغرض الانفراد به بعيداً عن سياسة التحرر التى كانت تخرض مصر عليها باقى الدول العربية .

وكانت السكرتارية الدائمة للحلف مقرها تركيا . كما كان لتركيا علاقات دبلوماسية مع إسرائيل وحدود مشتركة مع كل من الاتحاد السوفيتى وإيران وسوريا والعراق . ولها علاقات وطيدة مع إيران والعراق زميلتيها في حلف بغداد ولها سياسة وعلاقات متقلبة مع سوريا لموقفها الراض لحلف بغداد وعلاقة الشك وعدم الاطمئنان مع الاتحاد السوفيتى

ومصر بحكم أهدافها الاستراتيجية حينذاك كانت لها علاقات طيبة مع سوريا والاتحاد السوفيتى ، وعلاقات شبه عدائية مع حليفتى تركيا إيران والعراق .

وفوق كل ذلك كانت علاقة تركيا وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية ، التى ورثت الاستعمار القديم في الشرق الأوسط وكان لها قواعد عسكرية في تركيا وهى من أكبر المحرضين والباركين لنشر فكرة حلف بغداد على أساس سياسة احتواء الاتحاد السوفيتى Policy of containment . وتركيا

في نفس الوقت دولة إسلامية لها روابط إسلامية وعرقية وتاريخية مع مصر والعالم العربي . في نفس الوقت كانت مفتوحة سياسياً واقتصادياً وتمثيلاً مع عدوتنا وعدوة العرب إسرائيل وشعب تركيا المسلم يسهل تفاهمنا وتعاملنا معه رغم المظهر العدائي للحكومة التركية حينذاك بالنسبة للعرب بصفة عامة ولمصر بصفة خاصة .

وليس أدل على مدى عمق العلاقة الإسلامية بين تركيا ومصر من هذه القصة التي رواها لي الملحق العسكري المصري في تركيا في ذاك الوقت زكريا العادلي إمام قال « إنه قبل العدوان الثلاثي بمدة عندما كانت فرنسا وانجلترا تتحفزان وتهددان مصر على أثر تأميم قناة السويس كان لزكريا العادلي صديق تركي يشغل مركزاً هاماً بالأمن التركي العام .

وصلت معلومات لهذا الموظف التركي الكبير بحكم وظيفته تؤكد استعدادات فرنسا وانجلترا لشن هجوم على مصر وان مناطق وطواير التجمع للغزو العدوانى متجمعة في قاعدة قبرص . ذهب الصديق التركي بعد منتصف الليل إلى منزل ملحقة العسكرية في تركيا وأبلغه بتفاصيل هذه الاستعدادات شعوراً بانتهاه الإسلامى الذى يحتم عليه إعانة ومساعدة إخوانه المسلمين في مصر ودون أى مقابل » . كذلك كنا جميعاً نعلم مدى تدفق المتطوعين الأتراك على القنصلية المصرية . والسفارة في تركيا للمساهمة في مقاومة العدوان الثلاثي .

الواجبات

عملت في تركيا كمستشار صحفى في سفارتنا وكان لي مكتب صحفى في استانبول ، بالإضافة إلى مكتبي الصحفى في العاصمة أنقرة . وبدأت العمل في ٥ أغسطس سنة ١٩٥٧ وكان المطلوب منى :

(أولاً) العمل داخل إسرائيل نفسها عن طريق العلاقات المفتوحة بين تركيا وإسرائيل .

(ثانياً) مراقبة النشاط الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي الإسرائيلي في تركيا ومدى علاقة إسرائيل العسكرية بحلف بغداد .

(ثالثاً) مراقبة نشاط حلف بغداد وبخاصة ما له تأثير على سياسة مصر ومدى علاقة حلف بغداد بالسياسة العربية ونشاط وتفصيل قواعد الحلف العسكرية وبالذات سكرتارية الحلف الدائمة في تركيا .

أهمية التزود بالمعلومات

كالعادة . وكمبدأ في عمل فقد زودت نفسى بكثير من المراجع عن تاريخ تركيا القديم والحديث ، وقمت في نفس الوقت بالحصول من وزارة الخارجية ، ومن أرشيف المعلومات بالمخابرات على كل ما يخص حلف بغداد والحلف المركزى وعلاقة تركيا بإسرائيل . وأمضيت فترة الاستعداد للعمل بتركيا بالاطلاع بدقة على هذه المصادر .

عملت في تركيا في وظيفة سكرتير صحفى بالسفارة المصرية . أنشأت مكتباً صحفياً بالسفارة بأنقرة وآخر في استانبول إسلام بول (أى موطن الإسلام) ، وهى ميناء تركى هام وكانت عاصمة الدولة العثمانية قبل أنقرة . وطدت صلتى بالمراسلين الأجانب وبرؤساء تحرير الصحف ووكالات الأنباء المحلية والأجنبية . ونظمت إصدار نشرة أخبار أسبوعية أحلل فيها سياسة مصر إزاء كل ما يصدر من الحلف المركزى ، وإزاء مواقف مصر في مواجهة هذا الحلف بأسلوب تحليلي وقد حازت هذه النشرات رضى كل من كانت توزع عليهم من المواطنين الأتراك والعناصر الدبلوماسية .

تسلمت عملي في تركيا في ٥ / ٨ / ١٩٥٨ ووثقت صلتى بالتنظيمات الوطنية التركية المعادية لإسرائيل بحكم أوضاعها الدينية (الإسلامية) وكان أهمها جمعية مكافحة الصهيونية التي كان يرأسها الجنرال التركي المتقاعد المرحوم جواد رفعت أتلهان . وكان في شبابه ضابط مخبرات القائد التركي جمال باشا (الشهير بالسفاح) في سوريا . وكان له العديد من المؤلفات ضد الصهيونية والماسونية ، علاوة على كتبه التي ألفها عن الدؤنة وكان له الفضل في أنه أعطانا تفاصيل هذا التنظيم الصهيوني في تركيا وفي معظم البلدان الإسلامية والعربية .

وعن طريق الجمعيات المناهضة للصهيونية أمكن تجنيد عدد لا بأس به من الشباب التركي كانوا يقومون لحسابنا بالسفر إلى إسرائيل ، ويحصلون لنا منها على المعلومات . أو يجيبون لنا عن الاحتياجات التي كانت تطلب منا من رئاسة المخبرات في مصر . ويقومون بمأموريات سرية . كذلك عن طريق البلاد التي لها تمثيل دبلوماسي في إسرائيل وتركيا ، تعاونت مع كثير من العناصر الدبلوماسية الأجنبية في مثل هذا العمل . كما تم تجنيد بعض الصحفيين الأتراك والمصورين الصحفيين .

الجالية العربية

يوجد في تركيا جالية عربية كبيرة جداً خصوصاً من العراقيين والسوريين والأوروبيين ومعظمهم من الطلبة الذين يدرسون في جامعات تركيا . وتوجد مصاهرات بين العرب والأتراك . هذه الجالية الكبيرة من الطلبة تعرفت عليها عن طريق الملحق العسكري المصري المرحوم زكريا العادلي ، وكان يسبقني في العمل بتركيا بمدة طويلة . وقد أثنت وخصصت لهم صالة كبيرة بمكتبي كناد لهم . كانوا يترددون عليه كثيراً ويقيمون فيه حفلاتهم الوطنية وبذلك

ازدادت أعدادهم حتى كان هذا النادى فى وقت ما يجمع الطلبة العرب وبعض العرب العاملين فى تركيا . وعن طريق هؤلاء ومعارفهم من شباب الأتراك أمكن تكوين شبكة معلومات لا بأس بها . للعمل داخل تركيا وخارجها وكان هدفنا الرئيسى العمل على إسرائيل التى لها تمثيل دبلوماسى مع تركيا وعلاقات اقتصادية متشعبة . وكان الطلبة العرب بتركيا يتميزون بوعى وطنى وقومى على مستوى عال بصرف النظر عن اتجاهاتهم العقائدية أو اتجاهات حكوماتهم ، وكانوا يؤيدون على طول الخط سياسة مصر ويتباهون بالانتماء إليها بشكل أو بآخر .

الجمعيات الإسلامية

حضر الزميل أبو المكارم عبد الحى فى زيارة لتركيا ، وزارنى هو وأسرته . وهو ضابط سابق ومن الوطنيين الذين كانوا ينتمون إلى جمعية الإخوان المسلمين ، وكان قد صدر عليه حكم فى قضية الإخوان وظل هارباً بالدول العربية مدة طويلة . ولشدة غيظه على بلده وقومه عرض على التعاون فى تعريفى بأهم رجال ورؤساء الجمعيات الإسلامية التركية بحكم صلاته الدينية بهم . وقد أمكن الاستفادة بأعضاء هذه الجمعيات فى العمل ضد إسرائيل .

المياه الثقيلة

كانت قد وصلتني معلومات غير مؤكدة أن لإسرائيل أبحاثاً فى مجال المياه الثقيلة التى تستخدم فى صنع القنبلة النووية من الهيدروجين . وكان المطلوب التأكد من ذلك ومدى ما وصلت إليه إسرائيل من أبحاث فى تصنيع هذه القنبلة النووية .

أمكنتنى الاتفاق مع المندوب « فاوست » (الاسم الكودى) وهو شاب

تركى خريج كلية العلوم وله معرفة بأحد الدروز بإسرائيل وهو زميل دراسة في إحدى الحلقات العلمية في فترة من الفترات ويعمل في مركز البحوث بمعهد رحبوت الإسرائيلى .

سافر المندوب « فاوست » إلى إسرائيل وأمكنه الاتصال بالعالم الدرزى الإسرائيلى الجنسية . وكان فاوست يتجول في إسرائيل بصفته سائح ضمن وفد سياحى تركى . أمكنه بعد الاتصال بصديقه الدرزى وبالمناقشات العلمية أن يحفظ في الذاكرة عن ظهر قلب جميع المعلومات التى استنتجها من الأحاديث واكتفى بكتابة بعض رموز قليلة في صفحات متفرقة في نوتة التليفونات الخاصة به لتساعده على تذكر هذه المعلومات .

وعندما عاد إلى تركيا أمكنه وضع تقرير مفصل عن بعض المطلوب منه بعد إعادة تجميع كل ذلك من واقع الذاكرة وما دونه من رموز . وكانت عبارة عن معادلات كيميائية لمشروع تحضير المياه الثقيلة في إسرائيل .

وقد أمكن استكمال هذه المعلومات من مندوب آخر أجنبى . أما مندوب (فاوست) فقد تكررت زيارته على فترات متباعدة لإسرائيل للحصول على معلومات أخرى ذات أهمية علمية واستراتيجية طلبت الرئاسة منى الحصول عليها وكانت على شكل أسئلة علمية فنية محددة .

المقايضة

قبل ظهر أحد الأيام وكنت بمكتبى بأنقرة اتصل بى القنصل المصرى باستانبول الزميل خيرى العيوطى ، وطلب منى ضرورة الحضور إليه فى ستانبول بأسرع ما يمكن لأن لديه موضوعاً لا يحتمل التأخير . سافرت الطائرة ووصلت إلى مكتب القنصلية المصرية قبل الغروب . ووجدت

القنصل في مكتبه . نادى القنصل المصري على شخص كان ينتظر بالغرفة المجاورة وعرفني به وهو يوناني الجنسية وكانت ملابسه متواضعة جداً ويتكلم اللغة الانجليزية ببطء ولكنه مفهوم .

وكان يضع يده اليمنى بصفة دائمة في جيب بنطلونه . أفهمني القنصل أنه منذ وصوله لم يخرج يده من جيب بنطلونه ويشك في أنه يحمل سلاحاً يخفيه في جيب بنطلونه . وأفهمني أيضاً أنه حصر بخصوص مهمة مكلف بها من تنظيم يساري في اليونان لتوصيل معلومات في غاية السرية إلى أى من القنصليتين المصرية أو السورية (وكانت القنصلية السورية فعلاً تشغل شقة في نفس مبنى القنصلية المصرية وفوقها وكان وقت الوحدة مع سوريا) .

وناديت الزائر اليوناني وأمرته مبدئياً أن يخرج يده اليمنى من جيب بنطلونه . والمفاجأة أتى وجدت أن ساعده الأيمن بدون كف وبرر ذلك بأنه فقدتها أثناء مقاومة المظليين الألمان في معركة كريت في الحرب العالمية الثانية . وبدأ حديثه بعد أن اطمأن بعض الشيء وقال إن هناك في اليونان تنظيماً أمريكياً بريطانياً يقوم بتوصيل الهاربين المجريين أنصار إمري ناجي (الزعيم المجري ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثي على مصر) وكان رئيس وزراء المجر في وقت حركة المجر المعادية للاتحاد السوفيتي . ولكن اتباع إمري ناجي ورؤساء التنظيمات السرية المجرية المناهضة للشيوعية وللالاتحاد السوفيتي وفي أنحاء متفرقة ومعروفة على حدود المجر هاربون من بطش السلطات السوفيتية . وقال أيضاً إن هناك تنظيمات ومنظمات أخرى مناهضة خارج المجر وخصوصاً في يوغوسلافيا واليونان ، وتقوم بالتعاون مع التنظيم الأمريكي البريطاني في مساعدة العناصر المجرية الثائرة والهاربة في عبور الحدود اليوغوسلافية ثم إلى اليونان لانقاذهم من بطش السلطة الحاكمة في المجر .

وأضاف الزائر أنه عضو في الحركة اليونانية اليسارية ، ومكلف بتبليغ السفارة الروسية بتركيا عن طريق القنصل المصرى أو السورى كل هذه المعلومات الاولى وقد حذره التنظيم التابع له من الاتصال المباشر بالسفارة أو القنصليه السوفيتية وأن عليه فقط تبليغ قنصليتى مصر أو سوريا لتقوم إحداهما بتوصيل هذه المعلومات إلى سفارة الاتحاد السوفيتى .

وأفادنى أيضاً أن لديه باقى المعلومات التفضيلية عن هذا التنظيم الانجلو أمريكى في مدينة قوله اليونانية حيث يقيم وأن هذه المعلومات في وثائق فيها جميع أسماء وعناوين اعضاء المنظمة الانجلو أمريكية وأماكن التسرب على الحدود وقال إنه ينتظر وصول أحد المصريين لاستلام هذه الوثائق ليسلمها بدوره إلى سفارة الاتحاد السوفيتى بأنقره .

وعدت الزائر اليونانى بأننى سأقوم بالاتصال به في « قوله » في أقرب وقت وغادر هو مبنى مكتب القنصلية عائداً إلى بلاده على أساس أننى ساسلم هذه المعلومات الى الاتحاد السوفيتى ولكن اشترطت عليه ألا أسلمها إلا بعد الحصول على التفاصيل منه . سافرت في اليوم التالى إلى اليونان ومعى مساعدى الزميل سعد وفا ، وتقابلنا مع الزائر اليونانى في منزله في « قوله » .

وكان يقطن في أعلى منزل قديم بحجرة متواضعة بالسطح واستلمت منه جميع الوثائق وعدت إلى أنقره ، ويفحص الوثائق بدقة وجدت بها معلومات مفصلة عن التنظيم الانجلو أمريكى ورئاسته في القنصلية الأمريكية في اثينا وموقعه في يوغوسلافيا ومناطق التسلل عبر الحدود اليوغوسلافية المجرية ومراكز تجمع الهاربين داخل وخارج يوغوسلافيا وأسماء أفراد ومندوبى التنظيم الانجلو أمريكى وبعض أسماء المجريين المهمين المطلوب تهريبهم وأسلوب وسيلة تسللهم لاجتياز الحدود عبر يوغوسلافيا .

وتبين لى من مجمل المقابلة والمعلومات التى معى أن الحزب الشيوعى اليونانى هو الذى قام بتجميع هذه المعلومات الدقيقة عن طريق مندوبين له داخل التنظيم الانجلو أمريكى ولشعوره بأنه مراقب من سلطات الأمن اليونانية المخالفة مع الأمريكان فقد تعمد أن يكون توصيل هذه المعلومات إلى الاتحاد السوفيتى عن طريق طرف ثالث مصرى أو سورى وفى دولة غير اليونان وهى تركيا ، وأن الشخص اليونانى (المندوب الزائر) بحالته المتواضعة ولمعرفته اللغة الإنجليزية قد يكون أنسب الأشخاص لتغطية هذه العملية .

قررت الإستفادة لحساب مصر من هذه المعلومات وتأجيل تسليمها إلى الاتحاد السوفيتى . واجتمعت مع الملحق العسكرى المصرى الزميل زكريا العادلى إمام واطلعت على الموضوع وكان التعاون بيننا على ما يرام . قسمت كمية المعلومات بينى وبينه واتفقت معه على أن يُعطى هو هذه المعلومات على دفعات وفترات متتابة إلى الملحق العسكرى السوفيتى وأنا أعطى للمستشار الصحفى التشيكى نظير تكليفها بالحصول لنا على معلومات سرية للغاية ومطلوبة لمصر عن أدق الاستعدادات والأسرار الإسرائيلية وكان لدى كثير من هذه الاحتياجات . على أن تكون المقايضة جزءاً جزءاً بحيث عندما تصلنا معلومات صحيحة نعطي الجزء التالى مقابل طلب آخر وهكذا (الاحتياجات هى المعلومات المطلوب الحصول عليها عن العدو بأسلوب أوبأخر) . وكان المطلوب منى لرئاستى معلومات فى غاية الأهمية بالنسبة للكتلة الشرقية فقد قايضنا عليها بهذا الأسلوب .

تقابلت أنا والملحق الصحفى التشيكى وكان لى به صداقة ومعرفة وأعطيته جزءاً من المعلومات على أن يوافينى بكل ما هو مطلوب عن أبحاث المياه الثقيلة الإسرائيلية . ولا يمكن تصور مدى السعادة التى ظهرت على وجه الملحق الصحفى التشيكى عندما تسلم منى المعلومات فقد شد على

يدى وأبدى استعداده الكامل لتلبية طلبى . كذلك أبلغنى الملحق
العسكرى المصرى أن الملحق العسكرى السوفيتى الجنرال العجوز وكان
من أبطال الحرب العالمية الثانية كان فى غاية السعادة وأخذ يقبل الملحق
العسكرى المصرى عندما تسلم هذه المعلومات .

بعد يومين بالضبط وبسرعة غير متوقعة حضر لى الملحق الصحفى
التشيكى وبابتسامة عريضة سلمنى مجموعة أوراق مكتوبة بالآلة الكاتبة
باللغة الإنجليزية . أخذت أقرأها بتمهل فى حضوره وتذكرت أثناء القراءة
أننى سبق وقرأت مثل هذه المعلومات عن أبحاث المياه الثقيلة الإسرائيلية من
أحد المراجع العلنية وبنفس الألفاظ والمعلومات تقريباً . وسريعاً تذكرت أن
ذلك جاء فى الكتاب السنوى لإسرائيل المطبوع والذي نحصل عليه كل
سنة من الجناح الإسرائيلى فى معرض أزمير الدولى وبمتهى السهولة لأنه
كتاب دعاية عن منجزات إسرائيل فى جميع المجالات Year Book وتقوم
إسرائيل بتوزيعه على كل من يطلبه وأخرجت الكتاب السنوى الإسرائيلى من
رف المكتبة وقلبت إلى أن وجدت الجزء الخاص بأبحاث المياه الثقيلة من واقع
نشاط معهد أبحاث رحبوت الإسرائيلى واستعدت قراءة السطور بسرعة
ووجدتها منقولة فى الأوراق التى تسلمتها من الملحق التشيكي دون حتى
تصرف مغقول .

انتبه الملحق التشيكي فجأة أثناء شربه القهوة ووجدنى أقوم بعملية
المضاهاة وفهم الموقف . تلعثم فى الكلام وأنا صامت تماماً وأنظر إليه فى لوم
صامت أيضاً . وتمالك نفسه وقال ضاحكاً : إنه لم يكن يتصور أبداً أن
مثل هذا الكتاب الإسرائيلى فى حوزتنا ووعد أنه مستعد لتصحيح الغلطة .
ونصحته بإعادة النظر عند تقدير مستوانا كعرب متعلمين وبالطبع لم أسلمه
أى كمية أخرى من المعلومات ولكنه بعد عدة أيام عاد سعيداً ومعه تقرير

حقيقى عن أدق المعلومات عن أبحاث المياه الثقيلة فى إسرائيل . وأفهمته أنها معلومات صحيحة وقيمة حيث أن لدى بعضاً منها من مصادر أخرى . وعن طريق هذا الملحق الصحفى التشيخى أمكننى الحصول بعد ذلك عن طريق المقايضة أيضاً على معلومات كثيرة وأخرى عن إسرائيل . وكان الفرق بينى وبينه أن المعلومات التى أحصل عليها أفاض عليها بمعلومات كان من المفروض أن تصل إليهم إن آجلاً أو عاجلاً من مندوبيهم الشيوعيين فى اليونان . وبنفس الأسلوب والطريقة أمكن الملحق العسكرى المصرى زكريا العادلى إمام أن يحصل من الجنرال السوفيتى العجوز على كل ما كلفه به وبنفس أسلوب المقايضة .

وبعد مدة كشف الاتحاد السوفيتى اللعبة حيث وصلته أخبار العملية عن طريق الحزب الشيوعى اليونانى .

وقام السفير السوفيتى فى القاهرة بتكليف من حكومته بالاتصال بالرئيس عبد الناصر وأبلغه بكل شىء عن لعبتنا هذه ، وقام السيد على صبرى وزير شئون رئاسة الجمهورية وقتها بإرسال خطاب لى وللملحق العسكرى زكريا العادلى فيه لوم حيث كان علينا أن نرسل مثل هذه المعلومات إلى القاهرة للتصرف فيها على أعلى مستوى بين مصر والاتحاد السوفيتى . ولم يكن اللوم منصباً على الطريقة ولكنه كان يشير إلى مكاسب أكبر لو أن اللعبة تمت على أعلى مستوى .

المعلومات والفودكا

أثناء فترة تبادل المقايضة مع الاتحاد السوفيتى والسفارة التشيكية بأنقرة بخصوص معلومات المجر . دعيت إلى حفل أعياد أكتوبر فى سفارة الاتحاد السوفيتى بأنقرة . وقرب نهاية الحفل وكان أغلب الحاضرين من رجال

السلك الدبلوماسى فى تركيا فى حالة سكر . لاحظت حلقة كبيرة من رجال السفارة الروسية والكتلة الشرقية يحيطون بسيدة أمريكية رأيتهما فى هذا الحفل لأول مرة فى تركيا وعلمت بعد الاستفهام أنها القنصل الأمريكى الجديد الذى وصل حديثاً من القنصلية الأمريكية بيوغوسلافيا للعمل بالقنصلية الأمريكية فى تركيا . وكانت السيدة الأمريكية فى حالة سكر بين وتكلم بصوت مرتفع . وانضمت للحلقة المحيطة بالسيدة وكانت بدأت تفقد السيطرة على لسانها وتخوض فى الكلام عن عملية هروب كثير من زعماء حركة المجر وبعض تفاصيل عن حركة هروبهم .

تأكدت فى هذه اللحظة أن المعلومات السابق حصولى عليها هى مجال الحديث من أسئلة الروس بهذه السيدة المخمورة والتي كانت على علم بعملية مساعدة الهاربين من المجر عبر يوغوسلافيا التي كانت تعمل بها قبل حضورها إلى تركيا . كما وضح أن الروس لم يكن لديهم فى هذه اللحظة أكثر مما أعطيتهم . كما لاحظت أن هناك سيدة أخرى من عيون المخابرات الأمريكية كانت تراقب هذه الحلقة عن كثب لأنى علمت فى اليوم التالى أن الأوامر صدرت بنقل السيدة الأمريكية المستهترة من القنصلية العامة الأمريكية بأنقرة .

وثائق مكتب الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى

فى يوم وأنا بمكتبى بأنقرة قرأت إعلانات الصحافة التركية عن بيع سيارة شيفروليه جديدة يملكها أمريكى ويشترط أن يكون المشتري من السلك السياسى (لأن البائع الأمريكى إذا باع عربته باليرة التركية بمبلغ تركى كبير يمكن تحويل هذا المبلغ الضخم بالسعر الرسمى للدولار لأمريكى ويحصل على مبلغ مجز جداً لعربته قد يفوق ثمنها الأصلى وهى

جديدة بكثير) أحسست أن الصفقة بهذه الطريقة ستكون مجزية لي بشكل أو بآخر وبدأت العمل فاتصلت بالبائع الذي حضر وهو يقود السيارة بنفسه وخلفه زوجته تقود عربة أخرى ، وفهمت أنه على علاقة برئاسة الحلف المركزي .

أتممت الصفقة ووقعنا على العقود أملاً في كسب صداقته وخرج لينزع اللوحة المعدنية من العربة وأثناء إنهائه بفك اللوحات المعدنية ترك مطروفاً ضخماً به أوراق على ظهر العربة . وانتابني شعور بأنها أوراق هامة أشرت إلى مساعدى سعد وفا ليقوم بإخفائها داخل ملابسه وعند انصراف الأمريكى مع زوجته دخلنا المكتب بسرعة ووجدنا أن محتويات المطروف كلها مكاتبات سرية للغاية وهى مكاتبات متبادلة بين مكتب الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى بتركيا وبين سكرتارية الحلف المركزى فى تركيا مما أكد أن البائع الأمريكى نفسه يعمل بمكتب الاتصال الأمريكى . وتصرفنا بسرعة فى محتويات المطروف وبدأنا فى تصوير الأوراق ولكن البائع الأمريكى عاد قبل الانتهاء من عملية التصوير وأنكرنا معرفة أى شىء عن المطروف ونصحناه بالبحث فى الطريق لعله تركه على ظهر عربة زوجته قبل أن يغادرنا وسقط منه أثناء الطريق .

وللمرة الثانية أخذنا نستكمل عملية التصوير ووضعت الأصل فى مطروف أودعته فى نفس الليلة مع بريد الحقيبة الدبلوماسية للسفارة ليرسل إلى رئاستى بالقاهرة . ومن الاطلاع الثانى على صورة الوثائق التى تم تصويرها ومن خطاب الشكر الذى وصلنى من القاهرة عن هذه الصفقة الموفقة علمت أن هذه الوثائق ذات نفع كبير جداً حيث كان بها معلومات سرية للغاية عن خفايا حلف بغداد وعن السيطرة الأمريكية على الدول المشتركة فى هذا الحلف رغم أنها كانت مراقباً فقط فى هذا الحلف . وبالوثائق

مخطط كامل لضمان استمرار دول الشرق الأوسط حديثه الاستقلال تحت السيطرة الاستعمارية بأسلوب جديد هو أسلوب الاستعمار الجديد Neo - Colonialism وقد جاء بهذه الوثائق تقرير خاص عن سوريا واستلامها للأسلحة السوفيتية أخيراً وتوصيات مكتب الاتصال الأمريكي إزاء ذلك بتحريض دول الحلف المركزي لمواجهة هذا الخطر السوري بأسلوب إيجابي .

تحرش الحلف المركزي بسوريا

جاء بإحدى الوثائق التي حصلنا عليها بعد خطف مظروف ضابط الاتصال الأمريكي بالحلف المركزي تحريض واضح لدول الحلف المركزي للتحرش بسوريا كنتيجة لحصولها على صفقة أسلحة « شرقية » اعتقاداً من أمريكا بأن سوريا حقل مهد لانتشار الشيوعية . كانت هذه المعلومات عامة وليس لدينا أي معلومات أخرى تبين شكل وماهية هذا التحرش . وعقب ذلك مباشرة حضر جنرال تركي أسمر اللون للدرحة أنني اعتقدت لأول وهلة أنه من أصل أفريقي وتعجبت حينما وجدته لا يتكلم إلا التركية ، وبعض كلمات عربية لأنه يحفظ بعض آيات القرآن الكريم .

هذا الزائر كان خال المترجم التركي الذي يعمل معي بالمكتب والذي حضر معي للمساعدة في أعمال الترجمة حيث أن والده كان تركياً يعمل بالحكومة المصرية مترجماً أيضاً ووالدته تركية من أم سودانية وهذا هو شقيقها الجنرال الذي يقيم بتركيا ، وأثناء تقديم القهوة بحضور ابن شقيقته يلماز المترجم علمت أن خاله يشغل قيادة إحدى فرق الجيش في الجبهة الشرقية التركية المتاخمة للحدود السورية وأن جميع وحداته في حالة طوارئ وأنه بالكاد كنه الحصول على إجازة عدة أيام ليرى أسرته في أنقرة ويعود بعدها .

للجبهة . وعلمت أنه عند وصوله لمنزله من الإجازة علم أن يلماز قد قام في الأيام السابقة وهو موجود بالجبهة بزيارة الأسرة وأعطاهم خطاباً مرسلاً له من شقيقته والدته بلماز لرد الزيارة وإعطائه خطاباً لوالدته .

وتدرج الحديث حتى علمت أن السلطات التركية قامت أخيراً بإرسال تعزيزات ضخمة لوححدات الجنرال على الجبهة الشرقية على شكل حشود وأن كل الوحدات هناك في حالة طوارئ . جاء حديث هذا الجنرال الطيب مؤكداً أن هناك حشوداً تركية غير عادية على حدود سوريا وأرسلت تقريراً عاجلاً بذلك مشيراً إلى استكمال معلومات الوثيقة الأمريكية وكان هذا التقرير العاجل تأكيداً لمعلومات أخرى وصلت القاهرة من مصادر أخرى عن تزايد مثل هذه الحشود من جيش العراق على الحدود السورية العراقية . عقب ذلك قامت حملة سياسية إعلامية موجهة من مصر عن هذه الحشود بعد أن تأكدت الأخبار على أساس اعتقاد الغرب أن سوريا أصبحت أداة في يد الاتحاد السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط .

وقد قامت روسيا بحملة سياسية دعائية في نفس الوقت ، واتهمت تركيا بأنها تعمل على مساندة الولايات المتحدة في التدخل في شئون سوريا الداخلية . وأعلنت مصر بياناً يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ أعربت فيه عن وقفها بجانب سوريا ضد أى اعتداء يقع عليها . وقامت مصر في منتصف أكتوبر سنة ١٩٥٧ بتحريك بعض وحداتها العسكرية إلى سوريا عن طريق ميناء اللاذقية لتقف بجانب القوات السورية . وكان هذا التصرف من مصر بمثابة المشاركة مع سوريا في أزمتها كما أنه قد حرك مختلف العناصر السياسية السورية وعلى رأسها ضباط الجيش السوري للتعجيل بالوحدة مع مصر .

السوفيت ووحدة مصر وسوريا

في أول فبراير سنة ١٩٥٨ حضرت حفلاً كبيراً في السفارة الإيرانية وأثناء وجودي في حلقة من الحاضرين تجمع القائم بالأعمال السوفيتي (كان السفير في اجازة) ومستشار السفارة السوري والمستشار الصحفي العراقي وسكرتير من السفارة البريطانية ، اندفع مستشار السفارة الإيرانية لينضم للحلقة ، ويعلن أنه سمع لتوه أنباء إعلان الوحدة بين مصر وسوريا الذي صدر من القاهرة وفي الحال تعانقت مع مستشار السفارة السورية وتبادلنا التهاني . وأخذت التعليقات تتوالى من الحاضرين على هذا الخبر المثير .

وفجأة انفجر القائم بالأعمال السوفيتي مهاجماً هذه الوحدة ، وتنبأ لها بكثير من المتاعب مع البلدين وأجبهته بأن دولتي الوحدة لا يهمهما رأي أحد سواء بالتأييد أو الرفض وأنني كمصري أعرف جيداً رأي الاتحاد السوفيتي المعادي للقوميات ، ولكن هذا رأيهم ولنا أيضاً رأينا الخاص المخالف . وجاء هذا الرد المنفعل من القائم بالأعمال السوفيتي بشكل متسرع ليفصح عن أن علاقة مصر وسوريا بالاتحاد السوفيتي سوف يطرأ عليها بعض التغيير خصوصاً وأن التنظيمات الشيوعية في سوريا كانت تحت ظل النظام قبل الوحدة تعتبر من أقوى التنظيمات الشيوعية في العالم العربي وأن وحدة سوريا مع مصر سوف تضعف هذا التنظيم إن لم تكن ستقضي عليه وذلك من وجهة نظر الاتحاد السوفيتي .

وبالطبع أرسلت ملخصاً لهذا الحديث إلى القاهرة وفعلاً بعد ذلك بمدة وأثناء الوحدة مع سوريا ، انعكس عدم رضى الاتحاد السوفيتي كدولة عن الوحدة مع مصر على الشيوعيين العرب بصفة عامة وعلى الشيوعيين في سوريا بصفة خاصة وأصبح لهم موقف شبه عدائي من الوحدة مما جعل الرئيس

عبد الناصر يعاملهم بحزم أدى إلى فتور العلاقات مع الاتحاد السوفيتي لفترة ما .

استقبال لائق بأعضاء الحلف المركزي

قبل انعقاد اجتماعات إحدى دورات حلف بغداد في تركيا كانت هناك استعدادات كبيرة حيث إن وزير خارجية أمريكا فوستر دالاس كان سيحضرها . وجاءني قبل هذا الاجتماع أحد الشبان الأتراك المتمين إلى إحدى الجمعيات الإسلامية التركية المتعاونة معنا ، وطلب المعاونة في الحصول على مواد نسف وأجهزة زمنية ، وقال : إنه سوف يستخدمها ضد بعض منشآت دول حلف بغداد لأنه يعتبر هذا الحلف قائماً لمحاربة المسلمين . ودبرت له ما يطلبه . ويوم وصول وفود الدول الأعضاء إلى أنقرة وعلى رأسهم وزير خارجية أمريكا فوستر دالاس . وأثناء وجودي مساء بالمنزل مع بعض الضيوف السوريين سمعنا صوت انفجار شديد في سماء أنقرة . وبعد ساعة أخرى سمعنا انفجاراً آخر بنفس الشدة وخرج الضيوف للشرفة وتعددت تخميناتهم عن ماهية هذه الانفجارات . وأثناء الليل حتى الصباح حدثت ثلاثة انفجارات أخرى بنفس الشدة .

صدرت الصحف التركية في الصباح وبها وصف تفصيل لهذه الانفجارات وأماكنها ، وقد دمر أحدها وهو الأشد تأثيراً السفارة الأمريكية تدميراً كاملاً وعلى مقربة من مكان مبيت دالاس وآخر بجوار مكتب الاستعلامات الأمريكي الذي دمر معظم غرفه ومحتوياتها وثالث بجوار لوحة دعاية السفارة الإيرانية ورابع بمكتب الاستعلامات البريطاني وخامس داخل سنور السفارة العراقية .

وكانت الأخبار مصحوبة بالصور التي تين مدى الخسائر وكلها كانت

بحسائر في المنشآت فقط . بعد تلك الانفجارات اتخذت السلطات التركية ترتيبات أمن مشددة على مكان اجتماع الحلف وعلى منشآت وسفارات الدول أعضاء الحلف المركزي والدول الدافعة له . وعلقت الصحف التركية أيضاً أن الشبهات تحوم حول المنظمات الشيوعية السرية التركية (مع أن هذه المنظمات كانت بريئة من هذا العمل) وقامت السلطات التركية باعتقالات واسعة وعملية تفتيش على أوسع نطاق . وفشل اجتماع الحلف المركزي حيث عاد دالاس كما جاء وكانت هذه هي آخر حلقات هذا الحلف حيث إن انقلاباً قد حدث في العراق بعد ذلك بفترة وجيزة .

محاولة خطف الملك طلال

أثناء عملي بتركيا صدر إعلان في أول مارس سنة ١٩٥٨ عن قيام وحدة بين الدولتين العربيتين العراق والأردن ، والمرتبطتين بشكل أو بآخر بالحلف المركزي ، وهما ذات نظام ملكي . كان هذا الإعلان في ظاهره تحقيق وحدة عربية وفي باطنه يحمل معنى المناوأة للوحدة العربية بين سوريا ومصر ، ومع ذلك فقد اضطررنا إلى مباركة هذه الوحدة على أن أي اتحاد بين أي قطرين عربيين ما هو إلا وحدة في أي صورة ، ولكن كان على مصر بالذات أن تكشف أهداف هذه الوحدة .

قادني تفكيرى من هذا المنطلق لوضع خطة لاختطاف الملك طلال من معتقله بتركيا . على أن يعلن بعد ذلك على لسان هذا الملك الشرعى عدم موافقته على هذه الوحدة (الملك طلال هو والد الملك حسين ملك الأردن الذى ساعدته والدته الملكة زين وزوجة الملك طلال في عزل زوجها الملك طلال بحجة مرضه العصبى وأودعته مستشفيات أمراض النساء فى استامبول كمعتقل دائم له) .

وكان الملك طلال داخل مستشفى الولادة موضوعاً تحت حراسة أحد رجال الياوران الأردني الضابط صبحي طوقان وهو فلسطيني الأصل . أبلغت رئاستي ووافقت على خطتي وتعاونت مع الملحق العسكري زكريا نعدالي لتنفيذها . أرسل الملحق العسكري أحد رجاله لمقابلة صبحي طوقان على أنه صحفي مصري وكان صبحي طوقان حاد الذكاء ، وبسرعة غير متوقعة تجاوب معنا وأثناء حديثه مع مندوبينا أفصح له عن كامل استعداداته للمساهمة في عملية إخراج الملك طلال من تركيا وتسليمه لنا بأية وسيلة نراها وفي أي مكان أو ميناء حيث إنه كثيراً ما يصحب الملك في نزعات خارج المستشفى تحت مسئوليته هو خصوصاً بعد طول ملازمته إياه . طلب صبحي طوقان الاجتماع مع المسؤولين عن هذه العملية وفعلاً اجتمعنا معه ، واتفقنا على التفاصيل وأجلنا موعد التنفيذ بعض الوقت . وكان طلب صبحي طوقان الوحيد منا بعد نجاح هذه العملية هو أن يلجأ سياسياً إلى مصر . ولسوء الحظ في هذا الوقت بالذات حضر الصحفي المصري الأستاذ جميل عارف فحام حول المستشفى الموجود بها الملك طلال وأخذ كثيراً من الصور بآلة التقريب Telephota من خارج المستشفى كما أحدث بعض النشاط الصحفي المريب حول المستشفى ، ثم صدر عدد من مجلة المصور به ريبورتاج بصور تفصيلية عن حياة الملك طلال وحارسه والمحيطين به داخل المستشفى في صور واضحة ، وكان الصحفي والمصور كانا مقيمين معه داخل هذا المعتقل الصحي . لم يكن للصحفي المصري أي هدف إلا تذكير الرأي العام بمأساة الملك طلال التي طال عليها الزمن ، ولكن الملكة زين المدبرة الأولى لاعتقال الملك طلال انزعجت مما جاء بالمصور وتوقعت وجود مؤامرة . وأرادت التحقيق مع الحارس صبحي طوقان بعد الاشتباه في أن له يداً في وصول الصحفي

المصري لزوجها داخل المستشفى . كنت في أنقرة وطلبتني صبحي طوقان عن طريق القنصل المصري في استامبول حيث إنه تم استدعاؤه للأردن وأنه لا يرغب في تنفيذ هذا الأمر ويخشى أن تستعدي الملكة زين الأمن التركي لاعتقاله وترحيله إلى الأردن لمحاكمته .

سافرت إلى صبحي طوقان في استامبول وقابلته بمبنى القنصلية المصرية وأفهمني أن الملكة زين حضرت بنفسها منذ ساعة وأرسلت في طلبه وأنه رتب هروب أسرته في عربة جارتهم الصديقة التركية وحضر هو بعربته الخاصة لاجئاً إلى القنصلية المصرية في انتظارى . تصرفت بسرعة وكان معي مساعدى سعد وفا . جعلت صبحي طوقان يتصل بزوجته وشقيقته ويأمرهما بالسفر بعربة الجارة الصديقة التركية إلى الحدود التركية اليونانية وقمت أنا بعربتى ومعى صبحي طوقان وقاد عربة صبحي طوقان سعد وفا وتوجهن إلى أدنة على الحدود التركية اليونانية حيث تم اللقاء مع أسرة صبحي طوقان وكان معهم جميع أوراق السفر وتم خروج صبحي طوقان من تركيا عن طريق اليونان واتفقنا على أن نتقابل في مكان معين في أثينا وفي موعد معين وعدت إلى استامبول وقبل بدء العودة وجدت الأمن العام التركي منتشرأ في الطرقات في أدنة وخارجها حتى نقطة الحدود . ولكن سبق السيف العزل فقد خرج الطير من القفص . وسافرت فعلاً بعد يومين إلى اليونان وقابلت صبحي طوقان وزودته بما يلزم من النقود وجميع ترتيبات السفر بعربته وأسرتة إلى القاهرة ودخل لاجئاً سياسياً في مصر وأقام طول حياته بعد ذلك في مدينة الإسكندرية وفشلت خططنا في مساعدة الملك الشرعى للأردن .

سفارة العراق تعترف بالثورة

في يوم ثورة عبد الكريم قاسم على النظام الملكى العراقى وعلى نورى السعيد ، كنت أعلم تماماً أن سفير العراق في تركيا من رجال نورى السعيد

وكذلك كل طاقم السفارة العراقية ومن المتحمسين تماماً لحلف بغداد .
عندما أعلنت إذاعة بغداد نجاح الثورة قام الأمن التركي بعمل نطاق حراسة
مشددة حول مبنى السفارة ، ومنع الدخول والخروج إليها ومنها ذهبت بنفسى
بعد غروب نفس اليوم لأعرف الأخبار من السفارة ورغم تمتعى بالمزايا
الديبلوماسية فقد منعت من الدخول . وفى أثناء عودتى لمكتبى فكرت فى لعبة
أقوم بها لصالح ثورة العراق . فقد لاحظت عدم صدور أى بيان من السفارة
بالتأييد وصممت على إيجاد وسيلة لاجراج السفارة وبخاصة السفير العراقي
ودفعه إلى إعلان التأييد رغماً عنه وحتى بدون موافقته .

ولعلمى أن المستشار الصحفى العراقى نشدت بك يتقن اللغة التركية .
جعلت المترجم يلماز يطلب رئيس تحرير إحدى الصحف التركية الشهيرة
تليفونيا ويكلمه على أنه نشدت بك المستشار الصحفى العراقى ويبلغه أن
السفير العراقى سيعقد مؤثراً صحفياً صباح اليوم التالى ليعلن تأييده لثورة
العراق . انتهت المكالمة عند هذا الحد ، وحاولنا الاتصال ببعض رؤساء
تحرير باقى الصحف التركية ووجدنا الخطوط مقطوعة تماماً ويبدو أن الخبر
انتشر بغاية السرعة فى الوسط الصحفى التركى الذى كان متعطشاً لأى
جديد حول أخبار ثورة العراق حليف تركيا فى الحلف المركزى ، وتسرب الخبر
إلى الأمن التركى وقام بقطع الاتصالات التليفونية لجميع دور الصحف
التركية ووكالات الأنباء ولكن الخبر كان قد تسرب إلى إحدى وكالات الأنباء
الأجنبية ، التى أبرقت به وبعد ساعتين من بدء العملية استمعنا إلى صدئ
هذا الخبر فى إذاعة بغداد بأن السفارة العراقية بأنقرة تؤيد الثورة العراقية .

فى صباح اليوم التالى ، وصلتني أخبار تجمعات كثيرة من مندوبى
الصحافة المحلية والأجنبية ووكالات الأنباء حول مبنى السفارة العراقية ،

وخارج نطاق حراسة الأمن المركزي التركي انتظاراً للمؤتمر الصحفي الذي لن ينعقد . وأرسلت تقريراً بكل ذلك إلى القاهرة ليبلغ إلى سفير الثورة العراقية بالقاهرة السيد فائق السمرائي حتى تقف حكومته على حقيقة موقف السفير العراقي في أنقرة .

الطريق إلى إسرائيل من تركيا

كان مطلوباً مني الحصول على صور تفصيلية لجميع أسلحة إسرائيل في العرض العسكري الذي يقام هناك في أعياد الاستقلال ، ومن عدة زوايا وتطلب ذلك البحث عن مندوب تركي من الوسط الصحفي ، يتقن التصوير الصحفي . وعن طريق الجالية العربية المقيمة في استانبول أمكنني تجنيد المصور الصحفي التركي « جويد بك » (الإسم الحركي) والذي سبق له زيارة إسرائيل بدعوة من وزارة الاستعلامات الإسرائيلية وكان صديقاً لأحد السوريين المقيمين في استانبول .

تم الاتفاق معه على الرحلة . وبمناقشته في الغرض من هذه الصور وهي الوقوف على الجديد في التسليح الإسرائيلي . وجدت أنه على درجة عالية من كفاءة التصوير لمثل هذه المعدات حيث كان يعمل في فترة ما مراسلاً عسكرياً في كوريا مرافقاً للقوات التركية التي اشتركت مع الجيش الأمريكي في هذه الحرب . وكلفته في نفس المأمورية بتصوير دفاعات حيفا بعد اختباره لموقع مرتفع هناك يزوره بحجة السياحة . ويصور من هذا الموقع بانوراما كاملة لما حول حيفا ويحاول أن يسجل في الذاكرة أماكن المواقع العسكرية والدفاعية سواء أرضية أو ضد الجو ليعيد تحديدها على هذه البانوراما بعد عودته . حضر « جويد بك » العرض العسكري الإسرائيلي وحصل على صور دقيقة من جميع الزوايا لجميع الأسلحة الإسرائيلية المشتركة في

العرض . كذلك امكنه بعد حضوره ، وبعد تحميم وضغط ما التقطه من صور عن مدينة حيفا من لصق وتوصيل صور متتابعة . على شكل يانوراما كاملة حدد عليها لنا جميع المواقع الدفاعية الإسرائيلية . وبعد ذلك كنا نكلف هذا المصور الصحفي بالذهاب إلى إسرائيل بصفة دورية سنوياً في ميعاد العرض العسكري الإسرائيلي ليحصل على صور لما يستجد من تطور أو إضافة للسلاح الإسرائيلي . وكان من أهم المندوبين لدينا وكنت أبالغ في احتياجات تأمين اتصالاته بنا .

العملية الرباعية

وصلتني تعليمات من القاهرة أن أقوم بالاتصال بمندوب أوربي يعمل في إسرائيل كخبير في تخصصه . وفي نفس الوقت له مؤسسة ناجحة هناك (نظراً لأن هذا المندوب لازال يعمل في إسرائيل في تخصصه الأصلي بنجاح) فلن أفصح عن جنسيته الأصلية حفاظاً على أمنه فقد أطلقنا عليه اسماً كودياً (gite) هذا المندوب سبق له العمل في أجهزة المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية . تقابل المندوب مع أحد رؤساء مكاتبنا الخارجية في الدولة الأوربية التي يعمل بها واتفق معه مبدئياً على العمل في طبيعة تخصصه بعمله في إسرائيل ليتاح له الوقوف على أسرار ومعلومات ذات قيمة عن فرع للإنتاج الإستراتيجي والحربي في إسرائيل .

وقد أجل الاتفاق النهائي معه إلى أن يعاد الاتصال به في اليونان في فترة محدودة (من يوم وتاريخ كذا في يوم كذا) في المنزل الامن (Safe House) لنا هناك وليس في أحد الفنادق أو في أحد المحلات العامة .

وتم الإتفاق على أن الشخص الذي يتصل به من مصر حالماً يصل إلى Safe House يسأل عن الاسم (Mr. gite) ، وفي هذا المنزل وبمجرد

سماعهم هذا الاسم gite يتم ترتيب المقابلة باستدعائه تليفونيا من مكان إقامته باثينا . كلفت بهذه المقابلة وقمت بالسفر أنا ومساعدى سعد وفا إلى أثينا ولما وصلنا إلى ال Safe House.

وبعد مضي اقل من ساعة كان هناك شخص ما يطرق باب الشقة ، يصحب معه سيدة متوسطة العمر قال مقدماً إياها لنا إنها زوجته وكانت سيدة ذات ملامح جامدة عرفنا بنفسه إنه مستر gite جايت وافهمنا أنه لا حرج من الكلام أمام زوجته مسز جايت فى أى موضوع لأنها تشاركه فى كل أعماله . كانت المأمورية التى كلفت بها هى الاتفاق النهائى مع المندوب جايت Gite عن وسيلة الاتصال معه ، وهى إيجاد ما يسمى علم المخابرات السرية الصندوق الميت Dead Letter Box حتى يمكننا إسقاط تعليماتنا وأسئلتنا المطلوب منه الإجابة عليها (يطلق عليها فى المخابرات احتياجات أو Requirements) وبالتالي تصلنا عن طريق هذا الصندوق الإجابة عن احتياجاتنا ويقوم شخص غير معروف لنا وله بتلقى رسائلنا ورسائله وتوصيلها لأى من الطرفين حسب العنوان . ثم بعد ذلك كان الاتفاق المادى معه بصفة أولية على مبلغ ثابت ، يدفع له دورياً كل ثلاثة أشهر ويوضع فى حساب خاص بأحد بنوك سويسرا وكذلك كان لدى احتياج (أسئلة عن أسرار من داخل الدولة المعادية ، مطلوب الرد عليها كمعلومات) عن معلومات علمية على درجة عالية من الأهمية والسرية . وكان التكليف أيضاً ، الاتفاق معه على ثمن الرد على هذا الاحتياج الأول ، وتحديد له مبلغ لا يتعدى رقماً معيناً . وكان دائماً يستشير زوجته . أتممت المأمورية بالاتفاق معه على وسيلة التخاطب معنا بإرسال تقارير على شكل خطابات شخصية مكتوب بين سطورها الظاهرة المعلومات بالحبر السرى وذلك على صندوق بريد ميت Dead Letter Box تابع لنا فى اليونان أيضاً وأن تكون الرسالة معنونة بإسم مستر جايت Mr.

Gite (ولدنا شخص في الـ Safe House مسئول عن استلام مثل هذه الخطابات أو التقارير ويقوم المسئول بالمنزل الأمني بإرساله من اليونان داخل مظهر آخر خارجي إلى القاهرة رأساً بعنوان كان معي على صندوق بريد آخر ميت بالقاهرة كما أن رسائلنا إلى المندوب جابت تصل إليه منا بطريقة عكسية . أما الاسم الكودي المعطى له فهو اختصار لأول حرف من كل كلمة من الكلمات الأربعة التي تدل على البلاد التي يتم فيها الاتصال بيننا وبين المندوب Gite أى (Egypte (E), Turkey (T), Israel (I), Greece (g).

وبعد ذلك استمرت العلاقة بين رئاسة المخابرات بالقاهرة وبين هذا المندوب الثمين مباشرة من داخل إسرائيل وجاءت ردوده المتتالية بنتائج مشرقة .

المصيدة

في يوم ذهب أحد الشبان الأتراك إلى مبنى السفارة المصرية في طلب تأشيرة دخول إلى مصر ، وتقابل هناك مع يلماز المترجم الذي يعمل معي في المكتب الصحفي وكان على معرفة به من القاهرة . كان هذا الشاب التركي ضابطاً سابقاً بالجيش التركي وأصيب في يده نتيجة انفجار قنبلة أثناء التدريب وبعد علاجه بالمستشفيات العسكرية في تركيا ، ذهب لاستكمال علاجه بالقاهرة وتعرف هناك بوالد يلماز الذي كان يعمل بالترجمة في رئاسة مجلس الوزراء المصري وتوطدت العلاقة لطول مدة علاجه وكان يتلقى دروساً من والد يلماز كان هو الوحيد بالسفارة الذي يتكلم التركية ، فقد قام بتسهيل حصول الشاب التركي على تأشيرة الدخول إلى مصر . وكان قد أفهم يلماز أنه ترك الخدمة بالجيش نتيجة الإصابة وأنه يقوم ببعض الأعمال التجارية كما أفهمه أنه كان يشغل مركز ضابط مخابرات مع الجيش التركي

الذى كان يحارب في كوريا . وتواعد مع يلماز على تبادل الزيارات . روى لى
يلماز بعد عودته إلى المكتب هذه القصة ووجدتها فرصة للاستفادة من هذا
الشاب وشجعت يلماز على مداومة الاتصال به .

وبعد عدة لقاءات بينها وكان معظمها في النوادي الليلية بأنقرة حيث
كان هذا الشاب أعزباً . أبلغنى يلماز أن الشاب أبلغه أنه سبق له زيارة
إسرائيل في عملية تجارية وعرض بنفسه الخدمة من إسرائيل بعد عودته من
إتمام العلاج بمصر . ففعلاً قام بالسفر إلى مصر للعلاج وعاد بعد شهر
وجعلت يلماز يتفق معه على السفر إلى إسرائيل . وتم لقائى معه بعد تجهيز
أوراق سفره ووجدته شاباً ذكياً جداً وفيه كل مؤهلات رجل المخابرات وأعطيته
عدة أسئلة عن موضوعات واحتياجات كان مطلوب الرد عليها من إسرائيل
وقام بمأموريته خير قيام وقد أعطيته اسماً كودياً (جودت بك) .

وأظهر جودت بك حماساً كبيراً في التعاون معنا لحبه لمصر بعد تأثره من كرم
المصريين وسماحتهم عندما اتصل بهم في زيارته لمصر . وبعد مدة وصلنى
من القاهرة عدة احتياجات للرد عليها من داخل إسرائيل ، وسافر جودت
بك وعاد بعد ثلاثة أسابيع وقد نجح نجاحاً منقطع النظير في الحصول على
نسبة كبيرة من المعلومات المكلف الحصول عليها مما جعلنا نعتبره من أهم
المندوبين . وسافر عدة مرات متفاوتة إلى إسرائيل بعد أن وطد صداقته مع
شخصيات إسرائيلية ذات أهمية في مجال هذا العمل . وكان دائماً يعود ظافراً
بكثير من المعلومات السرية الهامة رداً على الاحتياجات التى كانت تعطى منا
له . وفى إحدى سفرياته بعد ذلك وبعد أن تم تجهيزه للسفر مرة أخرى بحجة
السياحة في إسرائيل وكان من ضمن الاحتياجات المطلوبة هذه المرة
الحصول على أطلس جيولوجى يباع في إحدى المكتبات في تل أبيب بشارع

كذا بالمبنى رقم كذا حيث يعرض هناك للبيع لمن يطلبه ، وبه معلومات تهسا عن مناطق التعدين في إسرائيل والمواد المعدنية الإسرائيلية الاستراتيجية . وبإحساس خفى شعرت أن هذا الاحتياج بهذا الترتيب غير منطقي ولكني أعطيته له كما هو مع تحذيره في تعامله مع هذه المكتبة المحددة بالاحتياج .

وبعد أسبوع تقريباً من سفره وكان صديقه المترجم يلماز يراجع الصحف التركية التي نتعامل معها في المكتب الصحفي أشار إلى خبر في إحدى هذه الصحف يشير إلى قيام السلطات الإسرائيلية باعتقال الجاسوس التركي الذي يعمل لحساب المخابرات المصرية وذكروا اسمه . وأرسلت في الحال في طلب المندوب (فاوست) السابق سفره إلى إسرائيل وكلفتة بتجهيز نفسه في أسرع وقت للسفر إلى هناك ونصحته بالسفر على إحدى البواخر وأيضاً بحجة السياحة وأن يقوم بتمثيل دور السائح الأجنبي الشاب ويتجول في أنحاء إسرائيل على فيسبا أو موتوسيكل يستأجره من هناك طول مدة إقامته السياحية وهي تسهيلات منتشرة في إسرائيل ، ثم يتوجه إلى هذه المكتبة في تل أبيب . ويطلب منهم خريطة سياحية عليها معالم الطريق بين تل أبيب وإيلات بحجة أنه ينوي زيارتها ، ولخصت له الموقف بمنتهى الصراحة ليكون على أشد درجات الحذر وأعطيته فكرة عن الأطلس الجيولوجي المشؤم حتى لا يطلبه إطلاقاً . أوصيته أيضاً بعدم حمل أى أوراق مكتوب فيها أى شيء يدعو للشك وأن يقوم بالة تصويره بتصوير الأماكن السياحية بعيداً عن أى أهداف تثير الشك . وقام المندوب (فاوست) بهذه الرحلة وحمدت الله كثيراً عندما عاد بعد عشرة أيام تقريباً وكان يحمل معه تفاصيل قصة مثيرة أكدت شكوكي حول ظروف اعتقال المندوب (جودت بك) .

فقد قام بجولته السياحية كما خططت لها ، ولكنه من بدء رحلته على الباخرة الإيطالية تعرف على أحد البحارة الإيطاليين اليهود من طاقم الباخرة

ووطد علاقته به واحتفظ لنفسه بكابينة على الباخرة طول مدة جولته السياحية لأنه سيعود بنفس الباخرة حيث حجز رحلة العودة عليها وفي نفس الوقت استأجر حجرة في فندق بتل أبيب .

وفي آخر رحلته ، توجه إلى المكتبة . ووجد أنها كانت مكتبةً تباع فيه بعض الخرائط السياحية فقط ، وفوجيء عند لقائه بأول عامل بهذا المكتب وسأله عن شراء خريطة سياحية باهتمام زائد به وتوجه إليه تلقائياً شخصان آخران وسألاه بانفعال ماذا يريد . ورد بثبات إنه فقط يريد شراء خريطة سياحية لطرق إسرائيل البرية حيث ينوى السفر بالفسبا الموجودة خارج المبنى إلى ميناء إيلات للسياحة . حضر بعد ذلك شخص آخر يبدو أنه مسئول كبير وأخذ يكرر عليه الأسئلة عن جنسيته وسبب زيارته لإسرائيل وأين يقيم ومعارفه في تركيا وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة والغريبة . وأصر هو على أقواله .

تأكدوا من وجود الفسبا خارج المكتب وكذلك تأكدوا من إجاباته وأنه قام فعلاً بزيارة كثير من الأماكن والبلدان السياحية في إسرائيل قبل حضوره إليهم مدعماً ذلك بما التقطه من صور فوتوغرافية وقاموا بتفتيشه وتفتيش جيبه فلم يجدوا أى شيء يريب كما أنهم أرسلوا في الاستفسار عن محل إقامته بالفندق وقاموا بتفتيش محتويات غرفته هناك تفتيشاً دقيقاً ، ولما لم يجدوا ما يدينه ، تركوه يغادر المكان وكان متأكداً أنهم سيراقبونه ، وتوجه مباشرة إلى فندقه وجمع حاجياته التي وجدها مبعثرة نتيجة التفتيش وتوجه من هناك مباشرة إلى الباخرة الإيطالية التي حضر بها إلى إسرائيل ولم يغادرها حتى عادت به إلى استانبول .

فاجأني عند هذا الحد من القصة المثيرة بأن أخرج لى من حقيقته مجلداً

كثيراً مكتوباً عليه نفس اسم الأطلس الجيولوجي المطلوب الحصول عليه من إسرائيل . ومن هذه المكتبة المزيفة بالذات . عقدت المفاجأة لسانى . فاستأنف كلامه فى هدوء عن كيفية حصوله عليه ، وقال : إنه بعد أن عاد إلى الباخرة ولجأ إلى كابيته فيها لحين الإبحار كان الغضب من تصرفات الإسرائيليين معه بالمكتبة قد أثاره وكان حافزاً له على الحصول على هذا الأطلس بالذات لأننى كنت قد أبلغته عنه وكلف صديقه البحار الإيطالى اليهودى بالذهاب إلى هناك ، وطلب هذا الأطلس بحجة أنه مكلف بشرائه لحساب أحد المهندسين الجيولوجيين الإيطاليين ، وحذره من عدم ذكر أكثر من ذلك هم . وفعلاً قابله رجال المكتبة المزيفة بشبه زفة ولكن بعد تأكدهم من ديانته اليهودية سمحوا له بشراء الأطلس .

وللقضية بقية

بعد حصولى على المعلومات من المندوب (فاوست) كتبت تقريراً مفصلاً مرفقاً به الأطلس وسافرت إلى القاهرة . وعلمت من المخابرات العامة بعد السؤال أبى هذا الاحتياج (احتياج الأطلس) طلبته المخابرات الحربية منهم . وطلباً رئيس المخابرات العامة القيام بتحقيق شامل عن هذا الموضوع الخطير . كذلك أمر بعمل تحقيق فى المخابرات الحربية وتمخض التحقيق عن الحقيقة التالية إن العملية بأكملها كانت مصيدة مدبرة من المخابرات الإسرائيلية . كان أحد المندوبين الذى يعمل مع الملحق العسكرى المصرى فى باريس ويدعى أنه من عرب فلسطين وظهر بعد هذه القضية أنه إسرائيلى ، مزيف الأوراق والهوية وقد زق (بمعنى أعطى المعلومات) معلومات إلى الملحق العسكرى المصرى فى باريس عن هذا الأطلس وأفهمه أن به معلومات عن المواد الاستراتيجية التعدينية فى إسرائيل

ومناطق استخراجها . وكان هذا المندوب في بعض الأوقات يمد الملحق العسكرى المصرى ببعض المعلومات الحقيقية عن إسرائيل والتي ليست ذات قيمة مهمة أو عاجله ليثق فيه .

وقد قامت المخابرات الحربية بمناولة المخابرات العامة بهذا الاحتياج الغريب عن الأطلس ، ووصل لنا الاحتياج بهذه الصيغة التي تبدو بريئة في مظهرها .

الرد

بعد الانتهاء من التحقيق تولانى شعور بالغضب ، وصممت على ضرورة الانتقام وافقت مع المسئول عن الخدمة السرية بالمخابرات العامة على خطة للرد على الفخ الإسرائيلى ، ورسمت الخطة معهم ، ونفذت كالآتى :

حيث انه بعد التحقيق ثبت أن مندوب الملحق العسكرى المصرى فى باريس المدعى « العروبة » ما هو إلا مندوب إسرائيلى ، فقد قررنا ورسمنا خطة لاصطياده هو الآخر بأسلوب يعادل أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذكى - طلبت معلومات تفصيلية عنه (اسمه ومكان إقامته فى باريس - الأماكن التى يتردد عليها هناك - أماكن سهراته فى باريس . . . إلخ) .

كلفنا أحد مندوبينا الأكفاء الشاب (عصمت) بالسفر تحت هذا الاسم إلى باريس ، والتردد على الملهى الذى يقضى فيه المندوب الإسرائيلى سهراته (كان معروفاً هناك باسم عمر) وتظاهر عصمت بميله للشرب والنساء . وبعد عدة سهرات سقط عليه عمر المزيف (فرض نفسه عليه) بعد أن تأكد أنه عربى ومتخيلاً أن عصمت هذا يعتبر صيداً جديداً . وأخذ « عمر » المزيف يصرف بسخاء على ملذات عصمت عدة أيام مدعياً أنه

عربي مثله إلى أن طلب في أحد الأمسيات من مندوبنا عصمت أن يعمل معه لحساب حلف الناتو حيث يمكنه الحصول منهم على مكافآت ومرتبات مجزية تكفيه للصرف على مثل هذه الليالي الحمراء ، في نظير إعطائهم بعض المعلومات .

وكان عصمت قد أفهم المندوب الإسرائيلي (عمر) أنه طالب مصري يقضى إجازته في فرنسا ، وأن له شقيقاً ضابطاً يعمل برئاسة هيئة العمليات بالجيش المصري وأعطاه اسمه (وهو اسم حقيقي لضابط مصري في هذا المركز ، وله شقيق طالب فعلاً ، واسمه عصمت ولكنه ليس مندوبنا وذلك حسب الخطة المرسومة بالقاهرة) وأن شقيقه هذا كثيراً ما يحمل معه إلى المنزل أوراقاً مهمة من عمله في رئاسة الجيش يشتغل فيها ليلاً - وعرض عليه المندوب الإسرائيلي وسيلة سرية للاتصال وذلك عن طريق الكتابة بالخبر السري بين سطور خطابات بريئة - ورتب عمر اجتماعهما مع أحد الأفراد الأجانب على أنه مندوب حلف الناتو - عاد عصمت إلى القاهرة بعد انقضاء إجازته (كما ادعى) وانتظر ورود خطابات المندوب الإسرائيلي عمر ووصله أول خطاب وطلب منه التعجيل بإرسال ما يسقط عليه من معلومات من أوراق شقيقه الضابط بالعمليات . وأرسلت فعلاً عن طريق عصمت هذه المعلومات المصاغة بمعرفة مسئولين في المخابرات الحربية والمخابرات العامة المصرية ، وبلاستعانة بنفس ضابط هذه العمليات . بعض هذه المعلومات حقيقي وبعضها حقيقي وغير هام مما جعل المندوب الإسرائيلي يطمئن للمندوب عصمت ويثق به ويثني عليه في الخطاب التالي واعتبره مندوباً جديداً وفي درجة عالية من الأهمية لإسرائيل (وكانت المخابرات الحربية تضحى ببعض المعلومات السرية الهامة ونرسلها عبر هذه الرسائل) .

ابتلع المندوب الإسرائيلي الطعم ، وبعد عدة رسائل بها وجبات شهية

من المعلومات المزقوقة من المخابرات المصرية - اقترح المندوب الإسرائيلي على عصمت أن يحاول تصوير هذه المستندات وإرسال صورها بدلاً من تلخيصها ونقلها وأبدى استعداده لإرسال أحد المدربين إلى مصر لتدريبه على مثل هذا النوع من تصوير المستندات تحت الظروف العادية من إضاءة وغيره . وكذلك وعد بإمداده بهذه الأجهزة التي سيشتري له بعضها من القاهرة وسوف يدلّه هذا المندوب في القاهرة على عنوان خاص بالمخابرات الإسرائيلية في القاهرة Dead letter Box يسلم فيه هذه الوثائق المصورة لترسل إليهم في إسرائيل بطريقة مأمونة . حضر المندوب وفوجي ء عصمت عندما استقبله في مصر بأنه مندوب حلف الناتو المزيّف وتم تسليم أجهزة التصوير إلى عصمت وتدريبه وتعريفه على العنوان الـ Dead letter Box وقد كان الصيد مزدوجاً ودسماً حيث إن المندوب الذي حضر على أنه مندوب حلف الناتو كان ثميناً للغاية حيث تبين من التحقيق معه أنه ضابط عمليات مخابرات إسرائيلي ، ويشغل مركز رئيس شبكة الجاسوسية الإسرائيلية بفرنسا ، وكان يعتبر الرئيس المباشر للمندوب المزيّف عمر الإسرائيلي . كما تم اعتقال الشخصية التي خلف الصندوق الميت (Dead letter Box) في القاهرة وكانت سيدة أجنبية تعمل في إحدى المستشفيات بالقاهرة . كل ذلك كان انتقاماً لاعتقال مندوبنا جودت بك .

جودت بك في سجون إسرائيل

حكم على جودت بك بخمس سنوات سجنًا بالأشغال الشاقة بعد محاكمته على تهمة التجسس لأعداء إسرائيل - وكتب مذكراته بالسجن وأرسلها لنا بعد نشرها بإحدى الصحف التركية بعد الإفراج عنه ، وجاء بهذه المذكرات أنه كان نزيل نفس السجن الذي كان به إيجمان . وقد شملت

مذكرات جودت بك الأيام الأخيرة لإيخمان ، وحديثه معه في السجن كما جاء بهذه المذكرات تفصيلات عن معاملة الإسرائيليين القاسية للمساجين والمعتقلين العرب الفلسطينيين في إسرائيل أما بالنسبة لجودت بك فقد نطق القاضي الإسرائيلي بالحكم عليه بخمس سنوات سجن قابلة للزيادة حتى تصبح المعلومات التي حصل عليها لصالح مصر غير ذات موضوع .

وفعلاً عندما أعلنت المصادر العلمية الصحفية عن قدرة إسرائيل على صناعة القنبلة الذرية ، أفرجت إسرائيل عن جودت بك بعد قضاء ثلاث سنوات فقط . وبعد الإفراج عنه سافر له مندوب خاص من مصر وعوضناه بعض الشيء عما حدث له وكان قد خرج من السجن مريضاً ومشوهاً من التعذيب أثناء التحقيق معه . وأمر الرئيس عبد الناصر بعلاجه على نفقة مصر في مستشفيات ألمانيا بعد أن تلقى منه خطاباً شخصياً عن مرضه ورغبته في العلاج في خارج بلاده - وبعد شفائه عاد إلى تركيا ورشح نفسه في الانتخابات ونجح كعضو في البرلمان التركي .

الرد السريع

كان من عادتي أن أزور المكتبات من وقت لآخر لاختيار بعض الكتب التي قد تفيدني في عمل .

ويوماً لفت نظري كتاب أمريكي عنوانه Information Please 1960 واشتريته . ووجدته عند تصفحي له كتاباً دورياً أمريكياً يصدر كل سنة ويحتوي على أحدث المعلومات في شتى الموضوعات والأحداث . والاختراعات والمشروعات الكبرى والتطورات في العالم واحتفظت به في مكتبتى بعد أن راجعت الفهرس .

وبعد فترة وصلني من القاهرة احتياج (طلب معلومات) عن خط
 أنابيب بترول حيفا إيلات في إسرائيل وهل تم إنشاؤه أو لا زال تحت
 الإنشاء ، وسعة قطره ومساره وكفاءة تشغيله عند العمل إذا كان قد بدىء
 العمل فيه وبمجرد أن انتهيت من قراءة الاحتياج ، تذكرت كتاب ال- Inform-
 tion Please 1960 وتصفححت الفهرست فوجدت أن الكتاب يحتوي فصلاً
 كاملاً عن جميع خطوط أنابيب البترول في العالم ونقلته الرد على الاحتياج من
 الكتاب بالكامل وأرسلته في نفس اليوم إلى القاهرة ومعه نسخة هدية من
 الكتاب .

عودة إلى المخابرات

في أوائل عام ١٩٥٨ شملني الدور في الترقى . وعدت إلى العمل بالمخابرات بالقاهرة في وظيفة رئيسية وهي مجموعة الصحف والإذاعات (المصادر العلنية) . وكان عملها ببساطة شديدة هو الحصول من الأخبار المنشورة في المصادر العلنية من صحف ومجلات وإذاعات وبعض الكتب السياسية والاقتصادية على المعلومات التي تجيب على احتياجات أو على ردود فعل لسياستنا الداخلية والخارجية أو حفظ هذه المعلومات حين الحاجة إليها ، أو إصدارها في شكل تقارير معلومات حسب أهميتها . ولاقتناعي الكامل بأهمية هذه المجموعة كمصدر من مصادر المعلومات شبه المؤكدة أو المؤكدة إذا ما أحسن تنظيمها وتشغيلها ، فقد عكفت على دراسة أقسام المجموعة المختلفة دراسة متأنية ووضعت تنظيما يطابق التنظيم الموضوع ولكن مع التحوير والتطوير الذي يحقق ما أقتنعت به .

وكان هذا التطوير يحتاج إلى مزيد من الأفراد الأكفاء وذوى المواصفات الخاصة وتعيين أو تشغيل مترجمين بعدد كبير في اللغات (الإنجليزية – الفرنسية – الألمانية – العبرية – اللغة الأفريقية السواحلية) .

واشتركنا في أهم الصحف العالمية ومن ضمنها الصحف الإسرائيلية ، وكانت تصل إلينا عن طريق دولة ثالثة . وكان هناك استماع كامل لمحطات إذاعة إسرائيل بالعبرية وبالانجليزية والعربية ومعظم

الإذاعات للدول الكبرى - علاوة على مجلات الاتحاد السوفيتي ونشراتها ومجالاتها الناطقة بالإنجليزية .

وعندما توليت رئاسة هذه المجموعة كان عدد المترجمين المعيّنين فيها لا يتعدى عدد أصابع اليد . وضعت مشروعاً لتشغيل المترجمين ذوي المؤهلات العالية كأساتذة الجامعات الذين تلقوا علومهم في البلاد الأجنبية ووضع لهم مشروعاً مرناً لتشغيلهم جزءاً من الوقت في وقت فراغهم من عملهم وأصبح جهاز الترجمة بعد مدة هو المرجع الرئيسي للدولة في الترجمة ، وكثيراً ما قام كثير من السادة المترجمين بمعاونة الدولة في المحاكم عند نظر قضايا الأجانب وفي مقابلات رئيس الجمهورية للأجانب أو بترجمة مراجع الجهات ومصالح حكومية كانت تطلبها منا .

وهذه أمثلة ثلاثة من الأعمال الكثيرة التي حققتها هذه المجموعة في علم المخابرات :

المثل الأول : عندما تأكد الرئيس عبد الناصر من عدم تجاوب الروس مع العلاقات المصرية خصوصاً بعد اعتقاله للشيوخ في سوريا ومصر وأنهم بدأوا في أحاديث مسئولهم وفي صحافتهم في الهجوم على عبد الناصر ونظام الحكم في مصر وكان قمتها هجوم خروتشوف في منتصف مارس سنة ١٩٥٩ على سياسة عبد الناصر حيال العراق .

وكان ذلك كله يصل للرئيس عن طريق الصحافة الغربية وأراد أن يضع حداً لهذا الوضع . وأن يتناول في إحدى خطبه هذه العلاقة المتردية بسبب الهجوم السوفيتي الإعلامي عليه وعلى مصر وطلب من المجموعة تجميع كل ما جاء على لسان كبار المسئولين السوفيت في صحافتهم من بدء هذا الخط

العدائي إلى وقت الخطبة وقامت المجموعة في أقل من ٢٤ ساعة بتجميع هذه المقالات والكلمات والتصريحات العدائية من واقع الأرشيف وما تجمع من مجلة الوقت السوفيتية وغيرها من المصادر وجاء خطاب الرئيس في دمشق يوم الأحد ٢٢ مارس حافلاً بالمعلومات ، طبقاً لما جمعته المجموعة وحمل عليهم محاولاً كشف حقيقة موقفهم في كل المناسبات .

المثل الثاني: في جميع الانقلابات التي حصلت في جهات العالم وبخاصة في سوريا والعراق وبعض الدول العربية كنا بمجرد أن يعلن عن أسماء الشخصيات التي قامت بالانقلاب ، نسرع من واقع أرشيف الشخصيات لدينا فتحلل كل ما هو مدون عن هذه الشخصيات الجديدة ثم يتم تحليلها بالاستنتاج والحكم القاطع على لون هذا الانقلاب في شكل نشرة سريعة توزع أولاً بأول .

المثل الثالث: تأكيد معلومات عن المفاعلات الذرية الإسرائيلية من واقع ترجمة فقرة جاءت بإحدى المجلات البولندية وكانت تصلنا عن طريق سفارتنا في بولندا كان بها معلومات تنشر لأول مرة عن أبحاث إسرائيل الذرية وعن المفاعل الذري الإسرائيلي .

إدارة محطات الإذاعة السرية

كان من ضمن اختصاصات مجموعة المصادر العلنية التي أتولاها إدارة محطات الإذاعة السرية ، وقبل أن أخوض في تجربتي عندما صدرت لي الأوامر بتشغيل محطة سرية ضد العراق في وقت ساءت فيه علاقات مصر مع رئيس العراق عبد الكريم قاسم عندما تمادى الشيوعيون العراقيون في الهجوم على الرئيس عبد الناصر ، أذكر في عجلة أصول واستخدام مثل هذه الإذاعات .

أشكال الإذاعات السرية

تنقسم الإذاعات السرية إلى الأنواع التالية :

(١) محطات متحركة (Mobile) تحمل أجهزة توليد القوة والبت الإذاعي في عربات ، ويمكن إخفاء مثل هذه المحطات في مناطق الثوار داخل الدولة (كمناطق الثوار الجزائريين مثلا) والمحطة المتحركة التي طلبها من مصر الزعيم العراقي حازم الطبقشلي قائد القوات العراقية في كركوك عندما كان يدبر انقلاباً ضد عبد الكريم قاسم ، والمحطة السرية التي أرسلتها مصر إلى القائد العراقي عبد الوهاب الشواف قائد لواء الموصل والتي ثبت عدم فاعليتها لأن إذاعاتها كانت غير مسموعة إلا لمسافات قصيرة لا تتعدى حدود الموصل .

(٢) محطة إذاعة متحركة (حقيقية) يمكن تشغيلها من خارج حدود الدولة حتى تنجح حركة الثوار في المناطق البعيدة عن العاصمة ، ثم يتم تحريكها إلى داخل الحدود للإذاعة حتى يتم استيلاء الثوار على الحكم وذلك كمحطة الإذاعة المصرية التي أرسلت من سوريا لتكون بالقرب من الموصل بعد أن فشلت المحطة الأولى التي أرسلت للشواف في مراحل الثورة الأولى لعدم قدرتها على الإرسال لمسافات طويلة .

(٣) محطة ثانية قوية جداً داخل الدولة نفسها تعادل في قوتها قوة محطات الإذاعة الكبيرة ، ولكن لها استديوهات منفصلة تنشأ داخل مباني أجهزة المخابرات نفسها . كمحطة ألمانيا الحرة التي كانت تذيع من إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومحطة إذاعة اليابان الحرة التي كانت

تذيع من الولايات المتحدة الأمريكية ضد اليابان ومحطة إذاعة اليابان الشهيرة التي كانت تذيع باللهجة الأمريكية على أنها داخل الولايات المتحدة وكان كبير المذيعين يطلق عليها « زهرة اليابان » . ومحطة الإذاعة السرية الألمانية التي كانت تذيع ضد الحلفاء تحت إشراف وزير الدعاية جوبلير .

التجربة المصرية

بعد نجاح ثورة العراق كان يمثل الجناح القومي نائب الرئيس عبد السلام عارف وبعد الثورة بأيام قابل الرئيس عبد الناصر في دمشق وكان التفاهم بينهما بأسرع ما يمكن خصوصاً عندما جاء الحديث عن الوحدة وكان هذا هو الوضع الطبيعي لثورة العراق - وتصرف عبد السلام عارف مع الثورة وزعيمها عبد الكريم قاسم على هذا الأساس . (الدعوة للوحدة مع مصر) ولكن هذا الوضع لم يرض عبد الكريم قاسم الذي كان يريد أن ينفرد بالعراق ، ولما اشتد ساعد القوميين المدعين بعبد السلام عارف ضربهم عبد الكريم قاسم بالشيوعيين وكان قمة ذلك عزل عبد السلام عارف ، ونقله إلى وزارة الخارجية ثم اعتقاله ، والحكم عليه بالإعدام الذي خفف إلى السجن .

وبطبيعة الحال ، أيد الاتحاد السوفيتي سياسة عبد الكريم المستعينة بالشيوعيين العراقيين . لضرب القومية العربية والوحدة إذ كان للاتحاد السوفيتي موقف علني ضد الوحدة العربية والقومية العربية . وهي المجال الرئيسي لسياسة عبد الناصر العربية والدولية . وعندما أخذ عبد الناصر بضرب الشيوعيين في كل من سوريا ومصر لتأييدهما أعمال الشيوعيين الفوضوية في العراق ، هاجم الاتحاد السوفيتي مصر وعبد الناصر علناً

ورد عبد الناصر على هذا الهجوم ولكن بأسلوب محسوب ومحدد لحاجته للروس الذين كانوا قد بدأوا في تحويل مشروع السد والمشروعات الصناعية الأخرى في مصر وتحويل التسليح المصري إلى السلاح الروسى .

إزاء كل ذلك ، كانت هناك محاولات من القوميين داخل العراق وجيش العراق للإطاحة بعبد الكريم قاسم . وقامت مصر بالاتصال بهم ومعاونتهم وكانت قيمة هذه التدابير تتم بين عبد الناصر والعناصر القومية في جيش العراق مما استلزم مساعدات الجمهورية العربية لهم بالسلاح وجهاز لتعبئة الرأى العام في الجيش العراقي والشعب العراقي والقوميين العرب وجاءت تعبئة الرأى العام على شكل محطات إذاعة سرية متحركة إحداها تم تسليمها للشواف في الموصل والتي فشلت لقصر مداها ، ووضع تحت تصرفهم محطة إذاعية سرية متحركة أخرى قوية وضعت في منطقة الغوطة بالقرب من دمشق وأخذت تبث إذاعتها أثناء ثورة الشواف بالموصل على أنها هى نفسها محطة إرسال الموصل التى ضربها عبد الكريم قاسم في أول الثورة وبعد فشل الثورة عادت إذاعة بغداد إلى شتائمها وهجومها على عبد الناصر وعلى سياسة الجمهورية العربية المتحدة . وكانت في نفس الوقت أجهزة إعلام الاتحاد السوفيتى تشترك معها في نفس الخط .

وفي نفس الوقت اشتركت في الحملة الهجومية انجلترا ذات النفوذ القديم في عراق ما قبل الثورة . كما اشتركت الأردن في نفس الحملة الإعلامية الهجومية على الجمهورية العربية المتحدة بالإضافة إلى أجهزة إعلام لبنان كل هذا المهرجان الإعلامى السوفيتى العراقى الأردنى اللبنانى جعل عبد الناصر يفكر بأسلوب عملى للتصدى لهذا المهرجان الإعلامى ولجأ إلى أسلوب لإعلام السرى لتلافى الحرج خصوصاً روسيا وذلك بتشغيل محطة سرية

قوية جداً من القاهرة تحت إشراف المخابرات العامة ليث من خلالها هجومه على الإذاعات المعادية دون تحفظ بالإضافة إلى ماتبه محطات القاهرة وصوت العرب الرسميتين من إذاعات محسوبة .

محطة إذاعة صوت الأمة العربية السرية

هذه المحطة كانت تحت إشراف في مجموعة المصادر العلنية (مجموعة الصحف والإذاعة بالمخابرات العامة) وهي محطة قوية جداً مخفاة في مكان حصين بالقاهرة ولها استوديوهات كاملة في مكان تابع للمخابرات العامة . وهذه المحطة كانت قد استعانت بها مصر بعد أن ضربت هوائيات إذاعة القاهرة في أبي زغبل أثناء العدوان الثلاثي سنة ٥٦ وتسبب في إسكات إذاعات القاهرة كلية - فقامت هذه المحطة في الحال بالعمل محل إذاعة القاهرة ونجحت نجاحاً منقطع النظير إلى أن أعادت محطات إذاعة القاهرة إصلاح الهوائيات .

وقد كلفت بعد فشل ثورة الموصل بتشغيل محطة الإذاعة السرية ، وبجانب الخطوط العامة لسياسة هذه المحطة وأهدافها والخط الإعلامي الذي أعطى لي والذي يجب أن تلتزم به الإذاعة ، فقد عكفت في قسم الشؤون العربية في مجموعتي مع الضابط المشرف على هذا القسم على الاطلاع على جميع ظروف موقفنا السياسي من ثورة العراق منذ نجاحها إلى أن انتهت بالموقف العدائي لعبد الكريم قاسم وانعكاس هذا الموقف على سياسة الإتحاد السوفيتي مع العالم العربي عامة والجمهورية العربية خاصة وموقف دول حلف بغداد ولبنان والأردن ونشاط بريطانيا في العراق .

بعد هذا الاطلاع الدقيق أمكنني التوسع في توضيح الخطوط العامة التي أمدتني بها رئاسة الجمهورية للالتزم بها .

بعد ذلك أطلق لي حرية التصرف في العمل فبدأت في اختيار الاسم الملائم وأطلقت عليها اسم « صوت الأمة العربية » وبحيث أضفت إلى الإطار العام مهاجمة الاستعمار والتدخلات الأجنبية في جميع دول وإمارات وأراضى الأمة العربية سواء المناطق المستقلة أو المناطق التي لم تتحرر بعد . ثم أنشأت قسم دعاية في المجموعة يجمع آخر أنباء دول وأراضى الأمة العربية من واقع نشرات الصحف والإذاعة اليومية ويصدر تقريراً يرسله إلى المحطة .

وقد قمت بالتعاون مع مكتب اللاجئين العرب برئاسة الجمهورية باختيار عدد كاف من اللاجئين الذين يصاحون ليذيعوا بلهجات بلادهم الأصلية ويكونوا على مستوى ثقافي يسمح لهم بالحكم على ما يصلح ليذاع ، وكيف يصاغ ، وخصصت للعراق بالذات طاقماً مميزاً بالمعرفة بشئون العراق . وخصصت لكل دولة عربية مذيعين من نفس الدولة وذلك للتمويه على موقع المحطة والجهة التي تذيع منها وأذكر من هؤلاء اللاجئين المرحوم الراوى من العراق وناصر السعيد اللاجئ السعوى ومجموعة من رابطة أبناء الجنوب وكثيرون غيرهم .

واستمر تشغيل هذه المحطة إلى أن سقط عبد الكريم قاسم في العراق .

مهام خار ج المردود

رحلة إلى سوريا

كان في إذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية أيام وحدة سوريا ومصر برنامج إذاعي يطلق عليه « مضافة أبو محمود » تقليداً للبرنامج المصري « ابوزكى » الناطق بالعربية . وجاء في أحد تقارير الرأي العام التي تصلني أن في اتجاهات الرأي العام السوري وبخاصة بين البدو في الريف السوري منه كثيراً من التبرم من الوحدة بسبب سياسة مصر هناك وأن كثيراً من السوريين يستمعون إلى البرنامج الإذاعي الإسرائيلي « مضافة أبو محمود » .

استمعت بنفسى إلى هذا البرنامج لمدة ثلاثة أيام ، وهو عبارة عن ديالوج يتم بين جيران وضيوف وأصدقاء الشخصية الخيالية أبو محمود يجتمعون معه يومياً للسمر في مضيفته (حجرة جلوس الضيوف) . وتجرى أحاديث ومناقشات تتناول الأخبار المحلية المحيطة بالمضيفة . وآخر أخبار سوريا وعلاقتها بجيرانها وأخبار عن أخطاء المصريين الذين يعملون بسوريا ، وببالغ في إثارتها ، وذلك كله في أسلوب بدوى مصاغ ببراعة فائقة فيه قليل من الحقائق ولكن مغلف بأكاذيب وتعليقات مسمومة (دعاية رمادية) .

إزاء ما جاء بهذا التقرير وبعد سماعى لهذا البرنامج عدة أيام . وتقديرى لمدى خطورته ، فقد ذهبت بنفسى في رحلة استطلاعية إلى سوريا وهناك قابلنى مندوب من المخابرات العامة ، ولحسن حظى كان الصديق زميل

الكفاح في عمليات القنال ضياء حسنين وهو شخصية محبوبة هناك في جميع الأوساط السورية .

تجولت معه في الريف وبين منازل وجماعة البدو ، وبعض منازل أصدقائه السوريين في العاصمة . وكان الصديق ضياء حسنين هو الذي يستدرج من نزورهم في الحديث عن هذا البرنامج ، وكانت النتيجة إجماع آراء كل من قابلتهم عن اهتمامهم بالاستماع إلى هذا البرنامج الذي يختلف عن لهجة السباب الخارجة عن الأخلاق والذوق العربي وضربوا مثلاً بذلك بهجوم إذاعات القاهرة ، على الملك حسين ملك الأردن ، وهو عربي قبل كل شيء ، بتسميته « حسين ابن زين » وهذا مخالف لأخلاق وسلوك وطباع العرب ، وخاصة البدو أو ممن هم من أصل عربي وجعلتهم مثل هذه الصغائر ينصرفون عن إذاعات مصر إلى البرنامج الإسرائيلي الخالي من الشوائب والسب .

وقمت بتحليل هذه الآراء مع الصديق ضياء الدين حسنين ، وعرض على أن نزور جمعاً من أصدقائه السوريين ذوى الميول الوجودية الذين يثقون فيه وكلهم من الشخصيات البارزة من الساسيين لأقف بنفسى على مدى تبرمهم من الوحدة .

وبعد حديث طويل قام هو بإدارته علمت منهم في النهاية أنهم ينتظرون أحداثاً خطيرة وشبكة الحوادث ضد الوحدة مع مصر . عادت إلى القاهرة ووضعت تقريراً عن توقع أحداث في سوريا ضد الوحدة . وفي نفس الوقت وضعت تقريراً آخر عن الرأى العام السورى وبرنامج إسرائيلى « مضافة أبو محمود » . وطلبت مقابلة المسئول عن إذاعة صوت العرب ولخصت له نتيجة هذه الزيارة .

وفى نفس الوقت تمت تقوية الشوشرة على إذاعة إسرائيل وبخاصة برنامج « مضافة أبو محمود » . وقامت إذاعة صوت العرب بعمل برنامج مماثل له كبديل للمستمع العربى .
وبعد مدة وجيزة حدث الانفصال .

رحلة إلى غرب أفريقيا

أثناء عملى بمجموعة المصادر العلنية قمت برحلة إلى غرب أفريقيا وزرت أربعاً من دولها واحدة كانت مستقلة من مدة طويلة وهى ليبيريا ، ولكن كانت تسيطر على حكومتها شركة دانلوب الأمريكية لصناعة المطاط حيث أن ليبيريا من أغنى بلاد العالم فى خام المطاط الطبيعى ، وزرت ثلاث دول مستقلة حديثاً هى غينيا وغانا والكمرون . والملاحظة العامة التى لفتت نظرى عن هذه الدول الأفريقية حديثة الاستقلال أن بها إمكانات كبيرة للتواجد العربى برؤوس أمواله البترولية للاستثمار بصفة عامة هناك ولتواجد مصرى بطاقاته العلمية والبشرية بصفة خاصة .

كان يمكن تزواج رأس المال العربى مع الخبرة المصرية للمساهمة فى التنمية الصناعية لمشاريع استثمارية تعود على الأطراف الثلاثة (الدول الأفريقية والرأسمال العربى ومصر) بالخير ، على الأقل فى مجال المنتجات الاستهلاكية والمثل الصارخ على هذا الخلل الاقتصادى كان واضحاً بشكل بارز فى ليبيريا Liberia حيث أن المحال التجارية هناك تجمع السلع من مواد تموين إلى مفروشات واثاث والضرورى لجميع مطالب الحياة نجد أن معظم خاماته من أفريقيا ولكنه مصنع فى أمريكا ويعاد بأعلى الأسعار إلى المستهلكين هناك وكان المثل على ذلك وجود كراسى الجلوس هناك كلها مصنوعة فى أمريكا من خشب المامبو المنتج والمستزرع فى غرب أفريقيا وليبيريا نفسها .

كانت شركة النصر المصرية للاستيراد والتصدير والتي كانت تعمل في غينيا مثلاً ممتازاً لهذا النجاح ولو أنها اعتمدت فقط على الاستثمار المصرى .

في طريق العودة من هذه الرحلة قمت بزيارة تونس والمغرب . وفي المغرب تصادف ميعاد زيارتي لها أن يكون عقب زيارة المرحوم الملك محمد الخامس لمصر ، وعودته على طائرة حربية مصرية يرافقه وفد مصرى صحفى من رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب المصريين بدعوة من الملك . تقابلت في الفندق مع هذا الوفد وكنت أعرف بعض اعضائه ودعيت معهم إلى حفل عشاء في قصر الملك . أثناء الحفل جلس معنا رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية ، وهو صحفى وأخذ يدعو الصحفيين المصريين لزيارة إحدى قواعد جيش جبهة التحرير الجزائرية في قاعدة له بالمغرب على الحدود الجزائرية . شعرت بعدم حماس معظم الصحفيين المصريين اللهم إلا المرحوم الأستاذ اسماعيل الحبروك رئيس تحرير جريدة الجمهورية فشجعتة ، وعرضت ذهابي معه .

لم يضع رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية الوقت . وأبلغنا أن الرحلة ستبدأ بعد نهاية حفل العشاء مباشرة . وبعد الحفل مر بنا مندوب الجزائر ونحن بعربته على الفندق حيث أخذ كل منا ماخف حمله من حاجيات المبيت لمدة يومين وتوجهنا في عربة مدنية قوية إلى القاعدة الجزائرية في داخل أراضى المغرب . وأختلطنا هناك مع شباب الجزائر أثناء تدريباتهم ووقف المرحوم اسماعيل الحبروك خطيباً واشتركت أنا معهم في ضرب النار وجمعتنا بهم موائد الطعام في مواعيد المعسكر وأخذنا صوراً معهم وانتظرنا إلى المساء ، وأخذنا عربة إلى ما قبل الحدود المغربية الجزائرية وعلى تل في العراء وجدنا هناك أحد افراد قوات المقاومة الجزائرية . حضر باتقان يبدو أنه تم باللاسلكى من داخل

الحدود ليقودنا كدليل في تسللنا إلى داخل الجزائر . وعلى الحدود جعلنا نزحف - خلال نفق محفور تحت سور الاسلاك الشائكة وعلمت فيما بعد أن مثل هذا النفق يجهز مسبقاً عند ما تكون هناك عملية إدخال لقوات الخارج . ويضطر بعد التسلل لإخفائه عن العدو الفرنسي .

كان يرافقنا عدد كبير لا يقل عن عشرين فرداً ممن تم تدريبهم . وفي الداخل وجدنا مندوباً آخر كان يختبئ في الليل خلف تل ويتنظر وصولنا . قادنا الفدائيون خلال دروب الصحراء مشياً على الأقدام لمدة ساعة ونصف وفجأة وجدنا أنوار قرية صغيرة . دخلنا القرية الجزائرية في حماية الفدائيين والمرافقين من أبطال تحرير الجزائر . في الصباح تناولنا مع عدد من كبار أهل القرية الإفطار . وأمضينا وقتاً طيباً بينهم أطلعونا على أسباب استقلال هذه المنطقة عن السيطرة الفرنسية . وعلمنا منهم أن جميع التلال المحيطة بهذه القرية تنتشر فيها فقط حراسة حصينة من جيش التحرير . وكثيراً ما قدمت حملات من الجيش الفرنسي لاحتلال هذه القرية ، وفشلت جميعها بعد تكبد الفرنسيين الخسائر الجسيمة .

مكثنا إلى وقت الليل في هذه القرية الصامدة الباسلة . وعدنا من نفس الطريق وينفس الأسلوب في أثناء الليل وانتهت الرحلة داخل الجزائر ولكني مكثت في القاعدة الخارجية حسب طلبهم بعد أن علموا مني سابق خبرتي في حرب العصابات في القنال وكانت لقاءات مثمرة تناولنا فيها تبادل الخبرات واستمرت لمدة أسبوع تعايشت فيه مع هؤلاء المكافحين وقام المرحوم اسماعيل الحبروك عند عودته إلى القاهرة بعمل ريبورتاج بالصور في جريدة الجمهورية عن هذه الرحلة الفريدة .

مأمورية في مقر الأمم المتحدة جينيف
في أواخر عام ١٩٥٨ كلفني السيد صلاح نصر بمصاحبة وزير

البحث العلمى كعضو فى وفد مصر للعلوم والتكنولوجيا فى جنيف (مستشار سياسى للوفد المصرى) . أعطانى نسخة دعوة وطبيعة المؤتمر وكان عنوانها « التطبيق العملى للعلم والتكنولوجيا » لصالح الدول النامية .

كان هذا المؤتمر أول مؤتمر يعقده المجلس الاقتصادى والاجتماعى بهيئة الأمم ECOSOC لهذا الموضوع . هذا المؤتمر كانت ستشارك فيه إسرائيل بوفد كبير وكذلك معظم دول العالم الثالث (الدول النامية) . وقمت بتحضير دراسة عن النشاط العلمى الإسرائيلى من واقع المصادر العلنية المجمعة فى أرشيف مجموعتى من الصحافة الإسرائيلية واستعنت بأفراد من وزارة البحث العلمى ثم قمت بتوزيع هذه الدراسة قبل السفر على جميع أعضاء الوفد وكان الوفد يضم نخبة كبيرة من علماء مصر بحيث كانوا يغطون معظم الفروع العلمية .

وتكونت لجان فرعية حضرت معظمها وكانت الدول الأعضاء فى المؤتمر قد تقدمت بمشاريعها العلمية ومعظم الدول الصناعية الكبرى والسابق استعمارها لمعظم دول العالم الثالث . تقدمت مصر أيضاً بكثير من الأبحاث لصالح هذه الدول فى شتى الفروع . وما كان يهمنى أنا بالفعل هو أبحاث إسرائيل وهى متاحة لمن يطلبها من إدارة المؤتمر بهيئة الأمم ، وذهبت إلى هذه الإدارة وحصلت على جميع أبحاث إسرائيل المقدمة للمؤتمر وكذلك بعض أبحاث الدول الصناعية الكبرى . وبما لفت نظرى وجود طاقم كبير من الروس ومعهم صناديق ضخمة يجمعون فيها نسخاً من جميع أوراق المؤتمر ليرسلوها إلى بلادهم .

هذه الظاهرة جعلتني أهتم بجمع أبحاث إسرائيل وجمع أوراقها التى تقدمها يومياً إلى المؤتمر حتى يمكننى عند العودة إلى مصر بواسطة جهاز الترجمة

مجموعتي « بالمخابرات » ترجمتها واصدارها في كتاب خاص بجميع أبحاث إسرائيل التي قدمتها للمؤتمر وكانت كلها منصبه على الاستخدام العلمي بتطبيق التكنولوجيا في جميع الأفرع وبخاصة في الصناعة لدرجة أنهم قدموا بحثاً كاملاً عن استخدام الطاقة الشمسية بانتاج مولد صغير للكهرباء من الطاقة الشمسية كان موزعاً في إسرائيل في المناطق النائية ويشمن زهيد . بعد أن قدمت هذا الكشف لرئيس الوفد المصري كان تعليقي أن إسرائيل من واقع أوراقها التي قدمتها للمؤتمر كانت مهتمة جداً خصوصاً في مجال الصناعة ، والتقط هذا التعليق عن صناعة إسرائيل رئيس الوفد صلاح هدايت وركز أعمال الوفد يومها على استخدام العلوم والتكنولوجيا في التنمية الصناعية . لاحظنا أثناء هذه المناقشة المثمرة أن كشف الأسبقية المجهز من معظم الدول العظمى لم يجيء به أى شىء عن الصناعة إما تجنباً أو تجاهلاً .

كما لفت نظر أعضاء الوفد المصري نتيجة للمناقشات أن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية موجود لها وكالة مخصصة في هيئة الأمم إلا وكالة عن الصناعة (Specialized agencies) ويومها قام وفد مصر ليلاً بتحضير دراسة ومشروع اقتراح بإنشاء وكالة للصناعة بالمجلس الاقتصادي والاجتماعي حتى يمكنها القيام بدورها لصالح الدول النامية .

واتخذ المؤتمر قراراً بالنظر في تشكيل وكالة للصناعة مستقبلاً حسب ما تسمح به ميزانية هيئة الأمم .

برىء في قفص الاتهام

في آخر أيام عملى بمجموعة المصادر العلنية بالمخابرات العامة ، وانتدأبى للعمل بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى اتصل بى تليفونياً

بمكتبى أحد الشبان الذين عملت معهم فى أعمال المقاومة بالقنال أيام العدوان الثلاثى وكان يقوم متطوعاً بقيادة مجموعة من الشباب الوطنيين ولاعجابى بهذا الشاب ومعرفتى السابقة به ، فقد رشحته بعد العدوان للعمل بالمخابرات العامة . ونسيت الموضوع كله إلى هذا التاريخ . أفادنى تليفونياً بأنه بناء على ترشيحى له عام ١٩٥٦ تم تعيينه بمكافأة مجزية للعمل بالمخابرات فى الخدمة السرية وأثبت كفاءته فى العمل . كما حصل أثناء عمله بالخدمة السرية فى الخارج على الشهادات التى تؤهله للعمل كضابط مخابرات .

وبدأت المخابرات العامة فى اتخاذ اجراءات التعيين وكان فى إجازاته أو مأموريته فى القاهرة يدخل ويخرج لمبنى المخابرات بتصريح . وفجأة عندما حضر آخر مرة . سحبوا منه تصريح الدخول وبلغ بأنه قد استبعد من العمل فى المخابرات . حضر لمقابلتى وأبلغنى أنه عندما رشحته المخابرات للعمل استقال من عمله الذى كان يحقق له دخلاً مرتفعاً فى إحدى الشركات ولكن المخابرات العامة جعلته يستقيل من عمله الأسمى وعينته فى وظيفة متواضعة بمرتب متواضع فى هيئة تنمية الصادرات كغطاء لعمله السرى الخارجى .

وبعد أن استغنت أخيراً عنه وبدون أسباب عاد إلى هيئة تنمية الصادرات بمرتب لا يكاد يكفيه ، وهو لا يمكنه العودة للعمل بالشركة الأصلية بالمرتب المجزى حيث رفضوا إعادته بعد هذه السنين الطويلة .

اتصلت بمدير مكتب رئيس المخابرات العامة فأرسل لى ملفه . بالاطلاع على الملف وجدت أن المخابرات العامة كانت جادة فى إجراءات عينته والتى تقتضى التحرى عنه من المباحث العامة ووجدت فى تقرير التحرى أن هذا الشاب يقطن فى شقة بعمارة فى مدينة المقطم وقد ثبت أن

زوجته أثناء عمل زوجها في الخارج مدة طويلة كان يتردد على منزلها أحد أثرياء العرب بعربته ويصعد إلى شقتها ، ويقضى معها أوقات طويلة ، وقد يقطن معها لعدة أيام . وهذا هو سبب استبعاده فجأة من العمل بالمخابرات وأصبحت بصدمة . لأن الشاب كان في منتهى الرجولة والأخلاق وفي نفس الوقت لم استطع مصارحته بهذه المعلومات .

اتصلت به وأفهمته أنني سأبحث بنفسى له عن عمل . ولحسن الحظ انتقلت بعد أيام للعمل متدباً في الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي . ورشحته للعمل بمكافأة معى في نفس الأمانة لأننى كنت أقدره ومعجباً به وكنت المكافأة التى اقترحتها مجزية جداً .

استمر يعمل معى منذ التحاقى بهذا العمل وكان في منتهى الكفاءة والأمانة والذكاء في جميع تصرفاته .

وبينما كنت استعد للعودة ، إلى عملى الأصيل بالمخابرات العامة سألتنى المرحوم المهندس سمير حلمى وكان وقتئذ رئيساً لكبرى شركات نقل الركاب عما إذا كان هناك موظف كفء ليعمل معه مديراً لمكتبه . فأشرت عليه بالموظف المذكور لشعورى بصلاحيته الفائقة ووطنيته الخالصة حيث أنه تطوع في حرب فلسطين ١٩٤٨ مع قوات البطل احمد عبد العزيز كما شارك في أعمال المقاومة ١٩٥١ .

وأثناء إتمام اجراءات التعيين أمكنه الاطلاع على ملفه المحفوظ في الأمانة ووجد فيه التحريات المخرجة القديمة . وحضر لى بعد عدة أيام ومعه ملفه ومعه رد على خطاب تمكن من أن يرسله للتحرى من المرور عن صاحب رقم العربية ذات الأرقام الأجنبية (الكويتيه) والتى قيل إن الرجل العربى كان يحضر بها إلى منزل زوجته . وجاء رد إدارة مرور القاهرة بمفاجأة غير متوقعة .

لى ان هذه العربية تخص مواطناً مصرياً وذكرت اسمه ، ثم قدم لى الموظف فى نفس الوقت إعلماً شرعياً رسمياً بأن هذا الشخص الذى قيل عنه إنه عربى تردد على زوجته هو شقيق زوجته المذكورة فى الإعلام الشرعى وأنه يعمل بالبلاد العربية بالكويت ويحضر فى إجازته للإقامة مع شقيقته فى منزله .

صعقت لهذه المعلومات التى صححت وضع الشاب الأمين وشعرت بكثير من الرهبة والخوف لخطورة المعلومات المضللة التى يقوم بالحصول عليها جهاز المباحث العامة والتى قد تتسبب فى الضرر البالغ لأشخاص أبرياء . وقد ثبت بعد ذلك أن المخبر الذى كان مكلفاً بالتحرى عنه لجأ لى أحد المكوجية فقال له المكوجى الجار هذه المعلومات الخاطئة والخطيرة والتى استنتجها من ظواهر الأمور .

.. وبدأت العمل في الاتحاد الاشتراكي

فوجئت وأنا بمكتبي بالمخابرات العامة مساء أحد الأيام بتليفون من الزميل المرحوم كمال رفعت يبلغني أنه قد صدر قرار جمهوري يذاع في نفس اللحظة من محطة القاهرة بتكوين الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي ، وجاء في هذا التشكيل اختياري عضواً بالأمانة العامة ضمن أسماء آخرين . استمعت إلى نشرة الأخبار . وأخذت أفكر في هذه المفاجأة لأنني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعاً بأسلوب هذه التشكيلات السياسية . منذ هيئة التحرير والاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي الذي كان قائماً من مدة كبيرة قبل إعلان التشكيل الجديد للأمانة العامة .

وفي نفس الليلة ، اتصل بي تليفونياً الزميل عبد المجيد شديد وكان يعمل مع السيد حسين الشافعي بالاتحاد الاشتراكي وأبلغني بموعد تحديد للقاء في صباح اليوم التالي مع السيد حسين الشافعي المسئول عن الاتحاد الاشتراكي . وذهبت إلى مقر الاتحاد الاشتراكي بقصر عابدين للمقابلة . وقابلت السيد حسين الشافعي ولم أكن قد تعرفت به من قبل . وأخذ يشرح لي كل شيء عن الاتحاد الاشتراكي منذ تكوينه وأخذت أبحث عن ثغرة أنقذ منها لإعلان قراري بالاعتذار عندما بدأ يتكلم عن نظام العمل . قطعت الحديث وقلت له إنني قرأت جيداً ويأتقان كل شيء عن هذا التنظيم ونظام العمل ، والميثاق . وللأسف فإن الممارسة العملية بعد عملية الانتخاب التـ

أفرزت المؤتمر القومي كانت تقضى بإجراء انتخاب حر لباقي المستويات ولكنها لم تتم ولذلك خمدت حركة العمل السياسى داخل الاتحاد مثلما حدث فى هيئة التحرير أو الاتحاد القومى واننى بصراحة تامة وقبل أن أمارس أى عمل فى هذا الاتحاد أسجل أننى غير مقتنع بهذا الاسلوب لأن رئاساته وأماناته جاءت بالتعيين وهذا لا يخرج فى نشاطه عن التنظيمين السابقين هيئة التحرير والاتحاد القومى وانها جميعاً لا تخرج عن تنظيم القمصان الزرق للوفد أو تنظيم القمصان السوداء لمصر الفتاة قبل الثورة . كنت انتظر غضباً أو عنفاً فى الرد وكنت انتظر أن تنتهى المقابلة ويبلغ الرئيس عبد الناصر لاستبعادى من عضوية الأمانة العامة وبالعكس تماماً وجدته يتسم لى تقديراً وحناناً ومودة وقال لى إن كلامى هذا هو نفس كلام الرئيس قبل أن يصدر القرار بتشكيل الأمانة العامة وأنه مضطر لتكوين الأمانة العامة بالتعيين فى هذه الفترة للبدء فى تنشيط الاتحاد الاشتراكى ثم عندما يصل نشاط الاتحاد الاشتراكى إلى مرحلة أفضل ستجرى الانتخابات أو تعاد الانتخابات من القاعدة إلى القمة ثانية وأفادنى انه حرصاً على جدية تنشيط الاتحاد الاشتراكى سيندأ الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه مع الأمانة باستمرار وبدءاً من اليوم التالى بمقر الحكومة المركزية بمصر الجديدة .

خرجت من عند حسين الشافعى وأنا مقتنع لدرجة لا بأس بها ، والحياة تجارب خصوصاً بعد أن راجعت أسماء التشكيل وكانوا بالاضافة إلى المهندس احمد عبده الشرباصى والدكتور نور الدين طراف وكل من الأساتذة أنور سلامة وخالد محمى الدين وحسين ذو الفقار صبرى وكمال رفعت وعبد المجيد شديد وطلعت خيرى وشعراوى جمعة والدكتور إبراهيم سعد الدين .

تم اجتماع الرئيس جمال عبد الناصر مع أعضاء الأمانة ، وأخذ يشرح

فكرته بضرورة إعادة الحياة للاتحاد الاشتراكي لأن المرحلة التي تمر بها مصر تدعو إلى ضرورة الاعتماد على تنظيم سياسى قوى يتم فيه التحالف الحقيقى بين قوى الشعب العاملة . وحسب وجهة نظره كان يعتقد أن التشكيل يأخذ صورة أمانة للعمال ، يتولاها الأستاذ انور سلامة بصفته رئيس اتحاد عام نقابات عمال مصر بالانتخاب ، وأمانة للفلاحين (وقد تم اختيار الأستاذ عبد الحميد غازى لها فى الاجتماع التالى) وأمانة للرأسمالية الوطنية ويتولاها المهندس سيد مرعى . وأمانة للمهنيين يتولاها الدكتور نور الدين طراف ثم أمانات معاونيه للدعوة والفكر يتولاها كمال رفعت وأمانة للشئون الخارجية يتولاها حسين ذوالفقار صبرى ، وأمانة للشئون الصحفية يتولاها خالد محيى الدين ، وأمانة للشباب ، يتولاها طلعت خيرى ، وأمانة المعهد الاشتراكى ، يتولاها الدكتور ابراهيم سعد الدين وأمانة التنظيم ، يتولاها شعراوى جمعة وأمانة لشئون الأعضاء وأتولاها أنا وأمانة للشئون الإدارية يتولاها عبد المجيد شديد ، وعباس رضوان لأمانات محافظات الوجه القبلى ، وكمال الحناوى لأمانات محافظات الوجه البحرى .

وفى الاجتماع التالى انضم للأمانة الدكتور أحمد خليفة . وتوالت اجتماعات الرئيس عبد الناصر مع الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى حتى بدأ النشاط يدب فى جميع مستوياته وعين عبد الناصر اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى من نواب الرئيس ورئيس الحكومة ورئيس مجلس الشعب ويدون انتخابات ، ثم صار تعيين جميع لجان المحافظات وليس كما ينص قانون الاتحاد الاشتراكى (على أن تحجى بالانتخابات) . بدأت الأمانات تقوم بأعمالها بشكل جدى وظهر الرأى المعارض . وكثيراً ما كان هناك نقد للسلطة التنفيذية ولتنظيم الاتحاد الاشتراكى نفسه لكن هذه الحيوية وصلت إلى

مستوى وتجمدت فيه . لما أفسح المجال للنقد الذي كان قمته ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل في مقاله الأسبوعي بصراحة ، ووجه نقداً لاذعاً شديداً للاتحاد الاشتراكي وكان النقد فعلاً في محله وإن بدا أنه كان يقصده به شخص على صبرى في ذلك الوقت ، وكانت معلوماتي المؤكدة في ذلك الوقت انه لا يوجد أى صحفي حتى لو كان هيكل نفسه يجزؤ على نقد جهاز يشرف عليه مباشرة جمال عبد الناصر وهذا العنف دون أن تكون بتلميح منه شخصياً ولو أن هيكل كان يوهم الجميع بخلاف ذلك .

لجنة تصفية الاقطاع ومقتل المرخوم صلاح حسين

أثناء عملي بأمانة شئون الاعضاء بالاتحاد الاشتراكي العربى كانت تصلنا شكاوى ضد أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكي . وتحقق فيها المباحث العامة فضلاً عن ندب أحد المساعدين بالأمانة لإجراء هذا التحقق وذلك قبل اتخاذ أى قرار تنظيمي ضد المشكوك في حقه .

وصلتنا عدة شكاوى ضد صلاح حسين وكلها تتهمه بالتحرش بكبار الملاك في قريته كمشيش بعضها يقول إنه شيوعي والآخر يقول إنه من الأخوان المسلمين . وقام أحد المساعدين بالأمانة بالذهاب إلى كمشيش وسؤال جميع الأطراف ، وعرض على تقريره وجاء فيه إن الأقوال متضاربة هناك بين مؤيدى صلاح حسين وإن نشاطه لا يتعدى الخطب في المساجد وإجتماعات الاتحاد الاشتراكي يهاجم أعمال عائلة الفقى ومخالفتهم لقانون الإصلاح الزراعى وجاء عكس ذلك تماماً في أقوال ملاك الأراضي ولكن صلاح حسين نفسه أشار إلى المحقق أن الفصيل في الأمر هو الرجوع إلى تقرير قامت بإعداده الرقابة الإدارية بناء على شكاوى صلاح حسين إلى الاتحاد الاشتراكي ورئيس الجمهورية .

وجاءنى تقرير الرقابة الادارية بصفة رسمية وكان هو الحد الفاصل بين الآراء المختلفة وجاء فى التقرير أن صلاح حسين منذ سنة ١٩٥٧ وهو دائم إرسال التقارير ضد أسرة الفقى فى كمشيش وأنه أثار هذا الموضوع فى أحد مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى فى محافظة المنوفية وبعد التحقيق ثبت أن أسرة الفقى فعلاً متهربة من حوالى ٣١٥ فداناً زيادة عما يسمح به قانون الاصلاح الزراعى وشرح التقرير أسلوب التهرب واستخدام أسرة الفقى للرشاوى للمسئولين فى الإصلاح الزراعى والشهر العقارى وغيرها وأشار أيضاً إلى لجنة كانت مشكلة بعد سنة ١٩٦١ من مجلس الدولة وقضايا الحكومة أثبتت النتيجة التى تتفق مع مايقوله صلاح حسين وهو تهرب أسرة الفقى من قانون الأصلاح الزراعى .

ويمراجعتى لملف صلاح حسين حتى ذلك التاريخ وجدت به كثيراً من الخطابات والتقارير التى كان يرسلها إلى رئاسة الجمهورية والاتحاد الاشتراكى ، يفضح فيها تآمر الأقطاع مع أهداف الاستعمار والتهرب من القوانين وأساليبهم فى استغلال الفلاحين . ووجدت فى ملف صلاح حسين أيضاً خطاباً من المباحث العامة رداً على طلب تحريات منا أن صلاح حسين شيوعى وفى خطاب آخر أنه من جماعة الإخوان (تضارب فى معلومات أجهزة الأمن ؛ إزاء ما جاء فى تقرير الرقابة الإدارية من حقائق وكان متضمناً رأى جهتى تحقيق أخرى بأن جميع ما جاء بتقارير وتبليغات وشكاوى صلاح حسين حقيقى أعجبت بهذا الشاب وأرسلت فى طلبه وجدته شاباً يمتلىء حماسة ووطنية وسبق له التطوع فى حرب فلسطين . واستمر بعد ذلك فى إرسال خطابات وتقارير ، وكانت كلها تتوقع معركة جديدة مع الاستعمار وأن الرجعية فى مصر تتعاون مع الاستعمار فى أهدافه . وفى مساء أحد أيام أبريل سنة ١٩٦٦ وأنا بمكتبى وصلتنى برقية من أهالى وفلاحى قرية كمشيش

يلغون عن قتل المرحوم صلاح حسين واتهموا عائلة الفقى بالتآمر ، وطالبوا بالتدخل لتأخذ العدالة مجراها نحو القاتل .

طلبت ملف صلاح حسين ووجدت خطاباً قبل أيام قليلة كان أرسله لى وجاء به أنه يتوقع متاعب من الاقطاع وكأنه يحس بمصيره وخطاباً آخر (لرئيس الجمهورية قبل قتله بشهر تقريباً . يحذر من الاقطاع وأنه يتعاون مع الاستعمار وقد أخذ فى المدة الأخيرة يتحرك بحرية فى البلاد .

قمت ومعى بعض المساعدين والصحفى جلال كشك ، وكان موجودا بالمكتب وأراد أن يرافقنا وذهبنا إلى كمشيش ثم إلى مقر محافظة المنوفية . قابلنا فى كمشيش أرملة المرحوم صلاح حسين وكانت النيابة تتولى التحقيق وذهبت إلى المحافظة وقابلت هناك السيد إبراهيم بغدادى المحافظ والسيد مصطفى علوانى مدير الأمن بالمحافظة وأجمعا على خطورة الحادث وأنه قد ألقى القبض على المتهم والنيابة تجرى التحقيق ولكن القضية فى تقريرها أبعد من أن تكون قضية قتل ولكنها قضية سياسية موجهة إلى الدولة . ضد قوانينها وبالذات قانون الإصلاح الزراعى .

وصلت قبل الفجر إلى مكتبى . وشرعت فى كتابة تقرير سياسى عن الحادث وقبل أن أختتمه اطلعت على ملف الإقطاع بالأمانة فوجدت أن أمانة شئون الأعضاء قامت بتحقيق ١٢ مخالفة لقانون الإصلاح الزراعى فى قرى مختلفة متفرقة فى أنحاء الجمهورية . ولحدوثها فى فترة زمنية قصيرة ، اعتبرتها ظاهرة خطيرة ، كان قمتها مقتل صلاح حسين بتدبير من الاقطاعيين المخالفين لقانون الإصلاح الزراعى فى بلدة كمشيش .

كتبت تقريراً فيه كل نتائج الحادث وظروفه السياسية والجنائية وسلم إلى الرئيس عبد الناصر فى نفس اليوم فى الإسكندرية حيث كان هناك مع ضيفه الرئيس تيتو .

وعقب هذا ، أصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بتشكيل لجنة تصفية الإقطاع .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ تكونت لجنة التظلمات من لجنة تصفية الإقطاع وثبت من تحقيقات هذه اللجنة أن نسبة كبيرة من القضايا التي قدمت إلى لجنة تصفية الإقطاع وصدر قرار اللجنة فيها كانت تمثل خطورة على المجتمع وتحدياً حقيقياً لقانون الإصلاح الزراعى .

وينفس القدر من نقص الحقيقة أثبتت لجنة التظلمات أن بعض أجهزة لجنة تصفية الإقطاع تجاوزت أصول المعاملة الإنسانية الكريمة . مع بعض أفراد الأسر بصورة قبيحة ثم قدم المتهم صلاح الفقى والخفراء الذين ارتكبوا الجريمة للمحاكمة أمام محكمة عسكرية برئاسة المستشار الأستاذ الصادق المهدي .

° وطلبتنى المحكمة للإدلاء بشهادتى : وهذا هو نص الشهادة .

مضمون شهادة محمد عبد الفتاح أبو الفضل

عضو الأمانة العامة وأمين شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى
هيئة المحكمة العسكرية المكلفة بنظر قضية اغتيال المواطن المرحوم صلاح حسين فى قرية كمشيش - برئاسة السيد المستشار الأستاذ الصادق المهدي .

مضمون الشهادة

شهادتى اليوم وفى هذه القضية شهادة سياسية فقط ، وليس لى أى شأن فى قضية القتل . فأمامكم متهم بالقتل فى قفص الاتهام ، وكان هناك مقتول فى قرية كمشيش ولديكم تحقيق الإدارة وتحقيق النيابة . وليس لى أى

دخل بكل ذلك . شهادتى اليوم تنصب فى إثبات أن هذا المتهم وأسرتة . هل كانوا يخالفون القانون . قانون الإصلاح الزراعى من عدمه ؟ وهل التصدى لمخالفة القانون بالأسلوب القانونى بتبليغ السلطات وتنويرها يبيع للقاتل أن يقتل ؟ شهادتى اليوم بصفتى ممثلاً للتنظيم السياسى الذى لجأ إليه المقتول ليبلغه ويثبت له تهرب أسرة الفقى من القوانين ، وتحايلها عليها ، وأى قوانين ؟ قوانين الإصلاح الزراعى . المرحوم صلاح حسين تصدى للقاتل وأسرتة دفاعاً عن قانون الاصلاح الزراعى وكان نصيبه القتل .

أما الجريمة الأخرى وهى التعدى على قانون الاصلاح الزراعى فإننى أدمع أقوال المرحوم صلاح حسين بشهادتى هذه وبالعوائق لأثبت أن المرحوم صلاح حسين لم يكن متجنياً أو مفتعلاً صراعه ضد أسرة الفقى - لذلك أكتفى فى شهادتى بأن أقدم مستند إدانة لكم . هو تقرير الرقابة الادارية والمتضمن تحقيق لجنة قضائية من مجلس الدولة وقضايا الحكومة سنة ١٩٦١ تثبت أن صلاح الفقى وأسرتة قاموا بتهريب ٣١٥ فداناً عما يستحقونه بما يسمح به قانون الإصلاح الزراعى منذ تنفيذه سنة ١٩٥٧ المقتول المرحوم صلاح حسين رمز لنضال الفلاحين ضد أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة المستغلين والمتحايلين وإذا ثبت لكم من التقرير والمستند الرسمى المقدم لهيئة المحكمة هذا التحايل والتهرب تنتهى بذلك شهادتى عند الجانب السياسى فى هذه القضية . أما جناية القتل فهى جناية لها شهودها ولست أنا منهم .

نسم جاءت النكسة

اتسمت الفترة الممتدة بين عدوان سنة ١٩٥٦ وهزيمة سنة ١٩٦٧ بسميزات كثيرة وعديدة . كتب عنها الكثير ، وكذلك اتسمت نفس الفترة بنكسات عديدة كتب عنها الكثير أيضاً إلا أن النكسة الحقيقية كانت في البعد الشاسع بين الأهداف القومية الحاسمة التي تبنتها قيادة مصر وبين المفروض أن يقدم من العمل الجاد المنظم من أجل تحقيق تلك الأهداف . فإسرائيل والاستعمار كانا الخطر الحقيقي على مستقبل أمتنا وقد فرض علينا مواجهتهما ، وكذلك تحرير فلسطين كان هدفاً قومياً تبنته الثورة كشرط أساسى لتحقيق رخاء واستقرار العالم العربى . ولتحقيق الهدف كان لابد من العمل الجاد المنظم في ظل سيادة الحرية والعدل ، فسيلنا الوحيد لتحقيق النصر هو تفوق المجتمع العربى على مجتمع المستعمرين في فلسطين المحتلة .

وشتان الفارق بين العمل الجاد المنظم الذى واجهنا به القاعدة البريطانية في قناة السويس لتحقيق معاهدة الجلاء في سنة ١٩٥٤ . وكذلك العمل الجاد المنظم الذى واجهنا به احتلال بور سعيد عام ١٩٥٦ وبين الإهمال والفوضى التى واجهنا بها إسرائيل عام ١٩٦٧ .

فتحت ظل نفس القيادات العسكرية التى تسببت في الهزيمة العسكرية عام ١٩٥٦ كررت إسرائيل نفس الضربة وبنفس الأسلوب فلم يتعلموا شيئاً من دروس الماضى القريب . وفي الأيام الأولى لهذه الهزيمة القاسية التى

راح ضحيتها شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية وهضبة الجولان ومعها ثقة الأمة العربية في قدرتها على مواجهة إسرائيل وتحقيق الاستقلال ظهرت معادن بعض المصريين الذين رفضوا الاستسلام للهزيمة ووقفوا ومعهم الشعب وقاوموا ليشبوا أن أصحاب الهمم والعزائم هم فقط الذين يمكنهم حماية بلادهم وشعوبهم أما أصحاب المصالح الذين يتمسكون بالسلطة والصولجان ليقهروا بها شعوبهم فإنهم يتضاءلون امام الخطر .

في مساء ٢١ مايو سنة ١٩٦٧ حضرت أنا ومن معي مؤتمراً شعبياً كبيراً بالعريش وكان المحافظ قد جمع فيه عدداً كبيراً من عرب وأهالي سيناء ورؤساء قبائلها بملابسهم العربية التقليدية ، وكنت آخر المتحدثين ولما جاء دور الشاعر محمود حسن إسماعيل ألقى قصيدة طويلة استهلها بالقول وهو يشير بيده في حماس في وجوه الحاضرين وكان طبعاً يقصد مخاطبة الاسرائيليين .

« مشردون أبداً تائهون أبداً
مشردون أبداً تائهون أبداً »

ووجدت نفسي لا شعورياً أنزلق نحو التشاؤم لأنني تصورت هذا الشعب الذي يجلس أمامنا ويستمع في صمت ، هو نفس الشعب (شعب العريش وسيناء) الذي ذاق مرارة التيه والتشرد في حربين سابقتين لنا مع العدو الإسرائيلي سنة ١٩٤٨ ، سنة ١٩٥٦ كان هذا الشعب دائماً هو الضحية .

وفي عام ٢٢ مايو سنة ١٩٦٧ في طريق عودتنا من السويس توقفنا عند القنطرة شرق لعبور قافلة بواخر عبر القتال في نفس وقت وصولنا . أثناء

الانتظار الطويل حضر رئيس مدينة القنطرة شرق وأكد لنا أخبار وصول قطع مختلفة من السلاح البحرى المصرى وقوات عسكرية إلى شرم الشيخ وخليج العقبة لتحل محل قوات الطوارئ الدولية التى انسحبت منها ، وأن أوثات سيصل إلى القاهرة يوم ٢٤/٥/٦٧ ليقابل الرئيس عبد الناصر بخصوص الموقف المتأزم .

الح رئيس المدينة علينا أن نذهب معه إلى محطة سكة حديد القنطرة شرق لإلقاء خطب وكلمات مشجعة فى قوات الاحتياط المنتظرة فى المحطة - فى طريقها إلى الجبهة فى سيناء . فوجئت فى المحطة بحالة من الفوضى لقوات الاحتياط يعجز الإنسان عن وصفها ، والمفروض أنها على وشك الاشتراك فى القتال فى الجبهة . كان الكل فى ملابس مدنية ومعظمهم بجلابيهم الريفية ومحملون بنادقهم وليس هناك أى زى عسكرى ، جمعوا من قراهم على عجل ودون أى ترتيبات إدارية ، وتسلموا اسلحتهم فقط وهم بجلابيهم المدنية وشحنوا فى السكة الحديد كالدواب دون أى تجهيز أو ترتيب إدارى من مأكّل أو مشرب أو راحة . كانوا يتدافعون لشراء طعامهم من الباعة الجائلين بالمحطة فى فوضى شاملة لا يتعدى مظهرهم خفر الريف إن لم يكونوا أقل مستوى من ذلك . حشد هائل من الشباب والرجال الضائعين نتيجة إهمال واستهتار سلطات القوات المسلحة بأدميتهم وإنسانيتهم . انعكس الشعور بالضيق على كرجل عسكرى ومقاتل سابق وسألت نفسى « هل هذه هى حالة قواتنا التى سنواجه بها جنود عدوتنا اسرائيل ؟ وفى المقابل - هل عدوتنا اسرائيل عندما أعلنت التعبئة عاملت شبابها بهذا الأسلوب غير آدمى ؟ » .

اعتذرت عن إلقاء أى كلمات وغادرت المحطة حزناً متشائماً من هذه المأساة الإنسانية كل ذلك جعلنى عندما عدت إلى مكتبى بالقاهرة أبادر

بكتابة مقال في نشرة الاشتراكي ظهر في العدد ٦٢ بتاريخ ٢٧/٥/١٩٦٧ عن
المواجهة المنتظرة مع إسرائيل جاء فيه « أن المواجهة بيننا وبين إسرائيل هي تحد
حضاري أي صدام كامل بين مجتمعين وليس مجرد جيش ، أي إن الجندي
العربي يجب أن يتفوق على الجندي الإسرائيلي . وكذلك الحال مع الطالب
العربي والعامل العربي والموظف العربي ، والقيم والسلوك والأخلاق لأن
المجتمع الأقوى في جميع جوانبه هو الذي سيتبصر ، ولأن المواطن القوى
الواعي بأهداف المعركة وأبعادها شرط ضروري للنصر الشامل . »

كان الحساس الشعبي في جميع أنحاء مصر في القمة وانعقدت
الاجتماعات والمؤتمرات التلقائية في مختلف التجمعات الشعبية المصرية
واعربت عن استعدادها للتطوع والجهاد بالأموال والمجهود والأنفس متجاوبة
مع القرار السياسي ، وللأسف لم يجد هذا العطاء الشعبي أي استجابة من
أي جهة حكومية بدليل أنه عندما زارني بمكتبي بالاتحاد الاشتراكي وفد من
الطلبة المصريين بالجامعة الأمريكية ووضعوا أنفسهم بحماس كبير تحت تصرف
الدولة أخذت اتصل وأبحث عن أي جهة حكومية مسئولة يمكن أن تلبى مثل
هذا التطوع الشعبي فلم أجد وبعد حيرة وجدتني مضطراً أن أصرفهم بوعده
أن اتصل بهم عندما تحتاج البلاد اليهم .

وفي صباح يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ عقد أول اجتماع للمجلس الأعلى
للمقاومة الشعبية بجميع أعضائه برئاسة السيد زكريا محيي الدين وحضر
الاجتماع كبار قادة الجيش وبعد توزيع الواجبات ، أسند إلى قيادة تنظيم
لمقاومة الشعبية في منطقة القتال . ولما سألت عن الترتيبات المتاحة لأجل
تدريب وتنظيم وإمداد من ساقوهم من شعب القنال تبين لي أن
الحرس الوطني سيوضع تحت تصرفي في وقت اللزوم وسيكون جاهزاً لأي
عمليات دون الحاجة إلى تشكيل مقاومة شعبية كما حدث في ٥٦ . وجاء دور

قائد الحرس الوطنى الضابط يوسف حسن محمد وسبق لى الخدمة معه فى الجيش وقال : إنه استكملأ لتقوية قواته فإنه فى حاجة إلى تشكيل ثلاثة لواءات جديدة .

سألت رئيس الاجتماع عن الزمن الكافى لتشكيل هذه اللواءات الثلاثة فأجاب بأنه يمكن تشكيلها فى قت من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع . أثارنى هذا الرد غير المنطقى وانفعلت قائلاً : إن ثلاثة لواءات معناها عددياً لا يقل عن ثمانية آلاف جندى وإن أى قائد عسكرى لو أعطى هذا العدد من قطع الشطرنج لفشل فى رصها وتشكيلها فى مثل هذه المدة ناهيك عن التشكيل والتدريب والإعاشة . . وتسليح لهذا العدد الهائل من الرجال وقبل نهاية الاجتماع طلبنى السيد زكريا محيى الدين لمقابلته فى مكتبه . وسألته وأنا فى غاية القلق عما إذا لم تكن القيادة السياسية فى الدولة وعلى أعلى مستوى قد اجتمعت وناقشت تقرير موقف عن حالة الحرب المنتظرة للوقوف على مدى قدرة مصر على الصمود والمواجهة إزاء أى عدوان محتمل قد تشارك أو تساهم فيه أى من الدول الكبرى مع إسرائيل ، على الأقل من ناحية التمويل والوقود وخلاف ذلك من الاحتياجات الاستراتيجية الهامة .

كان الرد أن الرئيس عبد الناصر اكتفى بوعده أخذه من المشير عامر بأن الجيش المصرى إذا دخل المعركة مع إسرائيل فسوف ينتصر على طول الخط . واستفسرت عن ضرورة الاعتماد على تسليح الشعب واشراكه فى المقاومة خصوصاً فى منطقة القنال فقال لى إنه فى الوقت الحاضر فإن الحرس الوطنى فيه الكفاية فى هذه المناطق .

العدوان

فى صباح ٥ يونيو ، وقبل توجهى لمكتبى بالاتحاد الاشتراكى على كورنيش

النيل سمعت من منزلى وعلى بعد أصوات قنابل مكتومة ، ثم أصوات ضرب المدفعية المضادة للطائرات وبكثافة . وتأكدت من بداية العدوان وأسهرت إلى مكتبى . واستمعت وأنا بالمكتب إلى إذاعة القاهرة التى أفادت بأن اسرائيل قامت بالإغارة على مطارات مصر وتقوم بضررها جميعاً وتوالت الأخبار بعد ذلك بذكر عدد الطائرات الإسرائيلية التى يسقطها دفاعنا الجوى . توجهت إلى مكتب الأمين العام السيد على صبرى ووجدت بمكتبه بعض الزملاء أعضاء الأمانة والكل صامتون ، يستمعون إلى الإذاعات .

وكانت إذاعة إسرائيل تدّيع أنها دمرت عدداً كبيراً من طائراتنا وهى على أرض المطارات كما حدث تماماً فى عدوان سنة ١٩٥٦ . كعضو فى المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية توجهت فوراً إلى مكتب السيد زكريا محبى الدين فى القيادة المشتركة بمصر الجديدة ، وكان فى غاية الانهباك ودائم الاتصال تليفونياً بمساعدى المشير عبد الحكيم عامر بقيادة الجيش وظهر من اتصالاته التليفونية أنه هو الذى كان يتولى القيادة العسكرية . لأنه كان يصدر الأوامر ويومىء بإجراءات عسكرية وما إلى ذلك . ثم التفت إلى وفى مرارة علمت منه أن قواتنا المسلحة فى أسوأ حال من ناحية الطيران فقد تم تدمير معظم الطائرات علاوة على تخريب المطارات والحجرات وحتى المطارات المدنية وأن هناك بعض الأمل الضعيف فى وصول طائرات من الجزائر ويوغوسلافيا ولكنها سوف لا تكون ذات فعالية إلا بعد مدة من وصولها . وأن الجيش إذا اشتبك فسيكون بغير غطاء جوى . ولم يفاتحنى أو أفاتحه فى عملية المقاومة الشعبية لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن لها أى وجود أو ترتيب . وبعد ظهر هذا اليوم علمت بوجود جميع زملائى أعضاء الأمانة العامة بمكتب الزميل عباس رضوان ووجدتهم جميعاً لا يعملون أى شىء سوى الاستماع إلى الإذاعات .

واستمعت إلى قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال وبعودة قوات كلا الطرفين المتحاربين إلى خطوط ما قبل ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ولم توافق مصر على إيقاف القتال .

وفي فجر ٦ يونيو كان هناك إنذار بغارة على القاهرة ، توجهت بعدها مباشرة في الصباح المبكر إلى مبنى المخابرات العامة . وقابلت رئيس المخابرات العامة . وأشار على بالمشاركة في اجتماع مع رؤساء هيئات المخابرات لوضع تقدير موقف بناء على آخر المعلومات عن قواتنا وقوات العدو والمؤتمرات الخارجية . وأثناء وجودي في هذا الاجتماع اتصل بي زكريا محي الدين بصفته رئيس المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية وطلبني لمقابلته في الحال لأمر تخص المقاومة الشعبية . وفي مكتبه وجدت كلاً من كمال رفعت وإسماعيل فريد ولطفى واكد وطلب منا التوجه في أقرب فرصة إلى منطقة القنال ليتولى كل منا قيادة المقاومة الشعبية في إحدى مدن القنال الأربعة السويس والاسماعيلية والقنطرة وبورسعيد . وأوصانا عند وصولنا إلى مدينة الاسماعيلية أن نذهب إلى قيادة الجيش هناك التي قد يمكنها مدنا بما تطلبه من معدات وأسلحة وذخائر للمقاومة وبعد خروجنا من مكتبه اختار كل منا المدينة التي سيذهب إليها .

وكان إسماعيل فريد للسويس وكمال رفعت للاسماعيلية ولطفى واكد للقنطرة وأنا لبورسعيد . اجتمعنا بعد الظهر وبعد تجهيز أنفسنا للسفر إلى الاسماعيلية في مكتب عباس رضوان بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي ، وكان هناك كثير من الزملاء منهم أمين الشباب الدكتور حسين كامل بهاء الدين وأشرت عليه بكل الصدق وحسن النية بالمشاركة في المقاومة بمنظمة الشباب التي يشرف عليها حيث إننا في سبيل الذهاب إلى منطقة

القنال وطلبت منه ، إما الذهاب معنا لتولى قيادة شباب المنظمة هناك ، أو إمدادنا بقيادة وأعضاء وأفراد منظمات الشباب سواء من أنحاء الجمهورية بعامه أو من منطقة القنال بصفة خاصة ، لأن هذا الوقت كان هو وقتهم . لم أحظ منه بأية إجابة ، وتظاهر بالانشغال وترك المكان وحتى لم أحظ منه بأى تعليق ويحتمل أنه كان محرجاً لعدم صدور أوامر له بذلك .

على الطريق إلى منطقة القنال

توجهنا نحن الأربعة فى عربة واحدة يقودها كمال رفعت إلى الإسمايلية بعد العصر بقليل ، ووصلنا نقطة مرور العباسية فى منتصف الطريق فيما قبل الغروب . هناك لفت نظرنا وجود فلول من جنود الجيش بملابس الميدان ومعهم أسلحتهم الخفيفة فى اتجاه القاهرة ، وليس فى اتجاه الجبهة وسيراً على الأقدام ، وبشكل غير منظم ، وفى غاية الإجهاد . توجهت إليهم مترجلاً وسألتهم عن معداتهم ورؤسائهم وعلمت منهم أنهم من وحدات الجيش المصرى المختلفة بسيما والعريش وأنهم حضروا منسحبين . من الجبهة دون نظام .

عدت إلى زملائى بالعربة وأخذنا نحصى عدد الساعات التى مرت من وقت بدء العدوان صباح يوم ٥ يونيو إلى هذا الوقت وكان الخامسة مساءً يوم ٦ يونيو حوالى ٣٣ ساعة ثم حصرنا المسافة بين العريش إلى موقعنا فى نقطة العباسية وكان حوالى ٤٨٠ كم وعلى أساس أن العسكرى المشاة يقطع مسافة ٣ كم فى الساعة وبحسبة بسيطة وجدنا أن هؤلاء الجنود المنسحبين سيراً على الأقدام بحساب المسافة وسرعة العسكرى المشاة أنهم بدأوا انسحابهم من يوم ٣ أو ٤ يونيو أى قبل بداية العدوان بيوم على الأقل .

ولم يكن أمامنا أى تفسير لقدرتهم الخارقة حتى أمكنهم الوصول فى هذا

الزمن القصير إلا أنهم كانوا ينسحبون مستعينين بشتى انواع وسائل الركوب المنسحبة هي الأخرى على الطريق وانتهى بهم الحال إلى السير على الأقدام وقت أن التقينا بهم .

استأنفنا السير وتولانا جميعاً فجأة حالة صمت كلها مرارة وكآبة وتشاؤم من الموقف عامة بعد هذا الاستنتاج ، وانفجر الزميل إسماعيل فريد محاولاً التخفيف عنا وقال . علام الوجوم والصمت والكآبة وليس أماننا إلا التصميم على المقاومة حتى الشهادة لأنه سبقنا زملاء لنا من ضباط الجيش منذ سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ واستشهدوا وشبهوا موتاً ونحن لازلنا ننعيم بالحياة . وليس أماننا الآن إلا التفكير في مشاركة الشعب في مناطقنا بروح التفاؤل والتصميم على الجهاد حتى الشهادة .

وكان لكللمته وقع طيب حيث ابتسمنا وأخذنا نتجاذب الحديث حول الموقف والمستقبل حتى وصلنا إلى قيادة الجيش في الإسماعيلية .

وفي غرفة القيادة بالاسماعيلية كان القائد اللواء الموجود صديقاً للزميل إسماعيل فريد وكان مجتمعاً وقت دخولنا مع جميع قادة قوات سيناء ومنهم دفعتي اللواء عبد المنعم خليل . اعتذر لنا القائد ، وطلب منا أن نمكث معهم في غرفة القيادة حتى يفرغ من إصدار أمر العمليات الذي استدعى القادة من أجلة .

بدأ يقرأ أمر عمليات الانسحاب وأخذ القادة يدونون الملاحظات حسب واجباتهم الملقاة على كل منهم ، وطال الوقت حوالى ساعة . ومن استماعى ومتابعى لأمر عمليات الانسحاب الكامل دخل فى روعى أن الجيش المصرى بسيناء لازال سليم التشكيل والتكوين وقادراً على إجراء عملية الانسحاب بأمان وهذا يتناقض مع ما رأيناه على الطريق من فلول الجيش

المصرى التى انسحبت من الجبهة فى العريش قبل إصدار هذا الأمر بأربع وعشرين ساعة على الأقل وبغير نظام ، وشاهدناهم بأعيننا قبل ساعتين عند نقطة مرور العباسية . . وقبل نهاية أمر العمليات سأل القائد قادة الوحدات بجملة تقليدية « أى أسئلة ؟؟ » ولم يوجه أى من قادة الوحدات بسيناء أى سؤال وقبل أن ينصرف القائد توجهت إلى صديقى وزميل اللواء عبد المنعم خليل ، وقبل أن يغادر غرفة القائد . وسألته عن حقيقة أمر العمليات الذى سمعناه معهم لتونا يلقيه قائد القوات ؟ وهل كل هذه القوات التى ستسحب والتى ذكرها موجودة فعلاً تحت السيطرة والقيادة وسليمة ولم تتحول بعد إلى فلول كالتى شاهدناها عند نقطة مرور العباسية . قبل حضورنا بساعة ونصف . ضحك اللواء عبد المنعم فى مرارة وقال : إن كل ما سمعناه معهم هو تمثيل فى تمثيل ، وإن ستار مسرحية الجيش المصرى قد اسدلت منذ بدء العدوان صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . قال أيضاً إن الجيش المصرى فى هذه اللحظة فى حالة بالغة من الفوضى ، وعدم السيطرة وقام فعلاً بالانسحاب تلقائياً وقبل صدور هذه الأوامر الرسمية وليس هناك أى مظهر للتماسك غير هؤلاء القادة المتلقين لهذه الأوامر المزيفة

وسألته لم يوجه أحد منهم أسئلة للقائد يستوضح فيها حقيقة الأوضاع كما يعلمها كل منكم ورد القائد عبد المنعم خليل فى أسف « إنه أثناء فترة القهر الطويلة لضباط الجيش بين عامى ٥٦ ، ٦٧ تعودوا على السكوت وعدم توجيه الأسئلة التى قد تكون محرجة للقيادة . وأضاف فى مرارة إن كل ما استمعنا إليه فى أمر العمليات عن توفير الوقاية الجوية والأرضية للقوات المنسحبة غير متوفر فى هذه اللحظة فى القوات المسلحة ، وأنه يتوقع مذبحة جوية على القوات المنسحبة فى الصباح ، خصوصاً فى مناطق عبور القتال وعلى طول طريق الانسحاب المفتوحة .

انصرف قادة وحدات سيناء من غرفة العمليات ولم نجد ما نقوله لهذا القائد سوى أننا نتمنى له التوفيق الذى لا نتوقعه إطلاقاً . أفهمناه مأموريتنا وأنها نرجى طلباتنا من المعدات والأسلحة للمقاومة إلى ما بعد إتمام عملية الانسحاب . ونصحنا هو بعدم التوجه فى هذه الليلة إلى مدن القنال الأخرى وأن نبين فى الإسماعيلية حتى الصباح حيث أن الطرق ستكون مشغولة تماماً بالقوات المنسحبة والتى ستكون معرضة لضرب الطيران الإسرائيلى .

وعند خروجى من غرفة القائد وجدت عدداً كبيراً من الشباب الذين يعملون معى فى الاتحاد الاشتراكى وبعض الأصدقاء ينتظروننى وقد لحقوا بى من القاهرة ووضعوا أنفسهم كمتطوعين فى المقاومة الشعبية ونحت تصرفى منهم مسعد جلال وعواد حسن ووكيل النيابة مصطفى سليم والمهندس عاطف زيد والصحفى جلال كشك وغيرهم ممن تربطنى بهم علاقات عمل وكفاح من مدد طويلة .

وفى الصباح المبكر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ توجهت مع زملائى وأصدقائى المتطوعين فى اتجاه بورسعيد ووصلنا بصعوبة كبيرة إلى القنطرة حيث كانت الطائرات المعادية تغير بقسوة على القوات المنسحبة والمكدسة على الطريق .

وفى القنطرة علمنا من ضباط القوات المسلحة المنسحبة عند المعدية وكانوا فى غاية السخط على القيادة العامة للجيش علمنا أن أوامر القيادة بعد أن كانت بالانسحاب الكامل من سيناء فى مساء اليوم السابق وبعد عبور معظمها إلى البر الغربى عادت الأوامر وضدرت لهم مرة أخرى صباح اليوم (٦٧/٦/٧) بالعودة مرة أخرى إلى سيناء لاحتلال مواقع تحدت لهم هناك .

أحدث ذلك أرتباكاً شديداً في التحركات مما تسبب عنه مضاعفة الخسائر من طيران العدو . ودعت الزميل لطفى واكد قائد المقاومة في القنطرة وأنا أرتئي لحاله . حيث ان القنطرة غرب ليس بها قوات حرس وطني إطلاقاً وأنه سوف لا يجد بالقنطرة عدداً كافياً من الشباب أو الرجال للمقاومة . بل كانت شبه خالية حتى من السكان والأهالي .

وفي بورسعيد توجهت رأساً إلى المحافظة وكان المحافظ الزميل فريد طولان وهناك التقيت بقائد الحرس الوطني في بورسعيد العقيد جمال السيد ابراهيم وقد سبق أن خدمت معه بالكتيبة التاسعة بالجيش .

عجبت حيث وجدت العقيد جمال السيد في روح معنوية عالية خصوصاً عندما توجهت معه إلى معسكر الحرس الوطني . وهناك علمت سر ارتفاع روحه المعنوية حيث وجدت لفيماً من الشباب البورسعيدي وعدداً كبيراً جداً من الطلبة تركوا معاهدهم ودراساتهم للمساهمة في الكفاح كذلك وجدت كثيراً من الرجال والشيوخ وكبار الموظفين ورؤساء المصالح متطوعين في الحرس الوطني منهمكين في أعمالهم وتدريبهم في همة وروح معنوية مرتفعة وقد أنساهم دورهم الوطني قسوة الهزيمة وفي عيونهم تصميم على الجهاد حتى آخر رمق . كذلك من المشاهد التي قوت من عزيمتي وجود عدد كبير من الشباب اليوناني المقيم في بورسعيد والذين أصبروا على المشاركة في الجهاد وكانوا يلتفون حول قائدهم جمال السيد في فخر واعتزاز بمديتهم الباسلة بورسعيد .

وبعد مقابلة كل هؤلاء بالإضافة إلى عدد كبير من من سبق وأشتركوا معي في الكفاح المسلح أثناء العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ انتقلت المعنويات المرتفعة لي أنا شخصياً وشعرت بسكينة غريبة ، وارتفعت معنوياتي إلى

القمة وأنا بين هذه القلوب العامرة بالوطنية والتصميم وانعكست هذه الثقة في نفسى وفيمن كانوا معى من الزملاء المتطوعين المرافقين لى . وفي الحال انتخبت مع العقيد جمال السيد عدداً من شباب الحرس الوطنى البور سعيدي للعمليات الخاصة وتولى تنظيمهم والتخطيط لهم المهندس عاطف زيد .

ومساء يوم ١٩٦٧/٦/٧ اذاعت صوت أمريكا أن اسرائيل قد تمكنت من الاستيلاء على بلدة رمانة بسيناء وهى قرية صغيرة بها بعض آبار مياه على بعد ٣٢ كيلو متر فقط من القنطرة وبور فؤاد وبذلك اصبحت بور فؤاد (البر الشرقى لبور سعيد) والقنطرة شرق مهددين تهديداً مباشراً .

وفي يوم ٧٦/٦/٨ ، كان أهم واجب أمامى هو الدفاع عن بور فؤاد (البر الشرقى لبور سعيد) بعد أن تأكد خبر استيلاء إسرائيل على رمانة . ذهبت مع قائد الحرس الوطنى والمهندس عاطف زيد قائد الوحدات الخاصة وقمنا بجولة استكشافية حول وداخل بور فؤاد وفي الترسانة البحرية هناك . ثم مدخل بور فؤاد من البر ومن بحيرة البردويل (امتداد شاطئها مع شواطئ سيناء) ثم قمنا باستكشاف الطريق الموازى للقنال وهو مدخل بور فؤاد من القنطرة شرق .

وكان توقعنا فى حالة أى نية للعدو لاحتلال مدينة بور فؤاد أن يكون طريق شاطئ القنال من القنطرة هو طريق التقدم الوحيد المحتمل حيث أن طريق الساحل عن طريق بحيرة البردويل مقطوع بمجرى مائى عميق بين البحر الأبيض وبحيرة البردويل ويصعب لأى قوات ميكانيكية أو مشاة للعدو عبور هذا القطع المائى الا بمعدات عبور ثقيلة واستبعدنا إلى حد ما قيام اسرائيل بالتقدم نحو بور فؤاد على هذا الطريق الساحلى ، وركزنا خطة دفاعنا الأساسية عند موقع يعتبر عنق زجاجة على طريق القنطرة بور فؤاد على امتداد القنال ،

وفي موقع أمام نقطة رأس العش تقريباً (على البر الغربى) . انتخبنا موقعاً دفاعياً في هذه المنطقة المقابلة لرأس العش ، وكان يحدها الموقع القناة غرباً وأرض رخوة شرقاً وكانت الأرض الرخوة في مسافة شاسعة وملقى فيها كثير من المواسير والقضبان الحديدية ، ومبعثرة فيها بأعداد كبيرة . وأضاف المهندس عاطف زيد إلى خطة الدفاع خطة فنية بكهربية هذه المواسير والقضبان المعدنية بعد توصيلها بالأسلاك الكهربائية من مولد كهربائي ضخم وجدناه بالترسانة البحرية التابعة لهيئة قنال السويس في بور فؤاد وعمل ترتيب تشغيله وقت الحاجة إذا ما تمكن العدو من الاستيلاء على الموقع الدفاعي الأمامي من عنق الزجاجة أمام رأس العش وبذلك تصبح الأرض الرخوة بما فيها من مواسير وقضبان مكهربية مانعاً يصعب على العدو اجتيازه قبل أن يصطدم بخطة دفاع خلفي على مداخل مدينة بور فؤاد .

وقد تم احتلال الموقع الأمامي المقابل لرأس العش بعدد من أفراد الحرس الوطني حوالى خمسين فرداً بأسلحتهم الخفيفة والمضادة للدبابات وقام باحتلال الموقع الخلفي المانع الكهربائي ١٥٠ فرداً من الحرس الوطني ولم يكن في هذا الوقت أى قوات من الجيش في بور فؤاد سوى قاعدة للصواريخ المضادة للطائرات وعليها حراسة من جنودها .

مهملة السلاح والذخيرة

أثناء انهامى في عملية الدفاع عن بور فؤاد وصلتني إشارة لإيفاد مندوب لاستلام أسلحة وذخائر للمقاومة الشعبية من مخازن الجيش بالاسماعيلية وأن الجيش سيوفر العربات لنقلها . ذهب المندوب وعاد ومعه كمية من الأسلحة بدون ذخيرتها . ، وتكرر الطلب في اليوم التالى وذهب المندوب وعاد ومعه ذخيرة لا تتناسب مع عيار الأسلحة التى تسلمناها .

وتكرر ذهاب المندوب في اليوم التالي وأرسلوا لنا أسلحة مختلفة في العيار عن الأسلحة التي تسلمناها . وكذلك مخالفة لعيار الذخيرة . ودخلنا في حلقة مفرغة من القوضى التي انعكست في جميع المجالات وتأخر بذلك تشكيل قوات مقاومة جديدة من شعب بور سعيد لتكون قادرين على الدفاع عن بور سعيد وبور فؤاد بشكل جدى بالاعتماد الكامل على الشعب وليس على عدد من رجال الحرس الوطني . كما أن شعب بور سعيد كان يتدفق على معسكرات الحرس الوطني يطلب المشاركة في الدفاع ليحارب بجانب قوات الحرس الوطني .

في نفس اليوم وافقت مصر على اقتراح مجلس الأمن بإيقاف القتال .

وفي مساء نفس اليوم (١٩٧٦/٦/٨) كنت مع المحافظ في منزله ، واتصل به السيد زكريا محيي الدين وكلفه بإخلاء بور فؤاد من جميع السكان ، وكذلك من القوات المسلحة الموجودة هناك وسأل عنى وكلمته وكرر على عملية إخلاء بور فؤاد بالكامل وحتى من قوات المقاومة وعارضت فكرة إخلاء قوات المقاومة . وشرحت له سلامة موقفنا الدفاعي وأن قوات الحرس الوطني الموجودة كفيلة بمقاومة أى هجوم عليها من الأعداء وأن الثبات في بور فؤاد بقوات الحرس الوطني أشرف لنا من هذا الانسحاب خصوصاً وأن معدات الترسانة البحرية في بور فؤاد تقدر بمئات الملايين من الجبهات وفي النهاية وافقنى على بقاء قوات المقاومة الشعبية في بور فؤاد .

تركت المحافظ يذهب إلى مكتبه ليشرف على ترتيبات إخلاء مدينة بور فؤاد قبل الغروب . وتوجهت بنفسى إلى بور فؤاد مع بعض الزملاء المتطوعين ، وكان معى الصحفي جلال كشك . عندما وصلت إلى بور فؤاد .

كانت أخبار إخلاء المدينة قد وصلت إلى الأهالي هناك وأن الأهالي يتجمعون عند المعديّة الوحيدة حيث كانت هناك معديّة أخرى جديدة صالحة للعمل ولكن بدون عمالها . وعملت على إحضارهم بالاتصال بالمحافظة . وقام عدد كبير من أصحاب اللشّات الراسية بالميناء بتشغيل لنشاتهم للمساهمة في عملية الإخلاء . ومع مرور الوقت تكاثرت حشود الأهالي ، وتجمعت بدون نظام وبأعداد كبيرة حول المعديّة واللشّات . وتصرفنا بأسرع ما يمكن لوضع نظام للإخلاء حتى لا تحدث حوادث نتيجة التكاثر والزحام . وكان هناك أحد ضباط البوليس ومعه مدفعه الرشاش وميكرفون وأخذ في التعاون معنا في تنظيم عملية إخلاء الأهالي . وفجأة سمعنا صوت انفجار شديد بالقرب من موقع المعديّة وأخذ الأهالي يصرخون خوفاً ، ظناً منهم أن العدو الاسرائيلي قد وصل إلى بور فؤاد ويقوم بالاعتداء على المدينة .

وتسبب هذا الفرع في إسراع باقي الأهالي الذين كانوا لازالوا بمنازلهم في الخروج والجرى في الشوارع في حالة فرع شديد وقت الغروب . وكان منظرهم جديراً بالشفقة الأطفال والأمهات يولولن والأباء ينادون على أطفالهم الشاردين والأبناء الصغار يصرخون من الخوف ، ومهما أوتيت من مقدرة على الوصف والتعبير فإنه لا يمكن التعبير الصادق عن مدى قسوة حالة الهجرة الفجائية للسكان في ظروف الخوف والفرع كما شاهدتها في تلك اللحظة الحرجة . وكان الرجال ينوؤون بحمل ما أمكنهم حمله من أمتعة ومقتنيات ضرورية لأسرهم وبعض النساء يحملن طيورهن الحية والطيور هي الأخرى تشارك الأهالي في الفرع والصباح ولم يطل الوقت لفترة الفرع نتيجة الانفجار حتى حضر أحد رجال الحرس الوطني وأبلغنا أن هذا الانفجار كان نتيجة تدمير رجال قاعدة الصواريخ لمعداتهم قبل انسحابهم كما صدرت إليهم الأوامر بذلك . ومن خلال الميكروفون أخذنا ننادى على المهجرين من الأهالي بالتزام الهدوء حيث

ان الانفجار لم يكن لوجود الجيش الإسرائيلي بل من فعل رجال قاعدة الصواريخ المصرية . وعاد الهدوء إلى عملية الإخلاء وأخذت تنتظم خصوصاً بعد أن تم تشغيل المعديّة الثانية وكان الإخلاء يتم حسب أسبقية النساء أولاً بأطفالهن ثم كبار السن من الرجال وآخر من أخلى كان رجال القوات المسلحة ورجال قاعدة الصواريخ .

ومما عجل بعملية الإخلاء عبر القنال العدد الكبير من اللنشات الخاصة التي تطوع أصحابها بتشغيلها للمشاركة في هذا العمل الإنساني . عدت مع آخر فوج من المنسحبين مع الزملاء الذين رافقوه في هذا العمل وتركنا وراءنا مدينة بور فؤاد موحشة ساكنة خالية من الحياة ولكن كانت هناك قوات المقاومة الشعبية من رجال الحرس الوطني تملأ الفراغ وتقوم بواجبها الوطني في الدفاع عن منطقة غالية من أرض الوطن هي بور فؤاد .

تهديد بور سعيد من البحر

بعد إتمام عملية إخلاء الأهالي من مدينة بور فؤاد ، وبمجرد وصولي إلى البر الغربي في بور سعيد علمت أن بعض الطائرات المجهولة قد قامت بإغراق سفينة التجسس الأمريكية ليبرتي بالقرب من شواطئ إسرائيل ، وقد رفع ذلك من روحنا المعنوية ، وتوجهت إلى رئاستي الخلفية في مبنى الاتحاد الاشتراكي وكان هناك أمين الاتحاد الاشتراكي في بور سعيد الأستاذ محمد رشدي .

اتصل بي المحافظ من مكتبه ، وأبلغني أن رادار غرفة عمليات مدفعية السواحل في بور سعيد التقط ما يفيد أن هناك تحركات لقطع بحرية متقدمة من البحر الأبيض في اتجاه بور سعيد ، وأنها على بعد حوالي ٤٠ كم وكان التخمين

أن الأسطول الأمريكي هو الذى يتحرك . وكان الوقت قبل منتصف الليل بقليل . وبعد أن علمت القيادة السياسية بالقاهرة بهذا الخطر القريب أمرته بالتعاون مع مدير البنك الأهلى هناك ، لترحيل رصيد العملة الصعبة فوراً إلى القاهرة وترك العملة المصرية كما هى . ثم قال أنه سوف يلحق بى فى مبنى الاتحاد الاشتراكى لينضم إلينا حتى يزول هذا الخطر .

حضر المحافظ وكان دائم الاتصال بغرفة العمليات . وبعد منتصف الليل بقليل بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أصبحت على بعد ٣٠ كم . وكنت قد اتصلت بقائد الحرس الوطنى قبل ذلك لتوزيع الباقي من قواته على طول الشاطئء بأسلحتهم الصغيرة وبعض أسلحة خفيفة مضادة للدبابات لمواجهة هذا الخطر المرتقب . وقمت بالمرور عليهم ووجدت حشداً كبيراً من الأهالى قام القائد جمال السيد إبراهيم بتسليحهم بالبنادق بدون ذخيرة مكتفين بالسناكى وجميعهم منتشرون . وقبل الفجر علمنا أن التحركات البحرية وصلت إلى مسافة ١٥ كم . وتوترت أعصابنا ولكن الحمد لله توقفت التحركات عند هذه المسافة .

وعندما بدأ بزوغ الصباح كانت الأخبار لا تزال تفيد بتوقف التحركات على نفس البعد . عندئذ شعرت بكثير من الراحة خصوصاً وأن هذه القطع البحرية توقفت لمدة لا تقل عن ساعة دون تقدم . وكان ذلك دليلاً على أنها عدلت عن الاعتداء على بورسعيد . وبعد ظهور ضوء الشمس بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أخذت تبتعد عن شواطئ بورسعيد فزال التهديد والخطر . وكان المحافظ يبلغ القاهرة عن هذه التحركات أولاً بأول .

وكان استنتاجنا أن القيام بهذه التحركات بهذا الأسلوب من التقدم ثم التوقف ثم الابتعاد . يدل على أن القوات الأمريكية بعد ضرب سفينتها

ليبرتى لم تكن متأكدة من هوية الطائرات التى اعتدت عليها وكانت تظنها
مصرية وأرادت الانتقام من ضرب هذه السفينة بتقديم أسطولها فى اتجاه
بور سعيد. أو الشواطىء المصرية لضربها ولكن بعد فترة تأكدت أن الطائرات
إسرائيلية ولذلك تراجعت .

بعد أن اطمأنت خواطرننا عند زوال هذا التهديد البحرى الأمريكى
انصرف المحافظ ليعود إلى مكتبه ، وبدأت أنا بالمرور على قوات الحرس
الوطنى والمتطوعين فى مواقعهم التى احتلوها أثناء الليل الطويل الشاق .
ووقفت معهم أشكرهم على هذا الموقف الوطنى بتحملهم مسئولية الدفاع عن
أرضهم ومدنيتهم وكان من بينهم كثيرون من كبار السن من رؤساء المصالح
الحكومية والموظفين يحملون أسلحتهم فى رجولة ومع كل منهم كمية من الذخيرة
المسلمة له يحملها داخل منديل لعدم وجود مهمات عسكرية كافية لحمل
وحفظ هذه الذخيرة وكل منهم يربط هذا المنديل فى سلاحه زيادة فى الحرس .
منظر يهز المشاعر حيث لم يتقاعس عن الدفاع عن بور سعيد أى مصرى
حتى كبار السن غير مبالين بمشقة العملية وقسوة رطوبة الجوليلاً وهم يبيتون
فى العراء .

الدفاع عن بور سعيد

منذ وصولى إلى بور سعيد كانت خطة الدفاع عنها تعتمد فقط على قوات
الحرس الوطنى القليلة العدد ، وبعد أن توجه حوالى ٢٠٠ فرد منها للدفاع عن
بور فؤاد أصبح الباقي لا يكفى إطلاقاً للدفاع عن بور سعيد فشرعت فى
إعداد وتجهيز عدد كبير من الأهالى للاشتراك بصفة رئيسية فى المقاومة
الشعبية كما حدث فى عام ١٩٥٦ . وأرسلت عدة مرات فى طلب السلاح
والذخيرة ولكن فى البداية وصلنا السلاح بدون ذخيرة . ثم حصلنا على

ذخيرة لا تطابق عيار السلاح وتكرار ذلك أخرنا كثيراً في تسليح الأهالي ومع ذلك وضعت خطة للدفاع عن بورسعيد من واقع تجربتي أثناء عدوان سنة ١٩٥٦ ولم تنفذ هذه الخطة إلا بعد مدة طويلة عندما انتظم وصول السلاح والذخيرة اللازمين .

وقد كانت الخطة بسيطة ولكنها محكمة وتحقق تأمين الشعب أثناء المقاومة فقد ركزنا على حفر مواقع دفاعاتنا في المناطق السابق النزول فيها عام ١٩٥٦ بواسطة رجال المظلات وقوارب الإنزال وكانت تنحصر في مناطق المناخ والجميل والجبانات والرسوة ووابور المياه وبطول الشريط الساحلى ومدخل الميناء . وقام الأهالى متطوعين بجهودهم الذاتية وبأدواتهم بحفر خنادق وخنادق مواصلات بين المدافعين تربطهم بأطراف المدينة على أن تستخدم كملاجئ ، من الغارات الجوية وضرب الاسطول ، لجميع أهالى المدينة ، وذلك لتفادى هدم المنازل عليهم . كما وفرنا تجهيز نقط مراقبة بمجهزة بتليفونات في جميع الأماكن السابق ذكرها لمراقبة أى نزول أو غزو والتبليغ عنه أولاً بأول بأجهزة تليفونية وأجهزة لاسلكى خفيفة الحمل (وكانت نقط المراقبة حول المدينة عبارة عن خنادق محفورة بطول قامة الرجل مستخدمين بعض المواسير الضخمة ومغطاة من أعلا بغطاء يسهل سحبه ورفعها كما كان متبع في المقاومة الشعبية في فيتنام) وذلك حتى لا نفاجأ بإنزال أو هبوط للعدو في أى منطقة دون الاستعداد لها بالمقاومة . وبذلك أصبح حول بورسعيد حزام دفاعى شعبى متكامل يمكنه أن يحدث أكثر الخسائر لأى عدو يفكر في الغزو .

وفى يوم الجمعة ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ أعلن في الأذاعة منذ الصباح ولعدة مرات أن الرئيس جمال عبد الناصر سيلقى خطاباً فى الساعة والنصف مساء على الشعب وطول هذا اليوم كنت منهمكاً فى إعداد خطة الدفاع عن بورسعيد

نفسها . وكنت في منزل المحافظ وقت إلقاء خطاب عبد الناصر أتناول غذائي وجاء فيه تنحيه عن رئاسة الجمهورية وقرار تعيين زكريا محيى الدين رئيساً للجمهورية . توجهت لمكتب المحافظ وكان قد سبقني إلى هناك بعد الخطاب مباشرة ووجدت جموعاً غفيرة من شعب بورسعيد حول مبنى المحافظة تهتف في انفعال وعصبية مطالبة باستمرار عبد الناصر في موقعه وكنت في مكتب مجاور لمكتب المحافظ مع جمع من موظفي المحافظة وقيادات الاتحاد الاشتراكي وكان من بين الحاضرين من هم ضد فكرة المطالبة باستمرار عبد الناصر في موقعه ويؤيدون فكرة تنحيه وهو الفدائي غريب محمد حضري (الشهير بغريب تومي) وهو من زملاء الكفاح بالاسماعيلية وقال بانفعال إنه مادامت إسرائيل عدوتنا هي التي تدبر وترغب في التخلص من عبد الناصر فإننا كشعب له مقوماته وكرامته علينا أن نتمسك بعبد الناصر حتى ولو لم يكن حياً فيه ولكن كرهاً في إسرائيل .

وبعد العاشرة مساء أخذ المذيع يكرر أنه سيذيع بياناً من زكريا محيى الدين ثم فجأة أذاع بياناً من جمال عبد الناصر ألقاه المذيع جاء فيه أن جمال عبد الناصر إزاء مشاعر الشعب ومجلس الأمة المطالبة بعودته فإنه سيذهب صباح اليوم التالي إلى مجلس الأمة لمناقشة موضوع تنحيته .

التعزيز

منذ يوم ٦٧/٦/١٢ بدأت عملية إمدادنا بالسلاح والذخيرة تنتظم ووصلتنا شحنات كثيرة منها وبدأنا فتح مراكز تدريب شعبية على السلاح قبل توزيعه على الأهالي . ووصلت قوة من المتطوعين المدربين من رجال الرقابة الإدارية بقيادة محمد عبد المجيد محيى الدين ومعه عدد كبير من الضباط السابقين بالجيش منهم عبد القادر عبد العظيم ووجيه الدجوى . ثم وصلت

قوة من صف وجنود الكلية الحربية يقودهم الضابط جميل القليوبى ، وانضمت للاشتراك فى الدفاع عن بور فؤاد مع قوات الحرس الوطنى هناك وصلت وحدات من الجيش معظمها من المدفعية وقوات الصاعقة ومعها عدد من الدبابات ، واستمر العبء الأكبر على عاتق المقاومة الشعبية للدفاع عن بور سعيد .

إخلاء الضباط والجنود والجرحى من داخل سيناء

منذ إيقاف القتال فى سيناء توالى وصول أفراد من رجال القوات المسلحة من سيناء إلى بور سعيد ذاتياً عبر ساحل البحر الأبيض وكان يتم التقاطهم دون أى تنظيم بواسطة لشأت شركة الرباط بيور سعيد وفى يوم ١٢/٦/٦٧ حضر الزميل سلامة عثمان ومعه ثلاثة أطباء هم محمود فهمى وعثمان صبرى وفاروق الخولى متطوعين فانضموا إلى المقاومة الشعبية وقام الثلاثة بالذهاب إلى سيناء عبر بحيرة البردويل وعادوا ووضعوا خطة كاملة لتنظيم هذه العملية وعاونهم فى ذلك بمجهود يشكر عليه كل من كمال أبو ذكرى الذى يملك قرية الصيادين ببحيرة البردويل ووضع جميع لشاته وقوارب الصيد فى خدمة العملية وكذلك الشيخ عبد العزيز أبو مرزوقة عمدة بير العبد وشيخ قبيلة البياضية والشيخ عطية مرسى صباح وكلهم من سيناء . ثم تعاون معهم ضابط الصاعقة رفعت وزميله عبد الحميد .

وقام هذا التنظيم بإخلاء آلاف من الضباط والجنود الشاردين فى سيناء وعدة مئات من الجرحى . وفى مرحلة متقدمة أقام الجيش مركز إيواء فى نور سعيد ونظم عملية إخلائهم من بور سعيد إلى القاهرة . وفى بور سعيد ابلت أحد الضباط الذين حضروا شاردين من سيناء ولما سألته عن السبب فى عدم التحامهم مع الجيش الاسرائيلى وكان من الواجب بعد أن

فقدنا السيطرة الجوية أن يقوم الجيش المصرى بالالتحام مع الجيش الاسرائيلى بحيث يصعب على الطيران الاسرائيلى فى هذه الحالة أن يتدخل وكان هذا هو الأمر الطبيعى للخروج من مأزق السيطرة الجوية الإسرائيلية . وجاء رده ليعكس شعور وحالة ضباط الجيش تجاه قيادتهم وقال : « لم يكن لدينا بضباط الدافع لبذل أى مجهود لأننا لو انتصرنا كنا سننتصر لأجل أن يصل شمس بدران فتى القيادة المدلل ليكون رئيس جمهورية . وأضاف أن كل من كان وقد أوقعه الحظ السيء من كبار قادة الجيش أو الضباط ليوافقه شمس بدران بأى معارضه أو خلاف فى رأى كان مصيره التعذيب والاضطهاد والإذلال بما هو فوق طاقة البشر . فهل كنت تريدنا أن نتصر لأجل أن يصل الانتهازيون إلى أعلى المراكز ؟ .

وبعد أن انصرف هذا الضابط علق الدكتور محمود فهمى الذى كان حاضراً هذه المناقشة بأن « هذه هى الخيانة الكامنة فى أوضح صورها » .

وظهر بعد ذلك أن ما توقعه الضابط كان صحيحاً حيث علم بعد ذلك أن شمس بدران كان فعلاً بعد الهزيمة من أول المرشحين لرئاسة الجمهورية وحتى قبل أن يتم التفكير فى زكريا محيى الدين .

وفى أحد الأيام قام فريق من سيدات الهلال الأحمر ببور سعيد بزيارة لقوات الدفاع عن بور فؤاد لتوزيع بعض الهدايا ودعوتى لمرافقتهم . استطف جنود الجيش من قوة الكلية الحربية بقيادة ضابطهم جميل القيلوبى ، وبعض أفراد من الحرس الوطنى . وكانت منازل وشوارع بور فؤاد خالية تماماً ويسود المدينة كآبة موحشة كالمقابر وليس هناك أى مظهر للحياة سوى هؤلاء الجنود . وقامت السيدات بتوزيع الهدايا والحلوى على الجنود . ثم وقفت سيدة فاضلة كبيرة السن وأخذت تتحدث إلى الجنود ونقول لهم انها وزميلاتها أمهات

للجنود أولادهن الذين يدافعون عنهن وأنهن يدعون لهم من أعماق قلوبهن ويشددون من أزرهم ويفخرن بهم فكان لكلماتها وقع مؤثر عظيم فتأثر أحد الجنود الواقفين وأخذ يبكي بانفعال شديد حتى انهار وسقط مغشياً عليه وتأثر زملاؤه وأخذت دموع بعضهم تسيل متأثرين بكلمة هذه الأم الحنون .

تركت كلمة هذه السيدة الفاضلة أثراً كبيراً في نفوس الحاضرين وبخاصة الجنود ورجال المقاومة . وصاح أحد الجنود بالهتاف « تحيا مصر ، تحيا مصر » فأعلن بهذا النداء أن الهزيمة العسكرية المريزة ليست سوى بداية للصمود والمواجهة .

وفي يوم الخميس ٢٢ يونيو دعانى القائد العسكرى لمنطقة بورسعيد اللواء المقدم كقائد للمقاومة الشعبية للقاء المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات السوفيتية بعد مروره مع قادة الجيش المصرى الجدد على وحدات الجيش المصرى والمقاومة الشعبية فى بورسعيد وبور فؤاد .

وأثناء انتظار معباد الغذاء ونحن جالسون دارت مناقشة بينى وبين الفريق محمد فوزى وزير الحربية ، وكنت أتساءل عن مدى خطورة استطلاع الأقمار الصناعية على خطوطنا الدفاعية لأننى كنت قبلها قد لاحظت ليلاً مرور هذه الأقمار الصناعية فوق سماء المنطقة ولفت نظرى إليها أحد أفراد المقاومة أثناء مرورى عليهم فى مواقعهم . وكان رد الفريق فوزى أنه لاخطورة إطلاقاً من هذه الأقمار لأنه نظراً لارتفاعها الشاهق فإن أجهزتها لا يمكنها أن تميز بين العربة الجيب وجهاز الرادار .

وأجبت بآن هذا مخالف للحقيقة لأن الطائرة الـ Us الأمريكية التى سبق أن تمكن السوفيت من إسقاطها سليمة ، بعد فحص أجهزة التصوير التى

كانت بها وجد أن أجهزتها قادرة على تصوير رأس المسمار الشيشة من ارتفاع ١٢ ألف قدم وتصوير مانشيت الجريدة على ارتفاع ٢٢ ألف قدم وقد نشر كل ذلك في أحد أعداد مجلة لايف الأمريكية الذي تصادف لي الاطلاع عليها ضمن موضوع شامل عن التصوير وذلك قبل العدوان .

فوجيء الحاضرون بالمارشال زخاروف يخط بيده على الطاولة بشدة ويوجه الكلام بالإنجليزية إلى الفريق فوزى الذى كان بجانبه ويشير قائلاً « المقاومة الشعبية على حق » ويكمل حديثه « لأننا في الاتحاد السوفيتى لدينا جداول زمنية بمواعيد مرور الأقمار الأمريكية وأثناء مرورها في سمائنا نغطى ونموه جميع دفاعاتنا » .

وكان بجانب زخاروف أحد المترجمين الروس قام بترجمة الحديث بينى وبين الفريق فوزى له . لا عيب في ألا يتمكن أى قائد من الاطلاع بنفسه على كل ما يجيء بالمجلات ولكن يجب أن يكون لديه مكاتب متخصصة ومخابرات تده بكل ما يمس عمله . عموماً لم يكن هذا غريباً عليه أو على من حوله من قادة الجيش الجدد لأنهم جميعاً كانوا مسئولين بشكل أو بآخر عن الهزيمة . فيهم من كانوا يشغلون مراكز قيادية عليا في الجيش ولكن الذى تغير فقط بعد الهزيمة هو المشير عامر وهيئة مكتبه ولم يحدث التغير الجذرى في الجيش ونفس الشيء حدث في القيادات السياسية العليا والتي كان يجب أن تهتز هي الأخرى .

هل حدث تغيير ؟

صدر قرار تعيين عبد المحسن أبو النور قائداً للمقاومة الشعبية يوم ١٩٦٧/٦/٢١ بدلاً من زكريا محيى الدين الذى دخل التشكيل الوزارى واستدعيت مع باقى قواد المقاومة بمدن القنال لطفى واكد وإسماعيل فريد

لحضور مؤتمر بالقيادة العامة برئاسة محسن أبو النور لبحث موضوع تدعيم وتدريب المقاومة الشعبية في منطقة القتال . غادرنا مناطقنا واتفقنا على اللقاء صباح يوم انعقاد المؤتمر والذهاب معاً وللأسف وصلنا متأخرين عن موعد بدء الاجتماع وكان المجتمعون قد فرغوا من مناقشة موضوع توفير عدد من المدربين من رجال الجيش لتدريب أفراد المقاومة في مدن بورسعيد والقنطرة والسويس والإسماعيلية . وكان الاجتماع يضم جميع قادة أسلحة الجيش المصري ورئيس هيئة العمليات اللواء أحمد اسماعيل على . وأشار عبد المحسن أبو النور على اللواء أحمد اسماعيل بإعادة مضمون ما تم بحته والاتفاق عليه قبل حضورنا .

وأخذ اللواء أحمد اسماعيل يذكر مواد التدريب اللازمة لرجل المقاومة من تدريب على جميع أنواع الأسلحة الصغيرة والمدفع الرشاش الثقيل والخفيف وأسلحة المشاة المضادة للدبابات والقنابل اليدوية والتدريب العملي على ضرب النار على كل هذه الأسلحة ثم القتال في المدن وذكر في نهاية حديثه أنه جعل مدة التدريب على كل هذا البرنامج ثلاثة أسابيع وهنا وبدون استئذان للكلام وجدت نفسي انفجر بسخط على هذا الأسلوب المظهري في معالجة الموضوعات الجادة وهذا الاستهتار والاستهانة حتى بعقلية الموجودين حيث إننا نعلم جيداً أن مصر تعتمد في هذه المرحلة اعتماداً أساسياً في الدفاع عن هذه المناطق على المقاومة الشعبية لانهاك الجيش في إعادة تنظيم صفوفه ، وإعادة تسليحة لفترة تطول .

ولا يصح أن تتعامل القيادات مع المقاومة في أهم أمورها وهو اعدادها للقتال الجدي هذا الأسلوب المظهري الذي دأبنا عليه حتى تسبب في الهزيمة لأن مثل هذا البرنامج التدريبي المطلوب لا يكفيه بأي حال من الأحوال

الأسابيع الثلاثة وقد تكون كافية للتدريب على مادة واحدة وهي القتال في المدن . قام السيد عبد المحسن أبو النور بتهديته الجو واقترح أن تكون المدة خمسة أسابيع أو شهراً . وفي الحقيقة انى لم أكن أعلم أن المتكلم هو اللواء أحمد اسماعيل لأننى كنت بآخر طاولة الاجتماع على نفس الجانب وهو فى أولها ولكننى وجدته بعد الانصراف يتجه إلى ويحدثنى فى طيبة . ولكنها قد تكون غير مطلوبة فى مثل هذه الأمور ويأخذ على أننى أخرجته أمام المجتمعين خصوصاً قادة الجيش الموجودين كلهم تحت قيادته .

معركة رأس العشن

بعد ظهر أحد الأيام كنت مع لطفى واكد فى القنطرة غرب فى مركز رئاسته فى غرفة بأعلى المبنى تكشف نافذتها البر الشرقى من القنال . وأبلغنا الحارس بأعلى المبنى أنه يرى قوات إسرائيلية متحركة فى البر الشرقى فى اتجاه الشمال . وشاهدنا من النافذة طابوراً إسرائيلياً عبارة عن ست دبابات فى المقدمة يتبعها عشر عربات مصفحة ثم عشرة لوارى محملة بالجنود متجهة إلى الشمال وهذا يعنى أن هناك احتمال تحضير لهجوم اسرائيلى على بور فؤاد . واتصلت تليفونياً بقائد الحرس الوطنى فى بورسعيد جمال السيد وأبلغته بتفاصيل ما شاهدته وأشرت عليه بتبليغ هذه التفاصيل إلى قيادة الجيش فى بورسعيد اللواء المقدم للاستعداد لمواجهة هذا الهجوم المنتظر وكلفته بتبليغ المهندس عاطف زيد المسئول عن العمليات الخاصة بالمقاومة بالاستعداد فى بور فؤاد لتجهيز عملية كهربية المانع الموجود أمام قوات المقاومة الخلفية على طريق تقدم القوات الإسرائيلية ، وإرسال جميع قوات الحرس الوطنى الموجودة فى بورسعيد بالإضافة إلى متطوعى الرقابة الإدارية بقيادة محمد محبى الدين إلى بور فؤاد لتعزيز قوة الدفاع الشعبية هناك على أن يقوم بتوزيعها بنفسه

وأنتى قادم فى الحال .

وأنا على الطريق إلى بور سعيد شاهدت الطابور الإسرائيلى على البر الشرقى يواصل سيره فى اتجاه بور فؤاد ببطء يتناسب مع سرعة الدبابات . وعند وصولى إلى بور سعيد علمت أن قيادة الجيش هناك أرسلت فصيلة من الصاعقة ومعها ست دبابات إلى الموقع الأمامى على طريق تقدم الطابور الإسرائيلى واحتلوا مواقع دفاعية على أجناب الطريق مع قوة الحرس الوطنى هناك . علمت أيضاً أن قائد الصاعقة استلم من قيادة المقاومة عدداً كافياً من أجهزة الاتصال اللاسلكى الخفيفة Walhy Talky كنا استلمناها من الجمرى وذلك لتستخدمها القوات المصرية فى المعركة المنتظرة .

ذهبت إلى بور فؤاد ومررت على قوات المقاومة الأمامية والخلفية ووجدت أن الإسرائيليين احتلوا مواقع فى مواجهة قواتنا استعداداً للهجوم ثم طمأننى المهندس عاطف زيد وكان يعاونه وكيل النيابة المتطوع مصطفى سحيم على المانع الكهربائى السابق تجهيزه وأن المانع سوف تسرى فيه الكهرباء من المولد الموجود بالترسانة عند إعطاء الإشارة إذا ما تمكنت القوات الإسرائيلية من الاستيلاء على الموقع الأمامى . وعند الغروب تقريباً وأنا فى بور فؤاد بدأت المدفعية المصرية من مواقعها فى بور سعيد توجه نيراناً شديدة ومكثفة على مواقع الجيش الإسرائيلى أمام بور فؤاد وأخذت المدفعية الإسرائيلية ترد هى الأخرى بضرب بور سعيد رداً على ضرب المدفعية المصرية .

وعدت مع مصطفى سحيم إلى رئاستى فى بور سعيد وعندى ثقة كبيرة من جميع تجهيزات المقاومة فى بور فؤاد . وأخذت أحد أجهزة اللاسلكى الخفيفة وقمت بفتحة على نفس تردد قائد الصاعقة فى بور فؤاد . وكانت كلها إشارات تدل على التأكد من حالة الاتصال فقط وواليت الاستماع إلى ما يذاع ولم يكن

فيه إفصاح عن أى خطة أو أوامر وكان ذلك ضرورياً لسرية خطة المعركة المقبلة . استمر تبادل ضرب المدفعية طوال الليل .

وقبل منتصف الليل طلبنى المحافظ وطلب منى تجهيز مندوب من عندى يذهب مع حملة من عربات سلاح المهندسين إلى مخازن مواد النسف الموجودة عند المقاومة ليسلمهم أى كمية يطلبونها لأن قيادة الجيش فى بورسعيد مصممة على نسف الترسانة البحرية فى بورفؤاد قبل أن يستولى عليها الجيش الإسرائيلى . وقبل أن يصل مندوب سلاح المهندسين اتصلت بغرفة عمليات الجيش وأبلغته أننى سأسلم له ما يريد من مواد النسف ولكنى اقنعته بأن الموقف فى بورفؤاد مطمئن وأن قواتنا هناك قادرة على إيقاف التقدم الإسرائيلى لأننى كنت معهم قبل الغروب . ولكن زيادة فى الحرص طلبت إليه أن يقوم بالتجهيز للنسف فقط وعدم البدء فيه إلا بعد التأكد من سقوط موقعنا الأمامى ، وأن لدى جهازاً لاسلكياً يمكن التأكد عن طريقه ولم يكن هناك فعلاً أى اتصال بين رئاسة القوات فى بورسعيد وبين قوات الجيش فى بورفؤاد .

وتم استلام سلاح المهندسين لمواد النسف وأرسلت أحد الأجهزة اللاسلكى إلى قيادة القوات وقبل أن تعبر عربات الجيش المحملة بمواد النسف وبعد منتصف الليل بقليل سمعنا صوت تبادل نيران معركة بورفؤاد بين قواتنا والقوات الإسرائيلية وبالإستماع إلى جهاز اللاسلكى علمت أن قواتنا المتمركزة على أجناب الطريق تمكنت من تدمير دبابتين إسرائيليتين أماميتين مما تسبب فى سد الطريق أمام تقدم باقى القوات الإسرائيلية وبعدها بقليل علمت عن طريق الجهاز أيضاً أن دبابتين إسرائيليتين فى مؤخرة القوات الإسرائيلية تم تدميرهما وأن قواتنا على الأجناب تمكنت من إحداث

خسائر كبيرة جداً في القوات الإسرائيلية التي وقعت داخل مصيدة يستحيل عليها التقدم ولو شبراً آخر وأن قواتنا مهيمنة على الموقف تماماً .

تأكدت عندئذ من النصر فاتصلت بغرفة عمليات الجيش وهنأهم على هذه النتيجة وطلبوا منى موافاتهم هناك . عند وصولي إلى غرفة العمليات وجدت زميلي في الكلية الحربية اللواء عبد المنعم خليل حاضراً لتوه من بور فؤاد حيث كان يشرف على العملية من هناك . وأبلغني أنه تولى هذه القيادة بعد الغروب فقط وكان حاضراً بالصدفة للمرور على قيادة بور سعيد وأثنى على كفاءة وتعاون المدفعية التي سهلت مأمورية المقاتلين كما أبلغني أن معظم مصفحات وعربات الجيش الإسرائيلي قد تحطمت وأنهم قاموا بالانسحاب غير المنظم أثناء الليل . كذلك علمت أن مواد النسف لم تستخدم ولكن الجيش احتفظ بها في الترسانة لاستخدامها عند اللزوم .

انقل خبر هذا النصر إلى شعب بور سعيد منذ الفجر بعد أن بات ساهراً ومتربهاً النتيجة على أصوات الاشتباكات . وفي الصباح خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل أخبار المعركة بفرحة تدمع العيون وكان موكباً شعبياً أعاد ثقة الشعب في مقاتليه حتى أن السيدات قمن بغسل الدبابات التي اشتركت في المعركة بالمياه زيادة في التكريم وقدم الشعب وجبة الإفطار إلى إخوانه جنود وضباط الصاعقة . ومهما أوتيت من بلاغة لا يمكنني وصف هذا الاستقبال الشعبي الرائع وكان فيه أبلغ المعاني لتجاوب الشعب مع جيشه إذا ما أدى الأمانة في الذود عن الوطن وأن النصر ليس ببعيد إذا صدقت النية والعزيمة والعمل .

انسحب الجيش الإسرائيلي من مشارف بور فؤاد ولم يفكر ثانية في العودة إلى مثل هذه المعركة . لأنه واجه جدية وفدائية ومقاومة من الجيش والشعب .

وقام الصحفي جلال كشك بكتابة مقال لجريدة الجمهورية عن أبعاد ونتائج هذه المعركة أنها بثلاث كلمات صادقة « وقفنا وقاتلنا فانتصرنا » ولكن الرقابة حذفت الكلمات الثلاث !

العودة للعمل بالاتحاد الاشتراكي

بعد معركة رأس العش عدت إلى القاهرة لعملي بالاتحاد الاشتراكي لفترة قصيرة حتى صدور بيان ٣٠ مارس والذي كان يراد به إعادة التنظيم والمراجعة الشاملة . ففعلاً تتابعت الأحداث السياسية الداخلية والخارجية مما جعلني أقضي كثيراً من الوقت خلال الأحداث في مراجعة النفس وتأمل الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الدرجة من الفشل والضياع .

وقد تكون فترة التأمل والمراجعة هذه مجال بحث أو دراسة أو مذكرات أخرى ، أسأل الله أن يهيني العمر والمقدرة ، ومن واقع الوثائق التي لدى ، لعمل كتاب آخر عن تجربة فترة العمل السياسي في الاتحاد الاشتراكي العربي .

عندما تتكلم الصورة



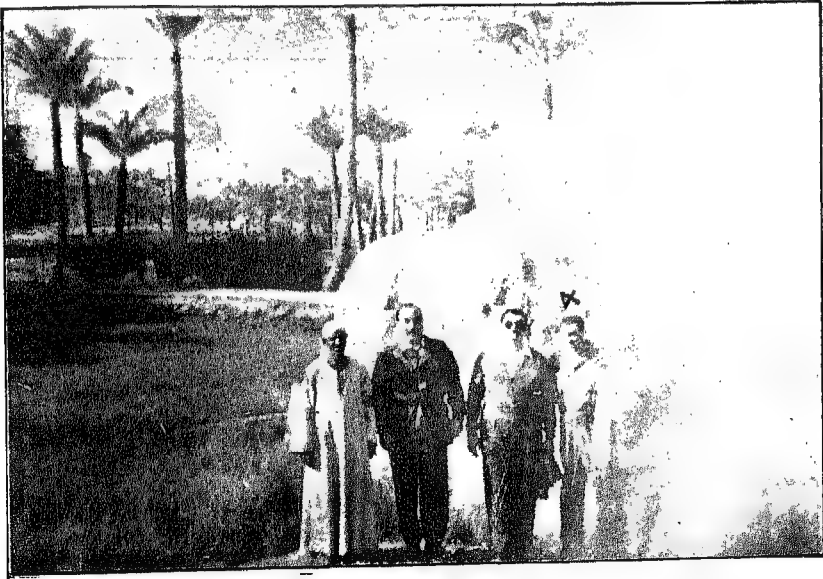
مع الضباط الجرحى في مستشفى الجمعة الخيرية



أثناء الخدمة بالسجن الحربى بعد حملة فلسطين



في وحدتي
بالعرش يوم
إعلان ثورة ٢٣
يوليو ١٩٥٢



مع الزميلين كمال الدين رفعت وسعد عفرة

YOU WILL DIE SOON OR LATE



BY COMMANDOS...



OR PLAGUE...

نموذج من المنشورات التي كانت توزع داخل القاعدة
البريطانية بالقناة .



نموذج آخر من المنشورات



مع المندوب اليوناني وسيلي سيانو بولوس خلال فترة
الكفاح المسلح بالقناة قبل اتفاقية الجلاء



أثناء فترة الكفاح المسلح في القناة مع الزميل عمر لطفى

(استمارة رقم ۲ ب ش)

الجنسية مصريون جهة الميلاد مصر محافظة شبراخيت
 المهنة مهندس مهندس مهندس
 معرفة القراءة والكتابة نعم
 الموطن الاقرب شبراخيت محافظة شبراخيت
 رقم التيلة ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
 محل السكن شبراخيت محافظة شبراخيت
 مركز شبراخيت محافظة شبراخيت
 قسم شبراخيت محافظة شبراخيت

تغییر السکن الی مرکز او قدم آخر

مديرية
تاريخ ١٩
توقيع الموظف المختص

بطاقة شخصية

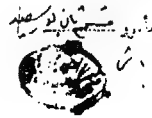
باسمہ تعالیٰ

مجموعه



190. 2.

صدرت بطابع

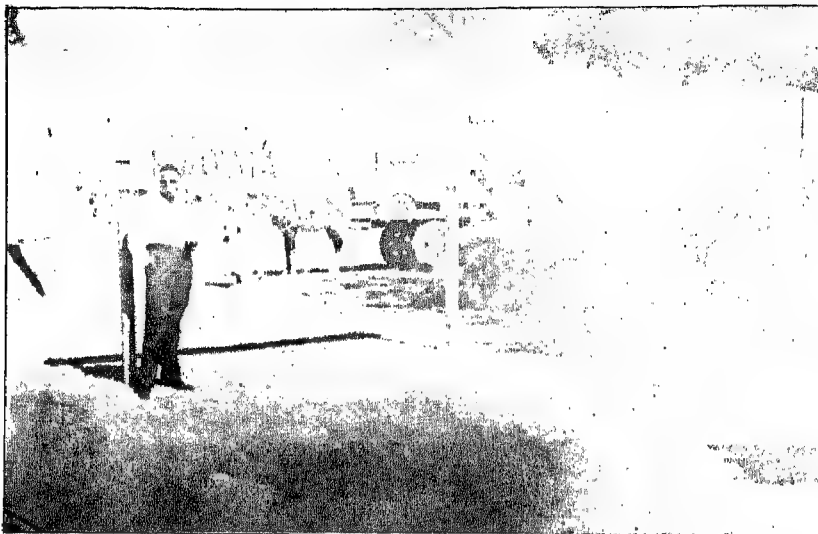


توفیم مراجعہ

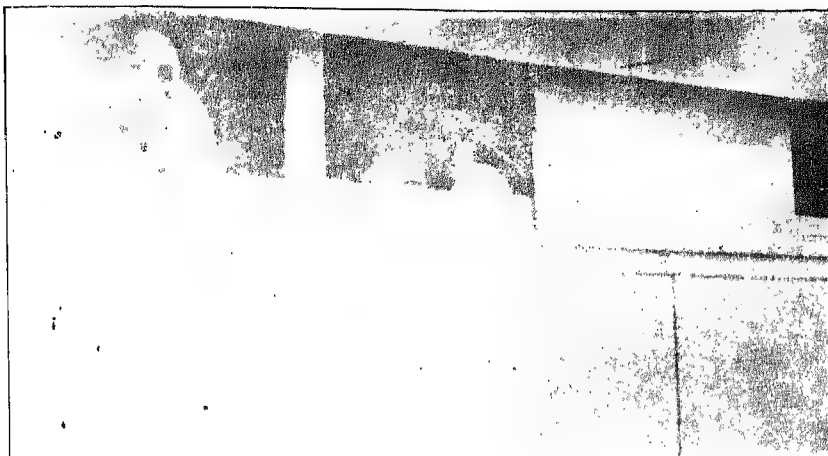
صورة لبطاقتي المزيفة بالشخصية الجديدة أثناء المقاومة
السرية في بور سعيد (العدوان الثلاثي)



صورتی وأنا فی زی
العجلاتی غریب
محمود غریب



المساعد عبد الفتاح فرج في الطريق لزيارة آبا (معقل
المهدية)

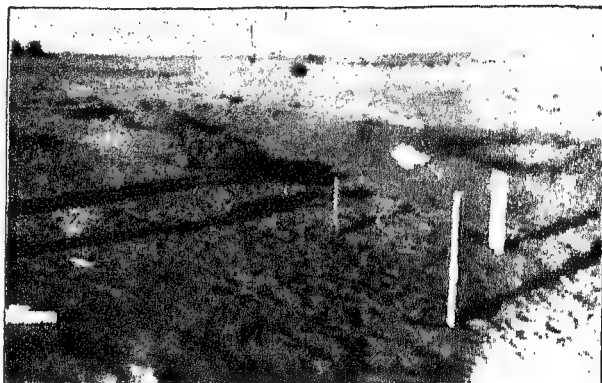


في الطريق إلى رحلة الأبيض بالسودان مع الزميل عبد
الفتاح فرج



الأستاذ صلاح محمد علي مدير وكالة الأنباء
العربية بالخرطوم ، والصورة في « كوستي » خلال
حادث اختناق عمال « الفلاته » .

مقبرة شهداء
« الفلّاته » في
كوستى يوم
الحادث .



السيد
عبد الرحمن
المهدى

أتباع المهدى في
جزيرة آبا





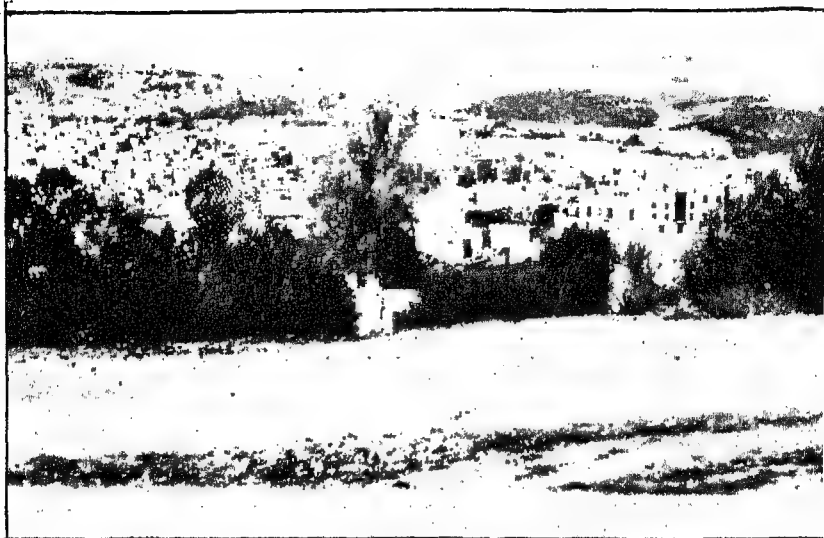
الملحق العسكرى زكريا العادلى إمام ، والسفير
المصرى عثمان عبيد . والمستشار السورى جهاد
ضاحى والمؤلف بمناسبة تقديم أوراق اعتماد
السفير المصرى .



المؤلف أثناء خدمته بالمخابرات العامة ومعه في الصورة
رئيس المخابرات العامة صلاح نصر ، وشعراوي جمعة
الذي كان وقتها يعمل بالمخابرات العامة ، وزغلول كامل
مدير مكتب صلاح نصر (المناسبة حفل خطوبة كريمة
الرئيس جمال عبد الناصر)



في مؤتمر العلوم والتكنولوجيا في هيئة الأمم في جنيف ويبدو في الصورة
رئيس وفد مصر الوزير صلاح هدايت والمؤلف (الرابع على يمين صلاح
هدايت) .



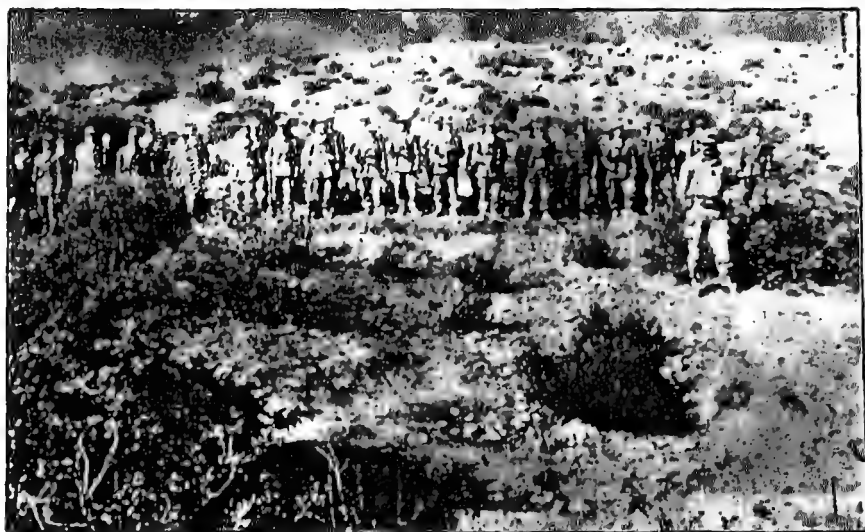
القرية الجزائرية التي كان يسيطر عليها جيش التحرير



المؤلف مع الصحفي المصري إسماعيل الحبروك في القاعدة
الخارجية لجيش التحرير بالمغرب .



المؤلف مع أفراد جيش التحرير الجزائري أثناء التدريب في
القاعدة الخارجية بالمغرب



جيش التحرير الجزائري (جيش الداخل) .



في الطريق إلى العريش قبيل عدوان ١٩٦٧



فترة المراجعة والتأمل بعد الهزيمة العسكرية حيث عدت
للعمل بالاتحاد الاشتراكي العربي .

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

٥	إهداء
٧	هذه المذكرات .. لماذا ؟
١٣	.. وكانت البداية
٤٥	معارك ١٩٤٨
٥٥	الإحجام والإقبال
٧١	ضابط في السجن الحربي
٧٧	موقف وطني لا ينسى
٨٣	٢٣ يوليو على الأبواب
٩٩	ثم قامت الثورة
١٠٣	.. وعملت في المخابرات
١١٣	عمليات المقاومة في القناة
١٤٧	مراسل صحفي في السودان
١٨٣	المقاومة السرية ضد الإحتلال
٢٠٧	التهامي .. والقلمة الغامضة

٢١٣	المخابرات .. وإعادة التنظيم ..
٢١٧	مهمة في تركيا ..
٢٥١	عودة إلى المخابرات ..
٢٥٩	مهام خارج الحدود ..
٢٦٩	.. وبدأت العمل في الإتحاد الاشتراكي ..
٢٧٧	ثم جاءت النكسة ..
٣٠٩	عندما تتكلم الصورة ..

صدر من سلسلة « كتاب الحرية »

العدد الأول :

هذا هو الإسلام (طبعتان) لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

العدد الثانى :

٧٢ شهراً مع عبد الناصر للأستاذ فتحى رقصان

العدد الثالث :

الطب والجنس (طبعتان) للأستاذ الدكتور مدحت عزيز شوقى

العدد الرابع :

الدولة والحكم فى الإسلام للأستاذ الدكتور حسين فوزى النجار

العدد الخامس :

أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن للأستاذ عبد المغنى سعيد

العدد السادس :

مصر وقضايا الاغتيالات السياسية للأستاذ الدكتور محمود متولى

العدد السابع :

الطب النفسى للأستاذ الدكتور عادل صادق

العدد الثامن :

أزمة الشباب .. وهموم مصرية للأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

العدد التاسع :

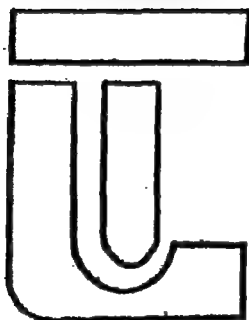
المسيحية والإسلام على أرض مصر للأستاذ الدكتور وليم سليمان قلادة

العدد العاشر :

الإرهاب والعنف السياسى اللواء دكتور أحمد جلال عز الدين

لاكي تورز

السياحة



MEMBERS OF



- ✦ تنظيم رحلات للأفراد والمجموعات
- ✦ سياحة الندوات والمؤتمرات
- ✦ حجز فنادق وتذاكر طيران وقطارات وبواخر وكذلك حجز بواخر نيلية.
- ✦ نمتلك أسطول من السيارات السياحية المكيفة الهواء.

LUCKY TOURS

35, AND EL - KHALIK SARWAY ST.
CAIRO - EGYPT
CARLS : LOSALTOUR
TELEX : 99915 LUCKY UN

LUXOR - ASWAN

PHONE { 770474
748826
746013

ALEXANDRIA



بسم الله الرحمن الرحيم

البنك المصري للتنمية والائتمان الزراعي

بنوك التنمية والائتمان الزراعي بالمحافظات

أنشطتنا المختلفة

- النشاط الائتماني :

• منح قروض للإئتمان الموسمي .

- النشاط الاستثماري :

يقدم قروض لكافة المشروعات الإستثمارية
للتصنيع الزراعي والأمن الغذائي (ثروة حيوانية
ثروة داجنة - ثروة سمكية - مناحل) .

- النشاط المصرفي :

القيام بجميع الأعمال المصرفية (حسابات جارية
دفاتر توفير - ودائع إيداعية - سندات إيداعية -
دفاتر توفير ذات جوائز) .

النشاط التتموى :

يقدم قروض الميكنة الزراعية ويقوم بتمويل مشروعات القرية المنتجة والمزارع الصغير ويقوم بتمويل مشروعات اقامة مصانع العلف والألبان ومخازن التبريد والتجميد والتلج والثلاجات والمفرجات والمخابز ومصانع الطوب والصوب البلاستيكية. كما يقوم بتمويل طويل الأجل لإستصلاح الأراضي وإستزراعها .

المستحدث فى أنشطتنا :

= توافر قروض مقدمه من الهيئات الأيمينية والمنظمات الدولية لتمويل مشروعات الأسمدة الفذائى والقصينع الزراعى ويقدم القروض بقاعدة معتدلة وفترات سماع مناسبة وضمانات ميسرة بمختلف العملات الأيمينية.

= إنشاد ابدارة التجارية لتوفير مستلزمات التتمية الريفية والميكنة لإيراد العملة بأحدث مستلزمات الإنتاج المطورة والأسمدة الحديثة الورقية والمخلبية .

= التوسع فى تنسيط شبكة التعامل مع البنوك الأيمينية والمراهميين .

= تطوير أعمال البنك بإستخدام تكنولوجيا الحاسب الآلى .

= التعامل مع الجمعيات التعاونية وإستخدامها كمنافذ توزيع للبنوك .

مع تحيات
العلاقات العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الشركة العربية لمنتجات السيراميك

مؤسسة حسب القانون ٤٣ لسنة ١٩٧٤ ابو زعبل - القاهرة



الشركة العربية لمنتجات السيراميك
المنتجات على أحدث المعدات والآلات
الألمانية الغربية والبريطانية

المواسير الفخار لزوم الصرف الصحي

مب المواصفات القياسية الألمانية .. بأقطر ٥٠ سم
إلى ٩٠٠ سم وبأطوال ٥٠ سم إلى ٢٠ م ط .

الطوب الأنزرق المقاوم للأحماض

لزوم تبطين الأقباط ومخاطات معالجة
وترشيع مياه الصرف الصحي .

الحراريات الخاصة والقياسية

لزوم الأفران الصناعية حتى ٤٢٠° - ٤٤٠°
المونيا .

الأدوات الصحية من الفخار المطلق جليز

مب المواصفات البريطانية لمستخدمي القاسم
كأحواض الطابج - حمامات القدم - المراضات الخ.

المكتب : ٩٥ مرقاطة تحت الأوكسى مصر الجديدة تليفون : ٢٥٨٨٧٦٧ - ٢٥٨٨٧٦٨
ص.ب. : ٢٦٧٣ بحرية - مصر الجديدة - تليفون : ٢٠٢٦٨ كينكو U-N
المصانع : أبو زعبل - جسر أبو زعبل للصناعة الحديثة - تليفون : ٦٩٨٢٠ - ٦٩٨٢١ - ٦٩٨٢٢ - ٦٩٨٢٣

رقم الإيداع ٨٦ / ٣٢٣١

الترقيم الدولي ٤ - ٠٤ - ١٤٥٥ - ٩٧٧



دار الكتب
المصاحف والطباعة والنشر

العدد القادم

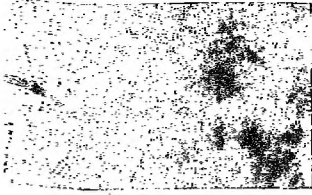
من

كتاب
الحرية

مكتبة
من يريد لها بسوء؟

للاستاذ

محمد جبريل



هذا الكتاب

- ولد بالفاهرة في ٢٨ أبريل عام ١٩٢١ .
- تخرج ضابطاً بالجيش المصري عام ١٩٤٢ ثم درس القانون في أعقاب التخرج .
- شارك في الدفاع عن مصر خلال الحرب العالمية الثانية ، واشترك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .
- أسهم في العمليات والتطبيقات السرية للضباط الوطنيين منذ الأربعينات .
- انتقل للعمل في جهاز المخابرات المصرية منذ بداية الثورة وترقى في مناصبه إلى أن أصبح في عام ١٩٦٦ نائباً لرئيس الجهاز .
- كلف بإدارة الصراع السري ضد حلف بغداد والحلف المركزي . وكذلك إدارة العمليات السرية ضد إسرائيل منذ منتصف عام ١٩٥٧ .
- عمل أميناً عاماً لأمانة الصحافة والنشر ومشرفاً على شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكي العربي .

.. وهذا الكتاب

يتضمن أنظر الأسرار عن الفترة التي تسبق ثورة ١٩٥٢ إلى ما بعد عدوان ١٩٦٧ من خلال العمل القيادي للمؤلف في العديد من مؤسسات الدولة الهامة كالقوات المسلحة المصرية والمخابرات العامة والاتحاد الاشتراكي العربي وغيرها .

.. وهذه الدار

هي أول دار مستقلة للصحافة والطباعة والنشر في مصر نشأت نتيجة جهد وعرق وإيمان مجموعة من المشتغلين بالفكر والكتابة .
□ لتكون مساحة للحوار .. وملقى للفكر المستنير والتفاعل بين الآراء والاتجاهات المختلفة في مصر والوطن العربي .
□ ولتكون حلقة وصل بين التيارات الوطنية المختلفة .. والأجيال العاصلة في الحقل العام .
□ ولتكون إطلالة على الغد تستشرف آفاقه وتبحث مشاكله .. وتسعى إلى فحص حلولها وهي من هذا المنطلق تتجاوز معارك الأمس ، وتحوض معارك الغد وتعتمد في كل ذلك على الجيل الجديد من الشباب تحدث إليه .. وتعمل من خلاله وبواسطته .
وفي كل ما يصدر عنها فإن « دار الحرية » تنفرد بالموضوعية في التحليل . وبالتفكير العلمي وباحترام عقل القارئ . وذلك بهدف دعم الحوار الفكري .. وجذب كل الآراء والاتجاهات إلى دائرة الحوار .



قوس قوس
١٩٨٨